حسن الامين

جنكيز و هولاكو
الغزو المغولي للبلاد الإسلامية
من بغداد الى عين جالوت



دار النهار للنشر

جنكيز وهولاكو
الغزو المغولي
للبلاد الاسلامية
من بغداد الى عين جالوت

حسن الامين

جنكيز وهولاكو

الغزو المغولي للبلاد الإسلامية

من بغداد الى عين جالوت

الطبعة الثانية



دار النهار للنشر

الطبعة الأولى ١٩٧٦

دار النهار للنشر
بيروت ١٩٨٣

ابن الفوطي والهمذاني

اثنان من المؤرخين انصرفا الى تسجيل وقائع المغول كل على طريقته هما: رشيد الدين فضل الله الهمذاني ، وعبد الرزاق بن احمد المعروف بابن الفوطي ، فحفظا لنا بذلك الكثير مما كان يمكن أن يضيع لولا ان حفظاه .

ومن المؤسف انهما مجهولان حتى في الاوساط الثقافية لذلك رأيت قبل البدء بتسجيل الاحداث ان اقدمهما للقراء تعريفا بهما واتماما للبحث .

ابن الفوطي مؤرخ العصر المغولي

بين الأسرى الذين وقعوا في ايدي المغول بعد النكبة الكبرى ، اسير لم ير فيه آسره الا غلاما حدثا قد يصلح اكثر ما يصلح للخدمة في الدور او الدواوين، ولم يثر في نفس الآسر ابعد مما يمكن أن تثير فيها اية دابة من دواب الارض التي تسعى في مصالح الناس وتقاد الى العمل طوعا او كرها واي شأن لصبي لم يتجاوز الاربع عشرة سنة من سنه يقبض عليه بين عشرات الالوف التي قبض عليها في بغداد وغير بغداد ممن دوت دولتهم وهانت عزتهم وتلاشت قوتهم .

هذا الصبي الاسير الذليل هو عبد الرزاق بن احمد الذي اشتهر بعد ذلك بابن الفوطي والذي ولد في المحرم سنة ٦٤٢ هـ ببغداد ثم وقع في ايدي المغول بعد افتتاحهم عاصمة الخلافة العباسية . فمضى مقودا الى آذربايجان ثم منها من مكان الى آخر حتى عثر عليه فيمن عثر عليهم الفيلسوف نصير الدين الطوسي ، الرجل الذي كان له فضل افساد المخطط المغولي في القضاء على الاسلام في معاقل الاسلام .

عثر عليه الطوسي بعد سنة من اسره فلم تفته ملامح الذكاء في وجهه ودلائل النبوغ في تصرفه ، والطوسي يومذاك يفتش عن الاكفاء ويسعى الى الاذكياء ليلم بهم الشمل فيجدد مسيرة الاسلام قدما الى ابعد الغايات . فعمل الطوسي على فكاك الغلام ثم ضمه الى حاشيته . وما عسى أن تكون حاشية الطوسي ؟ كانت علماء حكماء وبناة اشداء رصهم الطوسي رصا في صفوف حاشدة وجمعهم من كل مكان جيشا يقاتل بالقلم ويحارب بالفكر ويكر بالكتاب فكان لفتانا الاسير الطليق مكان واضح في تلك الجموع العاملة العاملة ، بدأه أولاً تلميذا للطوسي تلمذة -استمرت ثلاث عشرة سنة في مدينة مراغة التي اختارها الطوسي ميدانا لكفاحه المرير الطويل .

ووجه الطوسي تلميذه فيما وجهه الى دراسة العلوم الرياضية والنظريات الفلسفية ، كما اتقن التلميذ اللغة الفارسية واحاط بآدابها ونظم الشعر فيها ، وألم بلغة الفاتحين المغول . وكان من اعظم انجازات الطوسي حرصه على انقاذ الكتب وجمعها في مكتبة كبرى وصونها من ايدي المخربين والعابثين ، وبعد ان تم له ذلك وقامت المكتبة ، عهد بالأشراف عليها الى تلميذ ابن الفوطي . وهكذا اجتمع لعبد الرزاق الفكر النير والذهن المتفتح والاستاذ الموجه والمناخ المؤاتي ، فكان ان انتهى الى ان يصبح مؤرخ العصر المغولي العالم الكاتب الشاعر .

في مراغـــة

قلنا ان عبد الرزاق ولد ببغداد ونقول ان اللقب الذي التصق به (ابن الفوطي) انما جاءه من قبل جده لامه ، وهو منسوب الى الفوط جمع فوطة وهي نوع من الثياب ويبدو أن الجد كان يعمل في صنع هذه الثياب اوبيعها ، ويقال انه ينتسب الى معن بن زائدة لذلك يلحق باسمه احيانا لقب الشيباني . وكانت ولادته بعد مضي سنتين من خلافة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين . ولا يدرى شيء عن

حداثته سوى ما يستنتج مما كتبه هو من انه ولد في محلة الخاتونية القريبة من دار الخلافة وانه سمع قبل سقوط بغداد من الصاحب محيي الدين ابن الجوزي احدقتلى وقعة بغداد، وانه ولد في اسرة متوسطة الحال ثم اسر واطلق من الأسر وأصبح قيما للمكتبة الكبرى في مراغة طيلة ثلاثة عشر عاماً . وفي خلال ذلك كانت مراغة قد اصبحت مقرا لدولة تتبعها خراسان وايران باسرها والعراق والاناضول اي انها كانت عاصمة المشرق الذي استولى عليه المغول ، وكانت الحال في هذه الدولة تتطور عاما بعد عام ، فمن عداء صريح للاسلام والمسلمين ومذابح وفواجع ونهب وسلب واحراق الى هدوء ثم تحول لتأسيس دار الرصد وخزانة الكتب وتامين العلماء واستقدامهم من الآفاق البعيدة . كل ذلك تم بعد عام واحد من استباحة بغداد ، وكان الفضل في تمامه للعقل المدبر نصير الدين الطوسي .

المكتبة ودار الرصد

يفهم مما سجله ابن الفوطي نفسه انه وضع للمكتبة نظاما دقيقا يسير عليه المطالعون والدارسون والمشرفون ثم عكف على طلب العلم فكان ان استهواه التاريخ فانصرف اليه . وبدأ اول مابدأ بتسجيل تاريخ الدار التي آوته وحمته وثقفته فسجل كيف انشئت دار الرصد وأشار الى استقدام العلماء المدرسين اليها وذكر عمل كل منهم واختصاصه ومؤلفاته مترجماً له ترجمة ممتعة . والف كتاباً خاصاً سماه «تذكرة الرصد» خصصه بالذين وفدوا الى الدار أو مكتبتها ، كما وصف بعض ما حوته المكتبة من نفائس الكتب وصفا ممتعاً ذكر فيه تراجم المؤلفين وزياراتهم للمكتبة وبعض آثارهم .

وقد حفظ في كل ذلك صوراً للحياة السياسية والعلمية والاجتماعية والأدبية ما كان لها أن تحفظ لولا أن سجلها بقلمه المبدع . مما كان حقيقا بما وصف به من (انه مؤرخ النهضة العلمية الكبيرة في مراغة) .

العودة الى بغداد

وتزداد الحياة تطوراً وتحولا فمن بين السنين الثلاث عشرة التي قضاهـا في مراغة كانت ست منها في حياة الطاغية هولاكو والباقية في عهد ابنه أباقـا ، انغمر فيها ابن الفوطي في المجتمع انغمارا كاملا واستطاع بكياسته ان يتغلغل في أرفع المقامات المغولية وان يزور الأميرات المغوليات وان يستزيد من الصداقات ويكثر من الاخوان . وان يسجل من وحي ذلك كل طريف معجب .

على انه وهو في قمة نجاحه وعنفوان تألقـه لم ينس وهو البغدادي العريق والعراقي الأصيل ضفاف دجلة ومسارح الطفولة ومدارج الصبا وذكريات الأهل والاحباب ، وثار به الحنين الى بغداد التي فارقها غلاماً غض الاهـاب ، فلم ينسه اياها نضوح الشباب وشيوع الذكر ونجاح الأمر حتى كان العام٦٧٨هـ (١٢٧٩م) حين حكم العراق الصاحب علاء الدين الجويني صديقه في مراغة .

وكانت الرغبة الكبرى لابن الفوطي هي ان يحمله الصاحب الى بغداد فحقق الصاحب له الرغبة فكان مما قاله عنه : وهو الذي أعادني الى مدينة السلام سنة تسع وسبعين وستمائة وفوض الي كتابة التاريخ والحوادث وكتب لي الاجـازة لجميع مصنفاته وأملى علي شعره في قلعة تبريز سنة سبع وسبعين وستمائة .

العمـل الذي اتقنه ابن الفوطي في مراغة هو نفسه الذي عهد اليه به علاء الدين الجويني في بغداد وهو الاشراف على مكتبة المستنصرية وكانت آنذاك اعظم مكتبة عامة في العالم وكانت ملتقى لرجال العلم والفكر ، فعكف ابن الفوطي على عمله فيها بنفس الدقة والاتقـان والتنظيم الذي عرف به في مكتبة مراغة . وكانت سنه يومئذ دون الثلاثين فرأى ان يستزيد من العلم فاقبل على دراسة الفقه والحديث بتعمق واتقان حتى استحق بين المحدثين لقب (الحافظ) .

وأنشأ لنفسه مكتبة خاصة كانت محجة للعالمين والمتعلمين البغداديين ومقصدا

للطارئين الوافدين ، وكان يشير في تدويناته الى زواره وزوار مكتبته من كل الاصناف .

كما وضع معجما خاصا بمن تتلمذ عليهم واخذ عنهم فبلغ عددهم الى الخمسمائة .

وظل ابن الفوطي على عمله في المستنصرية خمسا وعشرين سنة بدأت سنة٦٧٩ وانتهت سنة ٧٠٤ كان التحول خلالها قد ازداد سرعة والدنيا تبدلت غير الدنيا. وكانت غراس نصير الدين الطوسي قد نمت واثمرت فاسلمت الدولة المغولية وتحولت الى مجتمع اسلامي يساهم في نهضة الاسلام وتقدم المسلمين .

كما ان السياسة تطورت من حال الى حال فان ارغون حفيد هولاكو صب نقمته على آل الجويني لانهم نصروا عمه احمد تكودار فبطش بهم واستأصلهم وقرب خصومهم ، كما عامل العراقيين معاملة انتقام وقمع لميلهم الى آل الجويني .

وقد كان كل ذلك برأى من ابن الفوطي فشهد الصراع الحزبي المغولي الدامي وشهد مصارع آل الجويني الذين حكموا العراق اكثر من عشرين سنة حكما حببهم الى العراقيين واما لهم اليهم ، كما كان قد شهد من قبل وفاة الصاحب علاء الدين ووفاة استاذه ومربيه نصير الدين الطوسي ووفاة الاجيال التي عاصرت الطوسي او تخرجت عليه .

شهد كل ذلك في العصر المغولي الاول من فتح بغداد الى اواخر القرن السابع، وهذه الفترة تعتبر من اشرس الفترات المغولية واعنفها ، ولكن المغول اخذوا يتكيفون تكيفا تدريجيا فلطف الاسلام من شراستهم وخفف من شدتهم ، ولم يكد القرن السابع ينتهي ويقبل مانستطيع ان نسميه العهد المغولي الثاني حتى كان التكيف قد ازداد بالتصاق المغول بالاسلام وتحمسهم بمظاهر الحضارة الاسلامية فرأينا الحواضر المغولية تصطبغ بصبغة جديدة من المدنية ، ورواسب الوثنية تذوب في النفوس والادارة تتحضر والنظم الاجتماعية تتبدل .

وقد شهد ابن الفوطي هذه العهود كما شهد التي قبلها مشاهدة المؤرخ المرهف الحس واتصل برجالها حكاما وعلماء ونافذين ، فكتب عن كل ماشاهد وترجم للرجال ووصف الحياة ، بعقل نير وفكر ثاقب وقلم رشيق .

في تبريز

بعدما تخلى ابن الفوطي عن عمله في المستنصرية سنة ٧٠٤ رحل الى تبريز حيث اقام هناك ست سنوات ثم عاوده الحنين الى بغداد فرجع اليها ثم عاد الى بغداد وكثر تردده الى تبريز . ويبدو ان الذي جذبه الى تبريز هو وجود صديقه القديم وزميله في الدرس على نصير الدين الطوسي الطبيب رشيد الدين الهمذاني العالم المفكر السياسي الذي عرفت تبريز في عصره ازهى عهودها العلمية والعمرانية والسياسية فلازمه ابن الفوطي وعاود سيرته في الأخذ عن العلماء والدرس على الشيوخ ولقي في تبريز الامام قطب الدين الرازي الفقيه الرياضي الفيلسوف فتلمذ عليه ثم استجازه كما اخذ عن غيره من مشاهير العلماء الذين كانت تعج بهم تبريز ، ولكن اثر الرازي كان فيه بارزا .

وبعد ان وزر رشيد الدين لثلاثة من ملوك المغول الايلخانيين هم غازان وخربنده وابي سعيد تغير عليه الاخير لدسائس حيكت حوله فاقصي عن الحكم ثم اعيد اليه ولكن المؤامرات ظلت تلاحقه حتى قتله السلطان ابو سعيد في احداث ليس هذا مكان ذكرها ..

على ان افجع ما اعقب هذه الاحداث هو احراق مكتبة رشيد الدين وكانت تضم ما لا يقل عن خمسين الف مجلد . ويبدو ان معظم مؤلفات ابن الفوطي كانت ضمن تلك المكتبة فذهبت طعمة للنيران فيما ذهب من كتب ، وهكذا لم يبق من تلك المؤلفات الا أسماؤها فضاع بذلك تاريخ فترة من أدق فترات تاريخنا ولم يبق في ايدينا الا اجزاء محدودة مما كتب ابن الفوطي .

ولقد هزت هذه الفاجعة كيان ابن الفوطي اذ قتل صديقه واحترقت كتبه

فترك تبريز وعاد الى بغداد ومات بعد انقضاء خمس سنوات على حادثة تبريز عن احدى وثمانين سنة .

ضاعت مؤلفات ابن الفوطي النفيسة حرقـا في احداث تبريز على الارجح ، وان كان يمكن ان يكون بعضها قد ذهب للاسباب نفسها التي ذهبت بها مؤلفات غيره من العلماء . ومن كتبه كتاب (مجمع الآداب) الذي لم يوجـد منه الاجزاء ان الرابع والخامس وقد وجد الاول منهما في دار الكتب الظـاهرية بدمشق وهو نسخة الاصل ومسودة المؤلف بخط يده . ووجد الثاني في مكتبة جامعة لاهور في الباكستان وهو نسخة المؤلف ايضا . وهذان الجزآن هما اثنان من اصل خمسين مجلدا يتألف منها الكتاب وقد ضاعت كلها ما عدا هذين الجزآين وطريقة المؤلف في هذا الكتاب هي ان يؤرخ للعصر عن طريق التاريخ لرجاله . وقد ظل يعمل في الكتاب ويجدد فيه حتى قبيل وفاته ، اذ وردت دراسات عن جماعة وجدوا سنة ٧٢١ اي قبل وفاته بسنتين وسنة ٧٢٢ اي قبل وفـاته بسنة واحدة ولا ننسى انه كان عندذاك في الواحدة والثمانين من عمره .

وقد كان لهذا الكتاب اثره الكبير في امداد المؤرخين الذين تلوا عصر المؤلف بادق المعلومات التاريخية عن ذاك العصر . وممن استفـاد منه واخذ عنه كل من الصفدي في (الوافي بالوفيات) والذهبي في (تاريخ الاسلام) والسيوطي في (بغية الوعاة) وابن عنبة في (عمدة الطالب) وشمس الدين الجزري في (غاية النهاية) وابن كثير في (البداية والنهاية) وغيرهم .

ابن الفوطي في المصادر القديمة

في طليعة من تحدث عن ابن الفوطي كان الذهبي في كتابه تذكرة الحفاظ اذ جعله منهم كما سماه مؤرخ الآفاق ، ويبدو من حديث الذهبي ان كتـابه (مجمع الآداب) ذا الخمسين مجلدا هو مختصر لكتاب اكبر ، فالذهبي يقول: (وعمل تاريخا كبيرا لم يبيضه ثم عمل آخر دونه في خمسين مجلدا اسماه مجمع الآداب) .

فهل مجمع الآداب هو مختصر من مطول ام هو كتاب آخر ؟ ...

وذكر كذلك صاحب الدرر الكامنة ان المجمع هو اختصار للكتاب الكبير ، الذي كان تاريخا حافلا جدا ثم اختصره في آخر سماه مجمع الآداب في خمسين مجلدا ...

وذكر صاحب الدرر فيما ذكر من مؤلفاته : كتاب الدرر الناصعة في شعراء المائة السابعة ، وموضوع الكتاب يعرف من اسمه ، وهكذا فاننا نرى ان ابن الفوطي لم يكن مؤرخ سياسة واحداث فحسب ، بل هو ايضا مؤرخ ادب . ولا شك ان فقدان هذا الكتاب خسارة تضاف الى غيرها من الخسارات ، ولوبقي لعرفنافيه حياة شعراء تلك الفترة وقرأنا آثارهم بقلم معاصرسامع لهم باذنيه شاهد لهم بعينيه . ويبدو ابداع ابن الفوطي بكتابة التراجم في وصف الذهبي له حين قال عنه : (... له الباع الطويل في ترصيع تراجم الناس). ووصفه الذهبي ايضابقوله: (كان روضة معارف وبحر اخبار) .

في المصادر الحديثة

لم يلق ابن الفوطي حتى اليوم ما يستحقه من الدارسين في العصر الحاضر باستثناء الشيخ محمد رضا الشبيبي الذي اكتشف مخطوطة الجزء الرابع في دمشق فاستهواه ابن الفوطي استهواء عجيبا جعله يخصه بعدة بحوث ثم ختم ذلك بكتاب من جزئين سماه (مؤرخ العراق ابن الفوطي) .

المثقف الفريد

لاشك ان ابن الفوطي كان في عصره مثال المثقف العالي الثقافة الموغل فيها والآخذ من كل فنونها بطرف ، ومثال العالم الجاد المواصل للمطالعة والكتابة والتفكير ، وحسبك في ذلك ان يظل القلم والورق في يده وهو في الواحدة والثمانين من عمره ، كما كان وهو في مطالع الشباب ونضارة العمر . وان يذكره

المؤرخون في اول صفوفهم كما يذكره المحدثون في رأس حفاظهم، فقيها بين الفقهاء وفيلسوفا بين الفلاسفة ورياضيا بين الرياضيين وشاعرا بين الشعراء وصوفيا بين الصوفيين، واداريا بين الاداريين ومعلما بين المعلمين متذوقا للجمال والموسيقى والشعر .

واذا كنا قد ذكرنا فيما تقدم انه ترجم للعلماء والشعراء والسياسيين فان هذا الفقيه المحدث الحافظ قد ترجم فيمن ترجم لهم لاعلام الموسيقي الآلية والصوتية بل يبدو انه كان ذا بصر في الموسيقى وتجارب عملية . كما ارخ للوراقين والناسخين والمعلمين والمؤدبين وذوي الفنون والصنــــائع الجميلة ، وبذلك خرج على طرائق المؤرخين قبله الذين اهملوا تاريخ الشعب وعنوا بتــــاريخ المتسلطين وحدهم فهو في الواقع مؤرخ الشعب بكل طبقات هذا الشعب .

رشيد الدين فضل الله الهمذاني وكتابه جامع التواريخ

الغزو المغولي الاول الذي حمل وزره جنكيز ، ثم الغزو المغولي الثاني الذي باء بإثمه هولاكو لم تؤرخهما المصادر العربية تأريخاً مفصلا يعرض دقائقهما ويوضح وقائعهما بحيث تكون الصورة أمامنا جلية ترينا ما جرى رؤية بينة شاملة .

وكل ما اشتملت عليه المصادر العربية حديث اجمالي متقطع ، وتدوين عام موزع على وقائع السنين . ولم يكن من هم أكثر من كتبوا عن ذلك ان يخصصوا تاريخاً محصوراً بالغزو وحده ، بل كان هم معظمهم منصرفاً الى التدوين العام لما يجري خلال كل عام ومنه بطبيعة الحال تقدم المغول الى البلاد الاسلامية .

وممن عني من مؤرخي العرب بتاريخ المغول ، ابن كثير في البداية والنهاية وابو الفداء في تاريخه ومؤلف الحوادث الجامعة والسبكي في طبقاته وابن خلدون وابن حجر في الدرر الكامنة والعيني في عقد الجمان والسخاوي في الضوء اللامع. هذا مضافاً الى ما ورد في الكامل لابن الاثير وما أورده ابن الفرات في تاريخه... وفي عصرنا هذا يمكن ان نعتبر كتاب الدكتور جعفر خصباك أفضل ما ألف في هذا الموضوع .

أما في غير اللغة العربية فمن أشهر تواريخ المغول باللغة الفارسية كتاب (جهان كشاي) لعطا ملك الجويني و (تاريخ وصاف) لعبد الله بن فضل الله الشيرازي المعروف بوصاف الحضرة و (تقويم الوقائع التركية) لصاحب كشف الظنون . وفي اللغة التركية عدة كتب وضعت بالتركية رأساً أو ترجمت اليها مثل كتاب (شجرة الترك) لامير خيوة وكتاب (كلشن خلفا) وكتاب (ترك

تاريخي) و كتاب التاريخ العام لسائر بطون التتر والمغول والترك ، منقول من الفرنسية الى التركية .

والمغول سواء في عهد جنكيز أو حفيده هولاكو لم يكونوا حملة حضارة ولا رسل عقيدة . كما لم يكونوا ذوي ثقافة ولا أهل علم مما يمكن ان يحملهم على ان يدونوا التاريخ بانفسهم لانفسهم ، أو ان يعدوا من رجالهم من ينصرف الى غير القتل والضرب والتخريب والسلب .

ولكنهم بعد ذلك وقد اسلموا ثم بدأوا يتشبعون بروح الحضارة الاسلامية ويروضون من جماحهم ويهذبون من عتوهم ، ثم يوغل الفكر الاسلامي فيهم فيلتفتون الى غير الطغيان والجبروت ، ويتأملون شؤون الحياة تأمل ذي الفكر الذي اخذ يستنير بنور المدنية وضياء العلم .

أنهم وقد احتوتهم الذهنية الاسلامية وصهرتهم اوساطها ، بدأوا يعنون بتاريخهم والتطلع الى ماضيهم وحاضرهم وتسجيل ما يمكن ان يعتبروه من مآتيهم ومآثرهم .

واذا كان ماضيهم زاخراً بسفك الدماء ، حافلا بالترويع قائماً على الغدر وتحليل كل محرم . فان ذهنيتهم ، بل ربما كان لنا ان نقول : ان ذهنية الناس كل الناس يومذاك وما بعد يومذاك ، كانت ترى في الغلبة وقهر الشعوب افخم امجادها بصرف النظر عما يرافق هذه الغلبة من أهوال وفجائع .

وهكذا فان مجرد تصورهم ما احرزه جنكيز من انتصارات ، وما حققه هولاكو من فتوح ، كان في نظرهم شيئاً خطيراً يستحق ان يتمدحوا به ويسجلوه في صحفهم دليلا على بطولتهم واشارة الى قوتهم وشجاعتهم .

وكان اول من فكر منهم بوضع تاريخ لهم هو غازان الذي عهد بهذه المهمة الى الطبيب فضل الله رشيد الدين الهمذاني .

رشيد الدين

وتعود الصلة بين رشيد الدين وبين المغول الى اليوم الذي حقق فيه هولاكو انتصاراته الحاسمة في زحفه الطويل فكان مما خضع له قلعة الموت حصن الاسماعيليين الحصين فاستسلم حاكمها ركن الدين خورشاه واستسلم معه فيمن استسلم ثلاثة من نزلاء القلعة هم نصير الدين الطوسي ورئيس الدولة وموفق الدولة الهمذاني . فقتل هولاكو الجميع واستثنى من القتل هؤلاء الثلاثة لا رحمة بهم ، بل حاجة اليهم لان الاول كان فيلسوفاً كبيراً وفلكياً مشهوراً والثاني والثالث كانا طبيبين معروفين . وكان هولاكو بحاجة لهذا النوع من الرجال فالزم الثلاثة صحبته وامرهم بمرافقته والسير في ركابه .

والطبيب موفق الدولة هو جد الطبيب فضل الله رشيد الدين الهمذاني .

ولسنا ندري الى أي مدى استمرت صلة الجد بالمغول ، ولا نوع الصلة التي كانت بعد ذلك للاب بهم ولكننا نعلم ان رشيد الدين كان من أعوان غازان السلطان المغولي المسلم المقربين وخلصائه الاثيرين .

على ان ما يرويه رشيد الدين نفسه قد يدلنا على ان صلة الاسرة بالمغول ظلت مستمرة وانها تعمقت بعد اسلامهم ، فرشيد الدين يقول عن نفسه : « على هذا النحو كنت استغل اوقات فراغي ، وذلك لاني الحقت بقصر السلاطين منذ شبابي الغض » .

ولا بد ان الذي الحقه بالقصر هو ارتباط ابيه بذلك القصر بعد ارتباط جده. ويبدو لنا ان ذلك الارتباط كان في تسلسله ارتباط اسرة عرفت بالطبابة ومهارتها بها وانه كما كان الجد طبيب القصر المغولي كذلك كان الاب ثم كان الحفيد .

ولد رشيد الدين في مدينة همذان سنة ٦٤٥هـ (١٢٤٧م) على الارجح . اذ

انه يحدثنا انه كان في سنة ٧٠٥ في حدود الستين من حياته . وقبل غازان كان على صلة بأباقا خان وخلفائه مكرماً عندهم معنياً به في بلاطهم . ولكننا لا نعلم انه تولى منصباً كبيراً قبل غازان الذي ولي الملك سنة ٦٩٤هـ (١٢٩٥م) .

ونحن نعلم ان اول من أسلم من ملوك المغول هو (تكودار) بن هولاكو الذي ولي الملك بعد أخيه (اباقا خان) وتسمى بأحمد . وكان اباقا خان قد عهد بالملك الى ابنه (ارغون) . ولكن آل الجويني ومن والاهم من الامراء والقواد لم يدعوا ارغون يتولى الملك ونادوا بتكودار ملكاً سنة ٦٨٠ ولم يطل الامر اكثر من ثلاث سنين حيث استطاع ارغون التغلب على عمه الامير (احمد تكودار) وقتله وتولى الملك بعده . وفي عهد أرغون انتعشت الوثنية من جديد كما اشتد نفوذ اليهود . وبعد ارغون تولى ابنه غازان الذي كان اول ملك مغولي يؤدي الصلاة في المساجد الجوامع فيحذو حذوه الامراء والكبراء وجمهرة الشعب المغولي . وكانت صلة رشيد الدين بغازان في اول امرها صلة علمية بحتة . وكان السلطان يغتنم فرصة لقائه برشيد الدين ليذاكره في مبادىء الاسلام وتفسير القرآن ويستوضحه ما خفي عليه من شؤون الدين ، وليجول معه في امور العلم والفكر .

ثم ولاه المنصب الاول في الدولة وجعله وزيراً له ، بعد مقتل الوزير السابق صدر الدين الزنجاني ، الذي اودى به سعيه برشيد الدين عند غازان ومحاولة الايقاع به لديه ، فادى ذلك الى مقتله واحلال رشيد الدين محله عام ٦٩٧هـ (١٢٩٧م) واشرك معه في الوزارة سعد الدين الساوجي .

ثم مات غازان وتولى الحكم بعده اخوه الجايتو خدابنده فحفظ للوزيرين منصبيهما وظلت لرشيد الدين نفس المنزلة التي كانت له عند غازان .

وكما حيكت له الدسائس لدى غازان اخذت الدسائس تحاك له ولزميله سعد

الدين لدى (خدابنده) فنجا منها رشيد الدين مراراً في حين انها ادت الى مقتل زميله سعد الدين وا تلاف علي شاه محله الذي أخذ يدس على رشيد الدين دون ان ينجح في دسائسه ومات الجايتو خدابنده ورشيد الدين على مكانته ، وتولى بعد خدابنده ولده ابو سعيد والتنافر بين الوزيرين على أشده ودسائس علي شاه لدى ابي سعيد تتوالى حتى نجح في حمل السلطان على اقصائه عن الوزارة سنة ٧١٧هـ (١٣١٧م) . على ان مساعي اصدقائه اعادته من جديد الى الوزارة بعد ان تردد وأحجم ، ولكن هذه العودة كانت السبب في وصوله الى نهاية المحنة . اذ اتهمه زميله علي شاه بانه سمم السلطان خدابنده وبعد مناقشات طويلة اقتنع ابو سعيد بان رشيد الدين إن لم يسمم أباه فهو على الاقل وصف له دواء كان السبب في موته وبالرغم من ان التهمة كانت واهية فقد سيطرت على ابي سعيد فأمر بان يقتل رشيد الدين وأن يقتل معه ولده اليافع ابراهيم الذي لم يكن قد تجاوز السادسة عشرة من عمره بدعوى انه هو الذي ناول الدواء بنفسه للسلطان، فقتل ولده امام عينيه ثم قتل هو سنة ٧١٨هـ (١٣١٩م) وقد بلغ الثالثة والسبعين من عمره .

ولم يلبث بعد ذلك أبو سعيد ان أدرك أنه كان مخطئاً فيما اجراه على رشيد الدين وولده ، وشاء ان يكفر عما فعل فاستدعى غياث الدين أحد أولاد رشيد الدين وعهد اليه بالمنصب الذي كان يشغله أبوه في الوزارة .

أنشأ رشيد الدين في تبريز ضاحية أطلق عليها اسم الربع الرشيدي وعني بها عناية فائقة . على أن أكثر ما يهمنا من تلك الضاحية انه أنشأ فيها مكتبة حافلة جمع فيها من صنوف الكتب ما قل ان يجتمع مثيله في مكتبة . وكانت تحتوي على مالا يقل عن خمسين الف مجلد .

ولما نكب وقتل كان من أفجع آثار النكبة احراق تلك المكتبة بكل ما فيها . ولدينا الكثير من الكتب التي لم يصلنا الا اسمها وكانت فيما تحويه مكتبة

الربع الرشيدي وذهبت كلها طعمة للنار . ويكفي ان نذكر منها مؤلفات ابن الفوطي وحدها .

هذا تلخيص لحياة رشيد الدين السياسية ، وهي حياة مهما كان قد أوتي فيها من كفاءة وتفوق في حسن تصريف الامور ، ومهما كتب له من النجاح في ميادينها ، فهي على كل حال حياة كحياة كل السياسيين المتفوقين منهم وغير المتفوقين ، الذين لا يلبث اسمهم ان يضيع في طيات الزمن ويختفي في أغوار الدهر . ولو كانت هذه الحياة هي كل ما كان لرشيد الدين لما وجد من يشغل نفسه بها ويلفت قراءه اليها .

ولكن لرشيد الدين حياة أخرى هي التي تعنينا في هذا البحث ، وهي التي عنت قبلنا غيرنا من الكاتبين : هي حياة العالم المفكر المؤرخ ، وهي حياة اكسبت رشيد الدين الخلود ، وجعلته من احياء الذكر على طول الدهر .

يقول المستشرق الفرنسي (كاترمير) في مقدمته التي كتبها لكتاب جامع التواريخ : «اذا غضضنا النظر عن الطب الذي أقبل رشيد الدين على تعلمه منذ زمن مبكر ، وعن شتى فروع المعرفة الأخرى التي ترتبط بهذا العلم برباط مباشر وجدنا انه أيضاً لم يهمل دراسة الزراعة والهندسة والميتافيزيقا واللاهوت . وكان يحيط احاطة تامة بكثير من اللغات وهي : الفارسية والعربية والمغولية والتركية والعبرية وربما الصينية » .

ويقول عنه ايضاً : « كان مولعاً بالمعرفة أشد الولع فاستطاع رغم كل هذه المشاغل والموانع ان يجد لنفسه الوسيلة لمعالجة الآداب والعلوم والاحاطة بالدين الاسلامي الى أعمق حد » .

ويبدو مما ذكره الفقيه الكبير الحسن بن يوسف بن المطهر ، المعروف بالعلامة الحلي في بعض كتبه أن مجالس رشيد الدين في عهد وزارته كانت مجالس علمية ومباحث اسلامية تعرض فيها شتى البحوث وتطرح مختلف الاسئلة لا سيما المتعلق

منها بالاسلام. وان بعض من كان يحضر كان يسأل رشيد الدين عن دقيق الامور، وكان رشيد الدين يجيب ويناقش .

وقد ذكر العلامة الحلي انه حضر بعض تلك الجلسات في عهد السلطان الجايتو خدابنده واستمع الى سؤالين إسلاميين طرحا على رشيد الدين وأنه أجاب عنهما . ولشدة اعجاب الحلي بجواب رشيد الدين فقد دوّن السؤالين والجوابين . يقول العلامة الحلي ما نصه : « وحضرت في بعض الليالي للاستفادة من نتائج قريحته فسئل في تلك الليلة سؤالين مشكلين فأجاد في الجواب عنهما » .

والواقع ان رشيد الدين كان يمثل المسلم المثقف ، الرفيع الثقافة كما كان يمثل العالم العالمي ، بأوسع ما تعنيه هذه الكلمات من معنى . ولو لم تشغله السياسة ، ولو لم يغره الحكم لكان له من الشأن فوق الذي كان . اذ أنه لم يعط الجانب الثقافي الا بعض العطاء ومع ذلك فقد كان له فيه مثل الذي رأينا .

واذا كان لرشيد الدين من الكتب مثل «التوضيحات» و «مفتاح التفاسير» و «الرسالة السلطانية» و «الاحياء أو الآثار» و «لطائف الحقائق» و «بيان الحقائق» ، فلا شك أن قمة أعماله التأليفية هي ما كتبه في التاريخ في كتابه «جامع التواريخ» .

قصة جامع التواريخ

يعود الفضل بالدرجة الأولى في تأليف هذا الكتاب إلى السلطان غازان الذي شاء أن يكون للمغول تاريخ مكتوب . وكان لا بد في الرجوع في تسجيل هذا التاريخ إلى مصادر معروفة وأحداث مكتوبة تكون المادة الاولى للمؤرخ الذي يأخذ على نفسه القيام بهذا العبء .

وكان سلاطين المغول يحتفظون في خزائنهم بوثائق مكتوبة بلغتهم فيها تدوين لكثير من وقائعهم ، كما كان كثير من الاسر المغولية العريقة يحتفظ بمثل

هذه الوثائق . وكان كل ذلك يحتاج إلى من ينظمه وينسقه ويستخلص منه الحقائق ، ويخرج منه أصولاً لتاريخ يمكن أن يدون .

واهتم غازان بهذا ونضجت الفكرة في ذهنه فعمل على تحقيقها ، ولم يكن في بلاطه أفضل من رشيد الدين من يمكن أن يعهد اليه بانجاز تاريخ المغول وتدوينه. فأودع لديه كل ما كان تحت يده من وثائق وعهد اليه باستطلاع ما يمكنه استطلاعه من المدونات الأخرى أو الروايات غير المعروفة .

فقام رشيد الدين بالمهمة على أفضل وجوهها وعكف على انجازها بقدر ما تسمح له به ظروف إضطلاعه بشؤون الإدارة والحكم .

ولما أوشك الكتاب على التمام كان غازان قد توفي سنة ٧٠٣ (١٣٠٣) وورث عرشه أخوه (الجايتو خدابنده) فلم يكن أقل اهتماماً من أخيه بانجاز هذا التاريخ ، بل زاد عليه بان طلب إلى رشيد الدين أن يشير الى الشعوب التي اتصل بها المغول ويعرض لتاريخها وأن يضيف إلى ذلك دراسة شاملة لكل الشعوب .

ولم تأت سنة ٧١٠ (١٣١٠) حتى كان الكتاب قد انتهى مكتوبا باللغة العربية واللغة الفارسية باسم «جامع التواريخ» وأودع مكتبة المسجد الذي كان رشيد الدين قد بناه في مدينة تبريز .

ويصف كاترمير الكتاب قائلا : « الواقع أن تاريخ رشيد الدين قد اعتمد في تأليفه على فحص الوثائق الوطنية الصحيحة المحفوظة في سجلات الامبراطورية والمذكرات التي في حوزة الامر الكبيرة وقام بتأليفه رجل صادق حي الضمير ، وبذلك يكون قد توفرت له كل مقومات الصدق » .

وينقل كاترمير عن المخطوطة العربية وصفاً لمنهج رشيد الدين وطريقته في التدوين بقلم رشيد الدين نفسه : « أستطيع أن أشهد لنفسي باني لم ادخر أي احتياط أوجهد في تحري الحقيقة والامتناع عن كتابة كل ما هو زائف أومشكوك

فيه . وقد اقتبست دون أي تغيير ما انطوت عليه أصدق الوثائق الخاصة بكل شعب ، والروايات التي حازت أحسن التقدير والمعلومات التي استقيتها من أعلم الرجال في كل قطر . وفتشت كتب المؤرخين ورجال الانساب . وحققت هجاء اسم كل أمة وكل قبيلة » .

الواقع اننا نستطيع أن نعد ميزة التجرد أولى الميزات التي اتصف بها رشيد الدين في تاريخه ، وان نوقن انه سعى وراء الحقيقة سعياً مخلصاً شجاعاً ، ولم يراع جانب المغول وهو يتحدث عما في تاريخهم من فظائع ، وكان كما قال عنه كاترمير : « اذا كان يبدو في كتابه مسلماً صادق الاسلام ، فانا نراه من جهة أخرى يتجنب الاطراء غير المجدي ويتمسك دائماً بنزاهة في الرأي تستحق كل اجلال ، ولا سيما اذا كانت من مؤرخ » .

ويقول أيضاً : « يذكر دون مواربة ولكن دون مبالغة أيضاً ضروب القسوة الشنيعة التي ارتكبها هذا الشعب (المغولي) وتخريب أعظم المدن وأكثرها ازدهاراً وتذبيح السكان العديدين دون قلق أو ندم . كما يصور بهدوء وتحفظ ضروب التجديف التي قاموا بها في مساجد بخارى وغيرها من المدن ، حيث مزقوا المصاحف والقوا بها أرضاً وصنعوا من أغلفتها الثمينة مذاود لخيلهم » .

وعندما نراجع كتاب تاريخ هولاكو ونتجاوز ما فيه من ذكر المذابح والاهوال التي رافقت هولاكو ومشت معه في كل خطوة خطاها مما نص عليه رشيد الدين نصاً واضحاً ، وعندما نقف عند محاولة المغول غزو مصر ، وتصميم الملك المظفر سيف الدين قطز على المقاومة والقتال وما انتهى اليه الامر بعد ذلك من الظفر .

نرى ان هذا القسم قد حوى من الحقائق وأوضح من الخوافي ما لم يكن ممكناً الوصول اليه في غير هذا الكتاب . لقد أبرز لنا مثلا مقدمات معركة عين جالوت والأحداث التي أدت الى تلك المعركة ابرازاً لا نجد له مثيلا في غيره .

وحين نريد الاعتزاز بما جرى لا نجد امامنا ما يعدنا بمثل ما أمدنا به رشيد الدين في كتابه .

وعندما يصف المؤتمر العسكري الذي عقده وترأسه الملك المظفر سيف الدين قطز ، فانه يذكر كل الكلمات والجمل التي وصفت هولاكو بما هو فيه والتي صورته سفاكا غادراً لا يرعى ذمة ولا يحفظ عهداً ولا امانا .

انه يذكر مثلا عن لسان ناصر الدين قيمري من كبار أعضاء المؤتمر قوله عن هولاكو : « لا يتورع عن احتزاز الرؤوس . وهو لايفي بعهده وميثاقه » .

ويذكر عن لسان سيف الدين قطز قوله واصفاً ما جرى في البلاد التي مر بها هولاكو : « ان كافة بلاد ديار بكر وربيعة والشام ممتلئة بالمناحات والفجائع ، وأضحت البلاد من بغداد حتى الروم خرابا يبابا ، وقضى على جميع ما فيها من حرث ونسل » .

ومن الحقائق التي عرفناها في كتاب «جامع التواريخ» حقائق مذهلة حقاً . فلم يكن يدور في خلدنا ان المحرضين للمغول على غزو المسلمين هم بعض المسلمين . وان قاضي القضاة شمس الدين القزويني كان هو المحرض والمصر على التحريض والثابت عليه . فان هذا القاضي أو قاضي القضاة هذا كان لا يحتمل وجود الاسماعيليين في قلاعهم المنيعة التي ارتدت عنها جحافل جنكيز ، فكان لا يفتأ يتوسل الى منكوخان بمختلف الوسائل المثيرة ليحمله على توجيه هولاكو لمباشرة الغزو والتقدم الى القلاع الاسماعيلية .

ولقد سار هولاكو وشعار حملته القضاء على الاسماعيليين الذين كان يسميهم الملاحدة . ويحدثنا رشيد الدين عن ذلك قائلا عن هولاكو : « ثم أرسل عدة رسل الى الملوك والسلاطين في ايران تشتمل على تلك العبارات : « بناء على أمر القاآن قد عزمنا على تحطيم قلاع الملاحدة وازعاج تلك الطائفة ... »

تدابير ابن العلقمي

ويعرض لنا رشيد الدين التدابير المحكمة التي كان يعدها ابن العلقمي لدفع عادية المغول وكيف كان يفسدها الدوادار الصغير مجاهد الدين ، كما يحدثنا عما يشبه المؤتمر الذي عقده من يسميهم أمراء بغداد وعظماؤها في منزل ابن العلقمي الذين كان منهم سليمان شاه والذي اضطر على حضوره - على ما يبدو - الدوادار نفسه وكيف حمل الحاضرون على ضعف الخليفة مستشعرين الخطر الداهم وكيف قام ابن العلقمي بعد ذلك باعداد الجند وعرضهم وكيف كان نقص المال يحول دون اكمال الاعداد وكيف ان الخليفة رفض مد الجند بالمال مما أفسد خطط الوزير ..

ثم يشير رشيد الدين الى حقيقة اتهام ابن العلقمي قائلا :

«ولما كان الدوادار - في تلك الفترة - خصما للوزير فان اتباعه من سفلة المدينة واوباشها كانوا يذيعون بين الناس ان الوزير متفق مع هولاكوخان » .

كما يشير الى ان سليمان شاه حين احضر بين يدي هولاكو واستجوبه هولاكو متسائلا كيف لم يشر على الخليفة بما فيه الرأي ، وان سليمان شاه اجابه بان الخليفة لم يستمع لنصح الناصحين .

ومما يثير النفس اسى ان المستعصم الذي رفض ان يجود بالمال لاعداد الجيش وتنظيمه كما اراد ابن العلقمي ، يضطر بعد ان دخل المغول بغداد لان يكشف لهولاكو عن حوض مملوء بالذهب في ساحة القصر ، فحفروا الارض حتى وجدوه وكان مليئا بالذهب الأحمر وكله سبائك تزن الواحدة مائة مثقال ، كما يروي رشيد الدين.

ثم يقول : وقصارى القول ان كل ما كان الخلفاء قد جمعوه خلال خمسة قرون وضعه المغول بعضه على بعض فكان كجبل على جبل .

وبعد فوات الاوان يدرك المستعصم ان ما قد اشار به ابن العلقمي كان هو

الصواب وانه لو عمل بآرائه لما وصل الحال الى ما وصل اليه ..

ولما استدعاه هولاكو عاد يستشير ابن العلقمي قائلا له : ما حيلتنا ؟ .. فقال ابن العلقمي ، « لحيتنا طويلة » . وكان مراده من ذلك – كما نص رشيد الدين – : (انه عندما فكر اول الامر في ان ترسل احمال وفيرة لدفع هذا البلاء ، قال الدوادار : « لحية الوزير طويلة » وحال دون الاخذ بهذا الرأي واستمع الخليفة لكلامه واهمل تدبير الوزير) .

ولا شك ان الامر الآن قد خرج عن كل تدبير ورأي . ومن صراحة رشيد الدين استعماله كلمة الشهادة لمن يقتله المغول كما قال عن تاج الدين بن صلايا الاربلي : « ... وعند محاكمته ثبت جرمه واستشهد » .

كذلك يشير الى ما بلغ اليه الملوك من الهلع الذي حملهم على الاستخذاء استخذاء مزريا : فهو مثلا يحدثنا عن السلطان عز الدين صاحب الروم ، انه عندما فتحت بغداد امر بصنع حذاء ملكي في غاية الجودة ونقشت صورته على نعل ذلك الحذاء ثم قدمه لهولاكو اثناء معاتبته اياه ، وعندما وقع نظر هولاكو على تلك الصورة قبّل عز الدين الارض وقال : (ان املي هو ان يشرف الملك رأس هذا العبد بوضع قدمه المباركة عليها) .

مجلدات الكتاب

يشتمل كتاب جامع التواريخ على اربعة مجلدات : الاول : يتعلق بتاريخ المغول المشتمل على تاريخ القبائل التركية المغولية واجداد جنكيز ، ثم جنكيز نفسه ومن بعده خلفاؤه حتى غازان . والثاني : يتعلق بتاريخ الفرس قبل الاسلام ثم التاريخ الاسلامي الى سقوط بغداد ، ثم الامم التي اتصل بها المغول في فتوحاتهم ، والثالث : يشتمل على ابعد عصور التاريخ حتى آخر خلفاء بني العباس والرابع : يشتمل على تفصيل حدود الاقاليم السبعة وولايات ممالك العالم .

على ان كاترمير يقول : لدينا الجزء الاول من كتاب رشيد الدين وهو الجزء الخاص بتاريخ المغول. وانه الكتاب الوحيد الذي نستطيع العثور فيه على اصدق المعلومات عن حياة جنكيز خان وخلفائه وعن عهودهم .

ثم يتساءل كاترمير : هل الاجزاء الثلاثة الاخرى قد ضاعت دون امل في العثور عليها ؟ وكان في نية كاترمير تحقيق اكثر مما يمكنه تحقيقه من المجلد الاول ولكنه لم يستطع تحقيق سوى القسم الخاص بهولاكو ونشره بالفرنسية مع مقدمة نفيسة طويلة سنة ١٨٣٦ .

ويقول يحيى الخشاب : ان حديث كاترمير عن (جامع التواريخ) قديم ، وقد جد الكثير عنه سواء من ناحية اكتشاف اجزاء منه لم تكن قد عثر عليها ايام كاترمير او من ناحية النشر .

ومن امثلة ذلك الطبعة التي صدرت سنة ١٨٥٨ وهي قسم من الجزء الاول متعلق باجداد جنكيز وتاريخ جنكيز نفسه . وكان اخراج آخر جزء من هذا البحث سنة ١٨٨٨ باللغة الفارسية مع الترجمة الروسية وقد اخرج هذه الاجزاء المستشرق الروسي (برزين) .

كما صدر بعد ذلك ابتداء من اوائل هذا القرن اكثر من قسم من المجلد الاول كهذا الذي نشره المستشرق الفرنسي (بلوشيه) سنة ١٩١١ والذي نشر في ايران سنة ١٩٣٧ والذي نشره المستشرق التشكسلوفاكي (كارل) سنة ١٩٤٠ وكذلك سنة ١٩٤١ .

وهكذا يمكن القول ان المجلد الاول من جامع التواريخ قد نشر كله . كما نشر كارل يان سنة ١٩٥١ القسم المتعلق بالفرنج من المجلد الثاني .

في اللغة العربية

كان عبد الوهاب عزام اول من دعا في العرب لنشر (جامع التواريخ)وترجمته

والقى عام ١٩٤٧ محاضرة في الجمعية الجغرافية عن رشيد الدين تحدث فيها عن كتابه وضرورة القيـــام بنشر القسم العربي منه وترجمة بقية الاجزاء الى اللغة العربية .

ثم مضت عهود وعهود فكان ان قررت ادارة الثقافة والارشاد القومي في مصر ان تقوم بنشر هذا التاريخ. ولكننا لانعلم انه صدر في اللغة العربية غير قسم من المجلد الثاني — الجزء الاول وهو (تاريخ هولاكو) . نقله الى اللغة العربية كل من محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد ، وراجعه وقدم له يحيى الخشاب . وطبع سنة ١٩٦٠ .

كما نشرت مع هذا القسم السيرة الطويلة النفيسة لرشيد الدين التي كتبها المستشرق الفرنسي كاترمير والتي ترجمها محمد القصاص .

وكذلك نشر الجزء الثاني من المجلد الثاني .

ووعد يحيى الخشاب في آخر مقدمته بنشر ما ينجز من الكتاب اولا باول . ولانعلم بعد هل تحقق شيء من هذا الوعد ام لا .

حرص رشيد الدين على حفظ مؤلفاته

كان رشيد الدين حريصا على ان تصل مؤلفاته لا سيما جامع التواريخ الى الاجيال الآتية . وقد كان يعلم ما كان يمكن ان يكون عليه ، او ما كان عليه مصير كثير من الكتب حين لا يكون في ايدي النـــاس منها الا نسخ محدودة تذهب بها ايدي الحدثان لاسيمـــا في العصور التي تكثر فيها الفتن وتعـــم الفوضى .

لذلك حرص اشد الحرص على ان يتخذ طريقة يكتب لمؤلفاته معها الوصول من جيل الى جيل ، فاستكتب عدة نسخ من كتبه مفردة ومجمعة ، بالفـارسية وبالعربية . كما استكتب مجلدا ضخما ضم كل مؤلفاته بالفارسية والعربية زيادة

منه في الحرص على حفظها . واودع ذلك في البناء الكبير الذي شاده في الربع الرشيدي ليكون مدفناً له . ثم توسع في الاحتياط فوقف قسما من ثروته لكتابة نسخة بالفارسية ونسخة بالعربية في كل عام من مجموعة مؤلفاته كلها لترسل الى مدينة من مدن الاسلام الكبرى وتوقف على اهل تلك المدينة، وكتب وصية جميلة طريفة مؤثرة .

ولكن كل ذلك الحذر لم يفد وضاع ما ضاع من مؤلفاته ووجد ما وجد شأنه شأن كل المؤلفين في تلك العهود .

ولعل هذا الحرص هو الذي اوصل الينا ما وصل، ولولاه لضاع الجميع، وقد كان مطمئنا الى بنـــاء الربع الرشيدي الذي حفظ فيه كتبه ، ولكن الربع كله نهب بعد نكبته واحترقت مكتبته كما قلنا .

جنكيز والمغول

قصة الغزو المغولي الفاجع من اضخم الاحداث في تاريخنا ، وقد كان لا بد من التنقيب والبحث ، والايغال في استقصاء الاخبار عن عوامل ذاك الغزو ، وعن وقائعه ، وما رافق تلك الوقائع من اباحة من الغازين ، ومن صمود وتناصر ، او هروب وتخاذل من المغزوين .

ففي طيات ذاك الحدث المريع من القصص العجيبة ما يثير الفكرة بعد الفكرة ، وما يدعو الى التأمل الطويل ، وما يجدر بنا الكشف عنه وبثه بثاً شاملا لنستخلص ما نشاء من العبر والعظات ، مما لا بد منه في حيـاة الامم المتوثبة الى الحياة الكريمة ، الطامحة الى مقامات العلى ...

شعب شرس مجتاح

لم تكن هجمة المغول على البلاد الاسلامية وغير البلاد الاسلامية اول هجمة تنقض بها تلك الجماعة على الناس مكشرة عن انيابها باسطة ايديهـا بالسيف .. فقد سبقتها في التاريخ البعيد هجمات دامية عانت منها البشرية ماعانت ، وكابدت منها الارض ما كابدت .

فمن تلك السهول المنبسطة في الشرق من آسيا ، ومن تلك البقاع الممتدة امتداداً طويلا عريضا حيث تقوم اليوم جمهورية (منغوليا) انطلقت على فترات متباينة من التاريخ موجات من الناس العتاة القساة ، كان قوام حياتهم الغزو العنيف لجيرانهم في الصين وتركستان غزوا عماده القتل والسلب . بل كانوا اذا اعوز جماعة منهم

ضرورات العيش ، لم تبال تلك الجماعة ان تستطيل على من هو اضعف منها من قومها ، فتقتل فيه وتسلب وتنهب وتعيث ما استطاعت العيث .

ومن سلالات تلك الجماعات الدموية عرف الكون قبائل (الهون) في القرن الثالث قبل الميلاد ، تلك القبائل التي تصدرت اكتساح اوربا فهزمت (القوط) الجرمانيين ، وبدت باقصى مظهر من مظاهر العنف والوحشية ، فنشرت في اوربا الهلع المقيم المقعد .

وفيما بين القرنين السادس والثامن الميلاديين عرفت آسيا ما عرفت من البلاء من قبائل (تليو) المغولية التي كانت مواطنها على ضفاف نهري « أورخون » و «تولا» حيث تقوم اليوم «اولان باتور» عاصمة منغوليا .

لقد سيطرت قبائل تليو على المناطق الشاسعة فيما حولها وتحكمت باهلها على اختلاف عشائرهم تحكما قاسيا ، على أنها هي نفسها كانت محكومة حكما جائراً لا رحمة فيه ، فقد كانت السيطرة فيها لطبقة معينة ، هي الفائزة بالمغانم والاموال ، وهي المتمتعة بالترف والنعيم . طبقة مؤلفة من القواد والحكام والقضاة وجامعي الضرائب ، تلتف حول مقدمها (الكاغان) ، وأما بقية الشعب فقد كان يتألف منها مجموعة الجيش ، وكان عليها ان تملأ بطونها وتسد خلتها مما تجنيه من المعارك وما تنهبه من المقهورين المهزومين .

الامبراطور ابن الراعي

وتطورت بعد ذلك الامور ، فقلت الفروق بين الطبقات بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر الميلاديين . ثم استطاع راع بسيط أن يسيطر بقوة شخصيته وجبروته على الموقف ويستولي على الحكم وان يتزوج أميرة رزق منها ابنه (تيموشين) ويسمية ابن الأثير (تموجين) الذي ورث ملك والده. وفي سنة ١٢٠٦

نودي بتيموشين (كاغنا) ولقبوه بـ (جنكيز خان) أي مبعوث السماء[1].واطلق على القبائل كلها اسم القبائل «المنغولية» . (مبعوث السماء) هذا ، هو الذي مضى يفسد في الأرض ، بعد أن أعد قومه اعدادا جباراً ، مدخلا في روعهم انهم فوق كل الأقوام ، وانه سيقودهم الى السيطرة على الأمم ، والى الغنائم والاسلاب . وفي السنة نفسها التي تولى فيها الملك (١٢٠٦) نظم جيشه تنظيما محكما ، وصهر تلك القبائل المتفرقة صهرا جعلها كتلة واحدة .

(١) تعددت التفسيرات لكلمة جنكيز ، وقيل ان معنى جنكيز : القوي .

الدولة الخوارزمية

الدولة الخوارزمية التي واجهت الغزو المغولي ، دولة قامت أول أمرها تابعة لحكم سلاجقة ايران والعراق، وعندما انهار السلاجقة قامت مستقلة على انقاضهم لا يربطها بالخلافة العباسية في بغداد الا الخطبة للخليفة . وبالرغم من انها تهيأت لها موارد عسكرية ومالية كبيرة فان صلتها بالشعوب التي حكمتها كانت صلة واهية قامت على القهر والعسف . وسيطرت على الدولة طبقة عسكرية من أتراك ما وراء النهر لم تكترث بمن تحكمه من جماعات ، بل عاملتها بالشدة والاستغلال والغصب .

أصل الدولة

وأصل هذه الدولة هو ان الأمير السلجوقي بلكباك اشترى مملوكا اسمه أنوشتكين كان على نباهة فاشتهر أمره وعلت منزلته ، ثم ولد له ولد اسمه محمد فأحسن تثقيفه وتأديبه ، ثم حدث ان خلا منصب حاكم خوارزم سنة ٤٩٠ في تفاصيل ليس هنا محل ذكرها ، فعهد الى محمد هـذا بحكم خوارزم باسم شاه خوارزم على ما عهد في حكامها . ثم أقر السلطان سنجر السلجوقي محمداً على منصبه فأبدى كفاءة وثقت صلته بسنجر . ولما مات محمد تولى بعده ابنه اتسز الذي تقدم عند سنجر، ثم فسد مابينهما فساداً أدى الى مقتل ابن اتسز في حادث بينهما . فانتقم اتسز لنفسه بأن حرض (الخطا) على سنجر .

الخِطـا

وليس المجال مجال الحديث عن الخطا ولكننا نقول ان الخِطـا فيما يقول ابن

خلدون : «هم أعظم الترك فيما وراء النهر» وانهم : «أمة بادية يسكنون الخيام وهم على دين المجوسية» وانهم : «كانوا موطنين بنواحي اوزكند» وبلاد ساغون وكاشغر» . وهم كذلك اتراك في راي ابن الاثير، اذ يعبر عنهم: «بالأتراك الخطا» ولكنه وهو يصف وقعة لهم ، يقول : « وكانوا قد خرجوا قبله من الصين وهم في خدمة الخانية اصحاب تركستان » وعندما يسترسل في الحديث يقول : «وعنده جنود الترك والصين والخطا» ويقول ايضا: «واستقرت دولة الخطا والترك الكفار بما وراء النهر» و«الخطا» فيما يقول الدكتور حسين مؤنس: «ان العرب سموا التتار «الخِطا» وهي تسمية خاطئة لان الخطا أو الخطاي في الحق هم اهل الصين».

وسيكون لنا حديث مفصل عن الخطا في غير هذا الكتاب نحيل القارىء عليه اذا وفقنا لاخراجه .

بين الخطا وسنجر

والمقصود هنا ان نشير الى ان اقسز حرض الخطا على السلطان سنجر وسهّل عليهم امره مغريا لهم به فساروا اليه في ثلثمائة الف فارس فاستطاعوا الحاق الهزيمة به وقتل مائة الف ممن معه . ثم التقى بهم مع حلفاء له في وقعة اخرى ، وهم مع حلفائهم ، فكانت هزيمته عامة شاملة استقر بعدها الخطا وحلفاؤهم فيما وراء النهر استقرارا كاملا لم يقلقله بعد حين الا شاه آخر من شاهات خوارزم هو علاء الدين محمد الآتي ذكره .

بين سنجر واتسز

وبهزيمة سنجر عاد اتسز الى خوارزم التي كان سنجر قد اخرجه منها ثم سيطر اتسز على سرخس ومرو الشاهجان ونيسابور وبيهق بل على خراسان كلها، واجرى

في ذلك على الاهلين صنوف الذل والعسف .

وفي سنة ٥٣٨ عاد الصلح بين اتسز وسنجر بعد حصار سنجر لمدينة خوارزم حصارا لم يستطع معه فتحها؛ فعاد الى مرو واستقر اتسز في خوارزم معلنا انقياده لسنجر. وفي سنة ٥٥١ توفي اتسز وكان قد تولى سنة ٤٩٠ ، فخلفه ولده ارسلان فافتتح عهده بقتل اعمامه وسمل عيني اخيه الذي يبدو انه آثر الموت انتحاراً بعد ثلاثة ايام من سمله. ثم وثق علائقه بالسلطان سنجر وبذل له الطاعة والانقياد فكتب له منشورا بولاية خوارزم .

سيرة اتسز

ويصف ابن الاثير اتسز بانه «كان حسن السيرة كافاً عن اموال الرعية منصفا لهم محبوبا منهم مؤثراً للاحسان والخير اليهم وكانت الرعية معه بين امن غامر وعدل شامل» .

على اننا لاندري كيف نوفق بين هذا القول وبين ما ذكره ابن الاثير نفسه قبل ذلك وهو يصف استيلاء اتسز على ما استولى عليه من خراسان ففي مرو مثلا يقول : انه قتل كثيرا من اهلها وفيهم بعض العلماء . ويقول عن تسييره الجيش الى بيهق ورجوعه عنها : «ثم سارعنها ذلك الجيش ينهبون البلاد وعملوا بخراسان اعمالا عظيمة» .

ويبدو ان الرعية في نظر ابن الاثير وربما في نظر غيره من المؤرخين تنقسم الى نوعين : نوع هو في الاصل من الرعية ، ونوع يراد ادخاله في الرعية وان المعاملة تختلف في كل من النوعين ، مع ان كلا منهما مسلم مواطن هو في نظر الشريعة مساو لغيره في المواطنية والعقيدة . صحيح ان عامة مرو لم يستسلموا بسهولة ولكن المقاومة لا تقتضي مثل تلك العقوبة .

علاء الدين تكش

والخطا الذين كان اتسز قد حرضهم على سنجر عبروا سنة ٥٦٧ نهر جيحون وهاجموا ولده ارسلان وهزموه ولم يلبث ان مات بعد ان مرض خلال الحروب . وكان ولده الاكبر علاء الدين تكش غائباً عن العاصمة فتولى ولده الآخر سلطان شاه محمد ، فلم يرض بذلك علاء الدين فتوجه الى الخطـــا يستنصر بهم فنصروه فتغلب على اخيه . وكان من الطبيعي ان يطالب الخطا بالثمن تحكما وتسلطا فارسلوا وفدا الى علاء الدين ، يطالب أول ما يطالب بالمال فلم يستسلم علاء الدين ، وزاد فقتل الوفد وفيه بعض أقرباء الملك . فعاد هذه المرة سلطان شاه يستنجد بدوره بالخطا فانجدوه بجيش كثير حاصر خوارزم فلم ينجح في فتحها . وامتدت بعد ذلك سلطة علاء الدين تكش الى الري ومرو ونيسابور وهمذان وما اليها في أحداث عديدة . وبعد صدام مع الخطا استولى على بخارى سنة ٥٩٤ وفي السنة ٥٩٦ توفي خوارزم شاه تكش علاء الدين بن ارسلان ، فتولى بعده ابنه محمد وتلقب بلقب أبيه علاء الدين وكان يلقب من قبل قطب الدين .

محمد بن تكش

واستطاع محمد بن تكش ان يصل بالدولة الخوارزمية الى قمتها ، كما انهـــا انحدرت على يديه الى الهاوية . ويعتبر أشهر الملوك الخوارزميين ، واذا كان مرد هذه الشهرة في الأغلب هو ما لقيه من المغول ثم النهاية التي انتهى اليها ، فان لهذه الشهرة عوامل أخرى غير ذلك ، منها أنه حكم مستقلا عن السلاجقة وغير السلاجقة ، ومنها أفاعيله في الخطا ، ومنها توسيعه رقعة المملكة حتى لقد امتدت بحسب التقسيم الجغرافي الاسلامي القديم من حد العراق الى تركستان ، ودخل فيها بلاد غزنة وسجستان وكرمان وطبرستان وجرجان وبلاد الجبل وخراسان وبعض فارس وبعض الهند . على اننا نستطيع القول : انها كانت تمتد من ايران الى فرغانة ، ومن بحر ارال الى منابع نهر الاندس . وكانت عاصمتها (جرانج)

الواقعة على نهر (اموداريا) وهو ما عرف باسم (جيحون) . ولا تزال اطلالهـا بادية في ضواحي مدينة (كناورمنش) في جمهورية تركانيا السوفييتية ·

ويقول ابن الأثير : « لم يملك بعد السلجوقيـة أحد مثل ملكه » . ويقول صاحب «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» : «قيل ان جيش علاء الدين بلغ أربعمائة الف مقاتل» .

وفي سنة ٦٠٢ صانع الخطا بأن سلمهم ترمذ ولكن لم تجيء سنة ٦٠٤ حتى كان يعبر نهر جيحون ليهاجم الخطا انفسهم بعد ان كان قـد بلغ من اتساع الملك وكثرة الجند حداً كبيراً . وكان الخطا منذ هزيمتهم للسلطان سنجر الهزيمـة الحاسمة قد فرضوا سيطرتهم المادية والمعنوية على البلاد الاسلامية المجاورة وجبوا منها الأموال وأذلوا الناس. وكان خان خانان حاكم سمرقند وبخارى ممن أرهقهم حكم الخطا ففاوض خوارزم شاه باسم الحمية الدينية في التحالف عليهم وأن يؤدي اليه ما يؤديه اليهم من الأموال وان يذكر اسمه في الخطبة في بلاده .

بين علاء الدين محمد والخطا

فاقتنع علاء الدين بذلك وانصرف أول ما انصرف الى تقوية أمره داخلياً في خراسان فغير وبدل في الادارة وأعد العدد وجمع الجند والتقى بحاكم سمرقند للتشاور والتعاهد مما لم يكن خافياً على الخطا الذين أدركوا ما وراء ذلك من تهديد لهم فأسرعوا اليه وعبر هو جيحون اليهم فكانت وقعات كثيرة يوماً لهؤلاء ويوماً لهؤلاء . وانهزم المسلمون في احدى المعارك هزيمة منكرة اسر فيها خوارزم شاه نفسه دون أن يعرف آسروه حقيقته ، وبهذا الجهل استطاع التخلص من الأسر. وخلال افتقاده تقاسم ولاته وبينهم أخوه علي شاه حكم الولايات والغوا اسمه من الخطبة ، فلما نجا من الأسر أخمد الحركات المضادة وعـاد الى السيطرة الكاملة وسطا بعنف وكان فيمن أمر بقتلهم أخوه علي شاه وغياث الدين محمود الغوري

الذي انتهى به ملك الغورية .

وصفت خراسان من جديد لخوارزم شاه محمد سنة ٦٠٥ وعاود سنة ٦٠٦ عبور نهر جيحون لملاقاة الخطا الذين استعدوا لقتاله بجموعهم ، فمضى اليهم مع حليفه سلطان سمرقند وبعد المعارك العنيفة انهزم الخطا وأسر كبيرهم . فمضى خوارزم شاه في بلاد ما وراء النهر يملكها «مدينة مدينة وناحية ناحية» حتى بلغ «اوز كند» وأقام نوابه فيما استولى عليه من مدن وعاد الى خوارزم ، كما عـاد حاكم سمرقند اليها مصحوبا بمندوب من خوارزم شاه .

انفصام الوحدة

ويبدو ان الخوارزميين لم يحسنوا السيرة في سمرقند وانهم أسرفوا في العسف مضافاً الى ما وجد نفسه فيه صاحب سمرقند من عـدم انفراد بالحكم ومشاركة الخوارزميين له فيه ، مما أدى الى أن ينسى حميته الأولى التي دفعته الى الاستنجاد بالمسلمين على الوثنيين ، فعاد الآن يستنجد بالوثنيين على المسلمين . وهكذا كان اولئك الحكام جميعاً يكونون مخلصين بقدر ما يتفق الاخلاص مع مصالحهم فاذا تعارضا عادوا لا يبالون بشيء .

وأول ما فعله خـان خانان انه أمر بقتل كل من في سمرقند من الخوارزميين سواء منهم السـاكنون فيها منذ القديم أو ممن أتوها حديثاً وغالى بالفظائع فكانوا يقطعون الرجل قطعتين ثم يعلقونهم في الأسواق . واستمر في العسف حتى انه قصد الى زوجته ابنة خوارزم شاه . وكان قـد تزوجها بعد النصر على الخطا — وأراد قتلها فـدت دونه الأبواب مع جواريها وأرسلت اليه متوسلة بأنهـا امرأة ولا ذنب لها فخلى عنها .

ولما بلغت الأخبار الى خوارزم شاه ثار لذلك ثورة عنيفة وأراد أن يقتل كل من في خوارزم من الغرباء ، سمرقنديين وغير سمرقنديين فكانت أمه أكثر رحمة

منه فنهته عن ذلك وحين همّ بالسمرقنديين وحدهم أصرّت على نهيها فأطاعها .

وكم يشبه هذا التصرف ما يجري بين بعض الحكام العرب في هذا العصر . عندما يفسد ما بينهم فيصبون جام غضبهم على من يسكن بلدهم من رعايا مغاضبيهم فيأمرونهم بالرحيل حالا دون ذنب اقترفوه .

وساق خوارزم شاه على سمرقند حملة ضخمة سار هو على رأسها فافتتحها وأذن لعسكره بالنهب والقتل فاستمر ذلك ثلاثة أيام حتى لقد قيل بأن عدد القتلى بلغ مائتي الف قتيل .

أربعة شعوب تتلاقى

هنا تتداخل الأمور وتبرز شعوب جديدة وتظهر عوامل جديدة . وهنا تبدأ الخطوات الأولى للاحتكاك بين تلك الشعوب التي يجاور بعضها بعضاً ويتحفز بعضها للانقضاض على البعض الآخر ، فنحن الآن أمام أربعة شعوب يجعلها ابن الأثير ثلاثة ويجعل أحدها ذا وجهين . ولكنها في الحقيقة أربعة لا ثلاثة ، فابن الأثير كغيره من قدامى المؤرخين العرب يجعل المغول والتتار شعباً واحداً .

نحن هنا الآن أمام: الخوارزميين ، الخطا ، التتر ، المغول :

الخطا : الهازمين من قبل للمسلمين ، المتقاضين منهم الجزية ، ثم المنهزمين أمام علاءالدين محمد خوارزم شاه.

التتر : المعادين للخطا .

الخوارزميين : المنتصرين على الخطا .

ويأتي في النهاية المغول ، الذين لم يكونوا قد برزوا الى المسرح بروزاً كاملا ، ثم يبرزون معادين للتتر .

ولا بد لنا من وقفة للتمييز بين التتر والمغول الذين اعتبرهم مؤرخو العرب القدامى جنساً واحداً كما قلنا من قبل ، فهم يعبرون – مثلا – عن جنكيز خان وقومه بالمغول تارة وبالتتر تارة أخرى .

وابن الأثير يقول عن أحداث خوارزم شاه والخطا والتتر والمغول : ان

التتر بقيادة ملكهم كشلي خان كانوا أعداء الخطا. ثم لا يلبث ان يقول ما نصه: «ثم اتفق خروج التتر الآخر الذين خربوا الدنيا وملكهم جنكيز خان النهرجي على كشلي خان التتري الأول».

فهم كلهم عنده تتر والتمييز بينهم يصنفهم : بالأول والآخر.

وفي عصرنا هذا لم أجد أفضل مما كتبه الدكتور حسين مؤنس للتمييز بين العنصرين لذلك آخذ كلامه بنصه مكتفياً به عن الافاضة في القول :

« تقع منازل التتار غربي منازل المغول وهم في الاصل فرع من المغول.

وتتشابه ملامح التتار والمغول وخصائصهم البشرية والاجتماعية ، وكان لذلك اثره في امتزاج الشعبين بعضها ببعض واختلاط مفهوم التتار ومفهوم المغول على كثير من المؤرخين ».

تجاذب خوارزم شاه

كان علاء الدين محمد خوارزم شاه قد اصبح قوة ضخمة يخشى باسها ويحسب لها الف حساب ، وتسعى مختلف القوى للتحالف معها . وهذا ما حدث فعلا عندما حفزت هزيمة الخطا امام خوارزم شاه التتر بقيادة ملكهم كشلي خان لقصد الخطا ثأرا لما بينهم وبينهم من عداء متصل . وتناسى الخطا ما كان من هزيمتهم امام خوارزم شاه واحتلاله لبلادهم ففاوضوه على ان يتعاونوا معا في قتال التتر . وحذروه بان التتر لابد مهاجموه اذا أنتهوا من الخطا . وفعل التتر الفعل نفسه . وارادوا خوارزم شاه على محالفتهم على الخطا مشيرين الى ما بينهم وبين اسلافه وبينه من ترات. فاراد خوارزم شاه ان يستغل الموقف فاوهم كلا من الفريقين بانه معه وسار بجيوشه فنزل قريبا من الفريقين موهما كلا منهما بانه معه ، وما هي ان نشبت الحرب وراى الخطا يأخذون في الانهزام حتى مال عليهم يقتل ويأسر وينهب حتى كاد يبيدهم ، وارسل الى كشلي يمننه بما صنع ،

فاعترف له كشلي بذلك ولكنه طلب اليه ان يقاسمه بـــلاد الخطا التي احتلها خوارزم شاه . فابى ذلك خوارزم شاه ووقع الشر بينهما فكان خوارزم شاه يتحامى مواجهته حربا الى ان ظهرت القوة الاخرى قوة المغول بقيادة جنكيز التي هددت التتر فانشغلوا عن خوارزم شاه الذي تسلل عابراً نهر جيحون الى خراسان . ولم تتجاوز هذه الاحداث سنة ٦٠٤ وهكذا كان الموقف العام سنة ٦٠٤ ملائما لخوارزم شاه حيث ظهر جنكيز خان منافسا لكشلي فكان في ذلك نجاة لعلاء الدين محمد بن تكش ، وتنقضي على ذلك ثلاث عشرة سنة يختفي فيها ذكر هذه الشعوب المتنافسة .

مطامع خوارزم شاه

كانت لشاه خوارزم علاء الدين محمد بن تكش مطامع واسعة. وكان من مطامعه، ولنا ان نقول من مطامحه : ان يدوي اسمه في بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، ويعبر ابن الاثير عن ذلك بقوله في الكامل : « كان يهوى ان يخطب له في بغداد ويلقب بالسلطان » ولا شك ان ماسبق وحدث في بغداد قد اغراه بهذا (الهوى) فمن قبل خطب للبويهيين ثم للسلجوقيين مقرونة اسماؤهم باسماء الخلفاء . ولكن الامر هذه المرة كان على غير ما كان عليه ايام البويهيين والسلاجقة ، فالفريقان استغلا ضعف الخلافة وهوان الخلفاء ، ففرض كل منهما نفسه فرضا على بغداد بقوة الساعد ونفوذ السيف .

اما اليوم فان الخليفة (الناصر لدين الله) قد حرر عاصمته وحرر نفسه من كل نفوذ آخر ، وبسط سلطته بسطاً ثابتا، واعاد للخلافة الكثير من بريقها الماضي وهيبتها السالفة ، مما جعله يعرض عن (هوى) شاه خوارزم ويرده ردا حاسما .

وأكثر من ذلك فقد كان اذا ورد (الشاه) بغداد لا يعامل المعاملة التي يرى أنه يستحقها . يقول ابن الأثير : (وكان سبيله اذا ورد بغداد ان يقدم غيره عليه ولعل في عسكره مائة مثل الذي يقدم سبيله عليه ، فكان اذا سمع بذلك يغضبه) .

الجيوش توجه الى الأهل

في الحين الذي كان (مبعوث السماء) يحشد قومه على حدود خوارزم ويثير

فيهم الروح العسكرية الطاغية ، وينظم جيشه تنظيما دقيقاً كان خوارزم شاه مشغولاً بالحصول على الالقاب ومتلهياً بطلب ترديد اسمه على منابر بغداد . بل كان العالم الاسلامي كله متمزقاً يقتل بعضه بعضاً ويثب فيه القوي على من يحسبه اضعف منه ، وما خوارزمشاه الا مثال لغيره من المتسلطين في تلك الايام. وتذكر شاه خوارزم انه قوي وأن السلاجقة وقبلهم البويهيين قد لجأوا الى القوة فكانوا أصحاب السلطة في بغداد يتلقبون بما يشاؤون ويضعون أسماءهم حيث يريدون ، فقرر التشبه بهم والزحف على بغداد . ولكن الثلوج أعاقت تقدم جيوشه وأبادت منها ما أبادت ، فأوقف الزحف راجعاً الى خراسان .

ولم يكن أمر المغول خافياً عليه ، ولا كانت أهدافهم مجهولة منه ، ومع ذلك تخلى عن الاعداد لهم ووجه جيوشه الى بغداد ، والدليل على ذلك أن ابن الأثير يقول وهو يصف ما حل بالجيوش الخوارزمية المنطلقة الى بغداد : (ومات كثير منهم وطمع فيمن بقي بنو ترجم الاتراك وبنو هكار الاكراد فتخطفوهم فلم يرجع منهم الا اليسير ، فتطير خوارزم شاه من ذلك الطريق وعزم على العود الى خراسان خوفاً من التتر) . اذاً فالخوف من التتر كان وارداً في ذهنه ، ماثلا أمام عينيه ، ومع ذلك ساق الجيوش الى بغداد ليفوز بترديد اسمه على منابرها .

وعاد علاء الدين الى بلاده وظل هاجسه الانتقام من الخليفة الناصر لدين الله لما الحقه به من مهانة فلم يجد أفضل من أن يعامله بمثل ما عامله الناصر ، لذلك قطع الخطبة باسم الناصر فيما تحت يده من بلاد .

ذهنية عجيبة

ولنتعرف الى الذهنية المسيطرة على المغول يومـذاك ، نذكر أن ابن الأثير

- بالرغم من رصانته بالنسبة الى غيره - قد شمت بما نال خوارزم شاه على أيدي المغول بعد ذلك .. فقد قال ابن الأثير معلقاً على قطع الخطبة باسم الناصر ومشيراً الى خوارزم شاه : (.. فبقيت كذلك الى أن كان منه ما كان ، وهذه من جملة سعادات هذا البيت الشريف العباسي ، لم يقصده أحد بأذى الا لقيه فعله وخبث نيته ، لا جرم لم يمهل هذا خوارزم شاه حتى جرى له ما نذكره مما لم يسمع بمثله قديماً وحديثاً) .

بهذا المستوى من التفكير كان يعالج أمر الخطر المغولي .. ومؤرخ بمنزلة ابن الأثير يرضيه أن يضرب خوارزم شاه على يدي جنكيز خان وتسحق بلاده وتدمر أرضه ، لأن ابن الأثير يرى في ذلك عقاباً الهياً لمن تجرأ فتعرض (للبيت العباسي الشريف) .

وليت ابن الأثير عاش فأدرك عصر هولاكو حفيد جنكيز خان حين تعرض (للبيت العباسي الشريف) لا بقطع الخطبة فحسب بل بالاذلال والقتل والقضاء على الخلافة فلم (يلقه فعله وخبث نيته) ، وان البيت العباسي وغير البيت العباسي ، لا يحميهم الله حين لا يحمون شعوبهم ، ولا يعزهم الله حين يذلون أمتهم ...

على أن ابن الأثير نفسه لا يلبث حين يتحدث بعد ذلك عن نهاية خوارزم شاه أن يرثيه بمثل هذا القول : (... وكان فاضلا عالماً بالفقه والاصول وغيرهما، وكان مكرماً للعلماء محباً لهم محسناً اليهم يكثر مجالستهم ومناظرتهم بين يديه ، وكان صبوراً على التعب وادمان السير غير متنعم ولا مقبل على اللذات وانما همه في الملك وتدبيره وحفظه وحفظ رعاياه وكان معظماً لأهل الدين مقبلا عليهم متبركا بهم ..)

وحدة بالقتل والافناء

يرى ابن الأثير أن العامل الأكبر فيما كتب للمغول من فوز كان (ان خوارزم شاه محمد كان قد استولى على البلاد وقتل ملوكها وأفناهم وبقي هو وحده سلطان البلاد جميعاً فلما انهزم منهم لم يبق في البلاد من يمنعهم ولا من يحميها) .

ولا يستطيع المؤرخ الحديث الا أن يقف طويلا أمام هذا الرأي يقلبه على وجوهه ، بل أن هذا المؤرخ لتأخذه الحيرة كل الحيرة من هذا القول يرسله مؤرخ معاصر ، اذا كان لم يشهد الاحداث عن كثب ، فقد كان على كل حال ، قريباً منها مصغياً اليها ، سامعاً أخبارها عند حدوثها خبراً بعد خبر .. [1]

لقد كان يبدو لنا أن تمزق البلاد الى سلطات متعددة وامارات متنوعة هو اليوم وقبل اليوم ، هو في عصر الصهيونية الآثمة كما في عصر المغولية المجرمة ، عامل الضعف الأول وسبيل العدو الأفضل . وان تجميع الشمل في وحدة شاملة هو السند القوي . ولكن نظرية ابن الأثير تظهر الأمر على غير ما نعتقد ونجزم .

فكيف كان استيلاء خوارزم شاه على البلاد وبقاؤه وحده سلطانها جميعها ، كيف كان ذلك هو سبب الهزيمة وعلة النكبة ؟ .

ان ابن الأثير نفسه قد أجاب على ذلك بكلماته القليلة التي قرن بها رأيه هذا وهو وان لم يقصد التعليل ولم يرد التفصيل ، فإن عباراته على ايجازها تدل دلالة واضحة على جوهر الأمر . ان ابن الأثير يوجز تصرف خوارزم شاه بانه (قتل ملوكها وأفناهم) .

---

(١) كان ابن الأثير يومذاك في بلاد الشام ،

اذن فسبيل التوحيد كان (القتل والافناء) ، واذا كان ابن الأثير لم يذكر الا الملوك ، فمن البديهي أن الملوك لم يقتلوا ولم يفنوا الا بعد استحرار القتل في الشعوب واشرافها على الفناء .

ومن المؤكد أن (القتل والافناء) كانا شعار الحكام منذ العام ٤١ من الهجرة ، وأن هذا الشعار هو الذي أوقع في الامة النكبة بعد النكبة ، ومزق صفوفها وجعلها فريسة الفتن والخصام .

علاء الدين ومبرر الهجوم

لم يكن جنكيز خان بحاجة لمبرر ، لكي يقذف بفيالقه التي أعدها أحسن اعداد الى البلاد الاسلامية ، ومع ذلك فان خوارزم شاه قد أعطاه المبرر وفتح له الباب ليلج منه جباراً طاغياً بقوم متعطشين الى الدم ، متحفزين لكل شر .

لقد كان جنكيز خان سيزحف حتما الى بلاد خوارزم شاه ، سواء أعطاه خوارزم شاه المبرر أم لم يعطه اياه ، هذا ما يلوح لكل ذي فكر وما يستنتجه كل ذي بصر .

ولكن الوقائع كانت في أول أمرها تتجه غير هذا الاتجاه ، فان جنكيز خان كان قد (فارق بلاده وسار الى نواحي تركستان) ، كما ينص ابن الأثير ، وما أدرانا أن لو واصل جنكيز خان سيره ، ولم تحوله أفعال خوارزم شاه عن خطه الأول — ما أدرانا ماذا كان يمكن للاقدار أن تفعل وماذا كان يمكن أن يطرأ على خطط المغول من تبديل وتغيير ؟

ولكن تصرف خوارزم شاه الأهوج وموقفه غير المتسم بالحكمة والروية ، عجل بالصدام وجعله محتوماً وأدى الى أن تكون مملكة خوارزم شاه هي الهدف الأول .

الوضع الاقتصادي المغولي

يبدو أن جنكيز خان كان بحاجة الى أن يعد لرجاله كسوة تنقصهم في سيرهم الطويل نحو تركستان ، فبعث بجماعات تحمل منتوجات بلاده لبيعها في مملكة خوارزم شاه ، ثم تشتري بثمن ما باعت كسوة وتعود بها .

ويهمنا أن نعلم ماذا كانت بلاد المغول تصدر ، بعد أن عرفنا ما تريد أن تستورد . وفي هذا ما يعطينا فكرة عن نوع التعامل بين البلاد في ذلك الزمن ، وما يوضح أمامنا بعض ملامح الوضع الاقتصادي المغولي .

ومن حسن الحظ ان ابن الأثير قد أشار الى ذلك اشارة عابرة ، ولكنها ثمينة فقد قال وهو يتحدث عن هذه القصة : (وسيّر – أي جنكيز – جماعة من التجار الاتراك ومعهم شيء كثير من النقرة والقندر وغيرهما الى بلاد ما وراء النهر : سمرقند وبخارى ليشتروا له ثيابا للكسوة) .

وهكذا عرفنا خلو البلاد المغولية من صناعة النسيج وقيام اقتصادها على قواعد بدائية عمادها الصيد ، وأن أقصى ما يمكن أن تصدره هو جلود الحيوانات المعدة فراء ثمينا[1] أما النوع الآخر والذي يمكن اعتباره أكثر عراقة في البدائية ، كما يمكن اعتباره عماد الاقتصاد العالمي على مر العصور ، (النقرة) ، فانها حين تنهب من الشعوب ثم تذاب وتكدس ليقايض عليها بالكسوة ، تكون في ذلك معرقة في البدائية الشرسة ..[2]

وقد رأينا أن ابن الأثير قد أضاف الى كلمتي : (القندر والنقرة) كلمة (وغيرهما) مما دل على أن في صادرات بلاد المغول غير هذين النوعين ولكن هذين النوعين هما الاساس ، وغيرهما ثانوي قليل . وليت ابن الاثير سمى لنا ما قصد (بغيرهما) اذن لزادنا بذلك معرفة على معرفة.

المال يعمي البصائر

هذه الصلات التجارية التي افتتح بها جنكيز خان روابطه مع مملكة خوارزم

---

(١) القندر أو القندس : حيوان مائي لبون من رتبة القوارض ، له ذنب مفلطح قوي ولون أحمر قاتم ، تتخذ منه الفراء ، معرب كندسك بالفارسية .

(٢) النقرة: القطعة المذابة من الذهب والفضة .

والتي كان يخيل للناظر انها ربما كانت فاتحــة علائق غير سيئـــة بين الطرفين ، أصبحت فاتحة شر مستطير صار بمملكة خوارزم ، وبعلاء الدين محمد بن تكش شاه خوارزم ، ثم بمـــا طالته أيدي المغول في تلك الفترة الرهيبة ، الى أفظع مصير ..

ذلك أن اولئك التجار مضوا الى مملكة خوارزم ، فوصلوا أول ما وصلوا الى مدينة (اوترار) ، وهي أول مدينة يصلها القادم الى خوارزم ، ومن البديهي انهم كانوا من الكثرة بحيث يبرز وجودهم في (اوترار) بروزاً واضحاً ، فلم يدعهم والي (اوترار) يؤدون مهمتهم بسلام ، بل أرسل الى علاء الدين يخبره بأمرهم وبما يحملونه من مال وافر . ويبدو أن بريق (النقرة) وصفاء (القندر) قد أعشيا عقل علاء الدين ، وان ما وصفت به تلك السبائك وتلك الجلود من الكثرة والوفرة قد غطى على بصيرته فلم يعد يفكر بغير الغنائم والاسلاب ، ولم يعد يرى غير المال . فأرسل الى واليه في (اوترار) يأمره بقتل التجار حملة الذهب والفضة ونقلة الفرو الثمـين ، واحتواء جميع ما يحملونه وانفاذه اليه (وكان كثيراً) — على حد تعبير المؤرخين — فنفذ واليه أوامره فقتل التجار جميعاً وقبض ثرواتهم وأنفذها الى خوارزم شاه فأسرع هذا ببيعها على تجار بخارى وسمرقند وقبض أثمانها .

وجها لوجه

لو ان الفطنة التي لمت في ذهن خوارزم شاه بعد ان قتل تجار المغول ، كانت قد ومضت له قبل ان يفعل فعلته لاعتبر قائدا حكيما ، يعرف كيف يزن خطواته ويعالج متاعبه . ولكن الحذر الذي بدا انه يتحلى به جاء متأخرا جدا . فانه بعد ان امر واليه في (اوترار) بقتل موفدي جنكيز ومصادرة اموالهم دون ترو وتفكير في العواقب ، وبعد ان اوقع الواقعة بينه وبين الطاغية ، دون النظر الى قوته وتقدير تلك القوة ، ومدى مقدرته على مقاومتها واستطاعته الوقوف في وجهها ، عاد يفكر فيما كان يجب ان يفكر فيه من قبل ، عاد يفكر حين لم تعد فائدة من التفكير . .

اذ انه ارسل جواسيسه الى جنكيز خان يتحرون له حقيقة قوة هذا المتحفز للانتقام المتربص به ساعة الانقضاض ، وليروا باعينهم صدى ماجرى على تجاره وموفديه من قتل وسلب ، وماذا يبدو انه يريد ان يفعله ردا على ماجرى .

ومضى الجواسيس ثم عادوا بعد رحلة بعيدة شاقة حاملين صورة رهيبة لما رأوا وما سمعوا . ولكي نترك الصورة على ما عرفها سامعوها يومذاك ندع كلمة ابن الاثير تظهر كما هي حين قال يصف عودة الجواسيس : « ... فعادوا بعد مدة طويلة واخبروه بكثرة عددهم وانهم يخرجون عن الاحصاء وانهم من اصبر خلق الله على القتال ، لا يعرفون هزيمة ، وانهم يعملون ما يحتاجون اليه من السلاح بايديهم » .

وهكذا نرى انه قد تجمع للمغول كل مقومات الجيش المستضري ، كثرة عدد ، وصبر على الشدائد وتمرس بالحروب ، وتعود للنصر ، واكتفاء ذاتي بالسلاح.

وهي صفات مخيفة حقا جعلت خوارزم شـــاه في وضع يقول عنه ابن الاثير : «فندم خوارزم شاه على قتل اصحـــابهم واخذاً اموالهم . وحصل عنده فكر زائد».

استشارات

فرأى ان يستشير اهل الرأي فيا ينبغي عمله ، وقسم الاستشارة الى نوعين : استشارة فردية لشخص بعينه كان يثق به ويطمئن اليه ، يبدو انه كان بمثـــابة مستشاره الدائم لدى الازمات ، وهو الشهاب الحوفي .

واستشارة جماعية لامرائه ورجاله مجتمعين . ويصف ابن الاثير المستشـــار الشخصي لخوارزم شاه بانه: «فقيه فاضل كبير المحل عنده لا يخالف مايشير به».

فالصفة الاولى للرجـل هي انه فقيه ؛ ولكن الاعتماد على آرائه لا يدل على انه فقيه متواكل متكاسل متخاذل ، مكتف من الفقه بمواعظ يرددها واحكام يطلقها ، بل هو الفقيه العـــالم — كما يريده الاسلام — رجل العلم والعمل والجد والمشاركة في الشؤون العامة مشاركة صحيحة سليمة .

وحين نرى ما اشار به ندرك انه كان اهلا للثقة التي وضعها فيه خوارزم شاه ، وانه ليس عالما مفكرا فحسب ، بل هو ايضا مخطط عسكري ومشير حربي ، لانستطيع على بعد ما بيننا وبينه الا ان نحترم آراءه .

ولانشك ابدا بان خوارزم شاه لم يستشره في فعلته الاولى ، وانه لو استشاره لما اشار بقتل الوفد التجاري المغولي والاستيلاء على امواله. ففضلا عما في هذا الرأي من منافاة لدين الفقيه واخلاقه فانه مناف للسداد والحكمة والصواب مما لم يكن يخفى على الشهاب الحوفي .

لقد كان من راي المستشار خطة لاهي بالهجوم المحض ولا بالدفاع المحض ، بل هي بينهما ، وان كانت في النهاية تفضي الى الدفاع لا الى الهجوم .

لقد كان رأي الشهاب ان يستنفر خوارزم شاه الاطراف ويجمع العساكر او بالاحرى ان يعلن ما نسميه في مصطلحنا الحديث: «التعبئة العامة». ثم تتحرك الجيوش في اتجاه ارض المغول حتى تصل نهر (سيحون) وهو النهر الكبير الفاصل بين المغول والخوارزميين ، وعلى ضفة النهر ترابط القوى الخوارزمية جاعلة من النهر حائلا مائيا بينها وبين اعدائها ، تاركة محاولة العبور الشاقة للعدو بعد ان تكون قد سبقت الى الضفة فاستراحت منتظرة وصول العدو المتعب المكدود فتقاتله مستريحة .

اما رأي العسكريين والاداريين فقد كان على العكس من ذلك ، لقد كان رايا دفاعيا محضا ، يرى بان يترك العدو يعبر النهر ، ثم يوغل في الجبال والمضايق فيكون في طريق يجهلها ، بينما يعلمها الخوارزميون .

الصدام المروع

على ان جنكيز خان قطع عليهم الحوار بجموعة من رجاله اوفدها اليهم حاملة الى خوارزم شاه التهديد والوعيد ، قائلا : (تقتلون اصحابي وتاخذون اموالهم استعدوا للحرب فاني واصل اليكم بجمع لاقبل لكم به) . فقبض خوارزم شاه على رئيس الوفد فقتله وامر بحلق لحى الباقين واعادهم الى جنكيز خان يخبرونه بما حدث لهم ولرئيسهم ويقولون له ان خوارزم شاه سائر اليك كي يلحقك باصحابك .

وهكذا اصبح خوارزم شاه ملزماً بالزحف الى عدوه محاولا مباغتته واخذه على غرة وظل في سيره اربعة اشهر حتى انتهى الى ديار المغول فلم يجد فيها المقاتلة ، بل وجد النساء والصبيان والاطفال فغنمهم ، وغنم ما في ديارهم ، وقبل ان يقفل راجعا ، كان الخبر قد وصل الى المغول الذين كانوا قد تركوا ديارهم في غزو لهم لبعض الاتراك عادوا منه منتصرين ، فاسرعوا عائدين الى ديارهم فادركوا فيها الخوارزميين ، فاشتبكوا معهم في قتال عنيف دام ثلاثة ايام بلياليها وسقط فيها مالا يحصى من القتلى ، وصبر الفريقان وثبتا لايحولان .

لم يكن الجيش الذي اصطدم بالخوارزميين هو الجيش الرئيسي ، ولا كان في قيادته جنكيز نفسه ، بل كان الجيش بقيادة ولده ، وكان جنكيز لم يصل بعد. وبلغ عدد قتلى الخوارزميين في هذه المعارك العشرين الألف القتيل .

وأيقن الفريقان ان أحدهما لن ينال من الآخر منالا ، وان كلا منهما صامد صابر لا يستطيع عدوه ان يكسب النصر عليه . وحين أقبل الليل عزم كل منهما على الانسحاب دون أن يشعر الفريق الآخر بذلك لئلا يتعقبه فيحيل انسحابه الى هزيمة ، لذلك عمد المغول الى ايقاد نيرانهم وتركوها منسحبين ، وكذلك فعل المسلمون .

الهزيمة النفسية

واذا كانت هذه المعركة لم تنته بهزيمة خوارزم شاه العسكرية ، فانها انتهت بهزيمته النفسية ، ذلك انه رأى انه خاض معركته بكل قواه ، ومع ذلك لم ينتصر على قطعة واحدة من جيش المغول . انه لم يقابل جنكيز خان في القتال بل قابل ولده الذي كان يقود بعض المغول ، فكيف اذا قابل غداً جنكيز خان نفسه في كل المغول ؟

أما الخطة الجديدة التي باشر خوارزم شاه تنفيذها فقد كانت خطة انهزامية بحتة ، كانت تقضي هذه الخطة بعدم الاصطدام بالمغول بنفسه ، فانسحب الى بخارى مستعداً للحصار . ثم ترك من جيشه عشرين الف فارس في بخارى لمشاركة أهلها في الدفاع عن مدينتهم ، وكذلك فعل في سمرقند فترك لهم خمسين الف فارس ، وأمر أهل المدينتين بجمع الذخائر والمؤن استعداداً لحصار طويل ، ووعدهم بالعودة اليهم بعد جمع العساكر الجديدة والاستنجاد بالمسلمين ..

ثم مضى ذاهباً الى خراسان فعبر نهر جيحون ونزل بالقرب من مدينة بلخ حيث اتخذ من ذاك المنزل مقراً له .

المغول يزحفون

وأما المغول فبعد أن حشدوا قوام وأعدوا أمرهم ، زحفوا يطلبون (ما وراء النهر) فوصلوا أول ما وصلوا الى بخارى بعد خمسة أشهر من وصول خوارزم شاه اليها ، فأحكموا حصارها (وقاتلوها ثلاثة أيام قتالاً شديداً متتابعاً) على حد تعبير ابن الأثير . ولكن الملك كان قد أعدى شعبه بروح الهزيمة وسرى الفشل النفسي منه للناس بعد أن رأوه يبتعد عن طريق المغول ، ويوكل للناس أن يدافعوا عن أنفسهم ، وهكذا فان الحصار الذي حسبه خوارزم شاه طويلا لم يطل أكثر من ثلاثة أيام ، وكان أول المنهزمين العشرين الألف الفارس الذين تركهم (الشاه) في بخارى، فخرجوا منها يطلبون خراسان، وأصبح أهل بخارى وقد رأوا أنفسهم وحدهم ، ورأوا ان من عندهم قد تركهم ، فهل يطمعون بعد ذلك بالنجدات تأتيهم من الأقاصي . لذلك فاننا لا نعجب اذا رأينا أنه لم يبق في نفوسهم بقية قوة ولا في معنوياتهم أثر لم ينهدم ، فقرروا التسليم وجعلوا رسولهم الى المغول قاضي البلد (بدر الدين قاضي خان) فطلب من المغول الأمان لأهل بخارى فأعطوهم الأمان، وفتحت المدينة أبوابها لهم يوم الثلاثاء (رابع ذي الحجة سنة ست عشرة وستمائة) فدخلوها ولم يتعرضوا لأحد من أهلها بأذى . وكل ما فعلوه هو أن طلبوا من البخاريين معاونتهم على قتال من بقي في القلعة من الخوارزميين . ذلك ان بقية من الفرسان لم تستطع الانسحاب مع من انسحب فلجأت الى القلعة .

واضافوا الى هذا الطلب طلباً ثانياً هو أن يقدموا لهم كل ما لشاه خوارزم من مال وذخيرة . ثم ساروا فيهم أحسن سيرة .

وأقبل جنكيز خان على المدينة ودخلها مشرفاً بنفسه على حصار من بالقلعة من الخوارزميين ، وطلب بأن لا يتخلف أحد من البخاريين عن المشاركة في هذا الحصار ومن تخلف قتل .

فاستجاب البخاريون فأمرهم بردم الخندق المحيط بالقلعة بالأخشاب والأحجار وكان المغول يقتلعون منابر المساجد ويحملون ربعات القرآن التي تودع عادة في المساجد بكثرة ، واضعين كل ذلك في الخندق مساعدة في ردمه .

أما الذين في القلعة فكانوا لا يتجاوزون الأربعمائة الفارس فصمدوا في القتال اثني عشر يوماً ، ولما تم ردم الخندق ووصل المغول الى سور القلعة نقبوه على من في القلعة فاشتد القتال واستمات الخوارزميون بحيث أعجزوا المغول عن أن ينالوا منهم منالا ، وقد استعملوا في قتالهم كل ما وصلت اليه أيديهم ، استعملوا السهام والحجارة والنـــار ، فاشتد حنق جنكيز عليهم ، وامر بالارتداد عنهم ، ثم باكرهم من الغد فصمدوا صمودهم بالأمس ولكنهم كانوا قد اعيوا ، وظلوا يقاتلون حتى أبيدوا .

مصير بخـــارى

وهنا تفرغ جنكيز خان للبخاريين فطلب أن يكتب له أسماء رؤساء البلد ، ثم أحضرهم بين يديه وطالبهم بما اشتروه من خوارزم شاه من الأموال الـــتي أخذها من تجار المغول المقتولين ، وقال لهم : هذه الأموال أموالنا ، فراح كل من عنده شيء منها يعيده ثم أمرهم بالخروج من البلد .

فخرجوا لا يحملون سوى ملابسهم على أجسادهم ، وانطلق المغول في بخارى يقتلون وينهبون ويهدمون ويهتكون الاعراض. ووجد من أبى ان يحتمل منازل من الهوان والشنار فجرد سيفه يقاتل حتى قتل ، وبين هؤلاء الفقيه ركن الدين امام زاده وولده والقاضي صدر الدين خان . ثم أشعل المغول النـــار بالمدينة ، ومضوا عنها الى سمرقند مستصحبين معهم من سلم من البخاريين اسارى .

لم يكن رجل الموقف

بعد المعركة الأولى التي التقى بها خوارزم شاه بالمغول وانسحب عنهم بجيشه ،

لم يحاول أن يلتقي بهم بنفسه ، وكان قد ترك في سمرقند خمسين الف مقـــاتل ليدافعوا عن سمرقند مع السمرقنديين . ثم أخذ يحاول جمع المقاتلة وارسالهم الى سمرقند مدداً لها ، ولكن الرعب كان قـد سيطر على النفوس ، فكان اذا أرسل نجدات تملصت ولم تصل الى سمرقند فقد أرسل مرة عشرين الف مقاتل لينضموا الى حامية سمرقند فلم يواصلوا السير ، وكذلـك أرسل مرة عشرة آلاف ففعلوا كالاولين .

والواقع انه ما دام الرعب قد سيطر على القـــائد الأول ، وما دام الرجل الذي جعلته المقادير زعيم المقاومة ، ما دام ينهار بعد الصدمة الأولى ، فلماذا نلوم تلك الفرق من الجند على تملصها من القتال مـا دامت تجد القائد الزعيم الموجـــه مرعوبا مستسلما لليأس ، بعيداً عن المعركة .

واذا كان ما يفصلنا عن تلك الأحداث أزمان بعيدة متطاولة، فإن هذاالبعد الزمني لا يحول بيننا وبين الحكم على الناس والاحداث ، ومن النظر نظرة واقعية صحيحة الى المسؤولين عما جرى.

من هنا نستطيع القول أن علاء الدين محمد خوارزم شاه لم يكن الرجل المعد لمثل هذه الأحداث . ومن سوء حظ المسلمين في ذلك العصر أن الذي واجه رجلا مثل جنكيز خان هو علاء الدين محمد ، فعندما لاحت له المغانم في أيدي تجـــار المغول سهلة هينة أسرع لانتهابها وقتل أصحابها ، متصرفاً تصرف الرجل الأحمق الذي لا تسيره الا المطامع الرخيصة . وعندما جـد الجد فر من الميدان وتباعد عن لقاء العدو تاركا عبء ذلك على شعب حائر مشتت يفتش عمن يقوده فـــلا يجد .

لقد كان عليه أن يتحمل مسؤولية عمله وان ينفخ في الأمة روح الجهاد ويثير فيها كوامن الحماسة فيؤلب الجموع معطياً لها من بسالته بسالة ومن صموده صموداً ، وأن يكون القدوة والمثل لكل فرد من أفراد الشعب .

ولم تكن القوى التي يمكن حشدها قوى قليلة ، ولا كانت حماستها حماسة ضئيلة ولكن ذلك لم يكن ليجدي شيئاً إذا كان الرأس ضعيفاً متخاذلاً ، فلقد كان من الممكن خوض معركة طاحنة مع المغول ، إذا أمكن ان لا تنتهي الى النصر ، فإنها كان يمكن أن لا تعطي المغول نصراً سهلًا رخيصاً .

فجموع البخاريين مع حاميتهم وجموع السمرقنديين مع حاميتهم ، وجموع كل مدينة مع ما يمكن اعداده من مقاتلة ومجندين ، كان يمكن أن يقف في وجه المغول وقفات بطولية ربما صدتهم وحولت وجهتهم .

وقد رأينا ما فعلت إرادة القتال وقوة النفس في المعركة الأولى التي خاضتها القوات الخوارزمية بقيادة علاء الدين نفسه حين اصطدم بابن جنكيزخان . فقد صمد المسلمون صموداً بطولياً ولم يتزحزحوا عن خطهم القتالي قيد انملة واضطروا المغول إلى الانسحاب .

ويقول ابن الأثير عن تلك المعركة : « ... واقتتلوا قتالا لم يسمع بمثله فبقوا في الحرب ثلاثة أيام بلياليها فقتل من الطائفتين ما لا يعد ، ولم ينهزم منهم أحد. أما المسلمون فانهم صبروا حمية للدين وعلموا أنهم إن انهزموا لم يبق للمسلمين باقية وانهم يؤخذون لبعدهم عن بلادهم وأما الكفار فصبروا لاستنقاذ أهلهم وأموالهم واشتد بهم الامر حتى أن أحدهم كان ينزل عن فرسه ويقاتل قرنه راجلا ويتضاربون بالسكاكين وجرى الدم على الارض حتى صارت الخيل تزلق من كثرته واستنفد الطائفتان وسعهم في الصبر والقتال .. » إلى آخر ما قال .

صحيح أن المغول لم يكونوا كلهم في هذه المعركة ، وان جنكيزخان لم يكن على رأسهم، ولكن الصحيح أيضاً أن الخوارزميين لم يكونوا كلهم هم الآخرون في المعركة ، وانه كان في البلاد قوى كبرى لم تشترك في القتال ، وفي أهل بخارى وسمرقند ، كما في أهل المدن الاخرى التي اجتاحها المغول بعد ذلك خير مثال على ما نقوله .

ولقد رأينا ما فعل الاربعمائة الفارس الذين تترسوا بقلعة بخارى وما كبدوا القوى المغولية وما عانت منهم . مضافاً الى أن السبب الذي حدا بالمسلمين الى الاستقتال في المعركة الاولى كان لا يزال قائماً وهو (صبرهم حمية الدين وعلمهم أنهم ان انهزموا لم يبق للمسلمين باقية) ، — كما قال ابن الأثير — في حين أن السبب الذي حمل المغول على الصمود كان قد زال : (وهو استنقاذ أهلهم وأموالهم) .

تحطيم المعنويات

لم يكن يخفى على المغول أن قوى كبرى تنتظرهم على الطرق الطويلة ، كما لم يكن يخفى عليهم ما يمكن أن يفعله الانهيار المعنوي في نفوس تلك القوى ، لذلك عمدوا إلى خطة تحطم روح المقاومة في المسلمين ، حتى اذا تحطمت لم تفد عند ذلك الكثرة والوفرة ، وكانوا على علم بان قوى سمرقند أضخم من قوى بخارى ، وأن ما يمكن أن تحشده تلك لم يكن مستطاعاً لهذه . كما أنه لم يكن ليخفى عليهم ان ما فعلوه في بخارى وما نكثوه من عهود وما حل بالمدينة العظيمة من الفواجع سيكون حافزاً للسمرقنديين على عدم الاستسلام ، وعلى المقاومة المستميتة . لذلك عمدوا الى الحرب النفسية واعتمدوا على التهويل لينهار السمرقنديون نفسياً وينشلوا روحياً فلا تبقى فيهم إلا أجسام لا أرواح فيها ولا نفوس تأوي اليها . وبذلك يسهل أخذ الاجسام الخاوية الخالية .

الزحف الى سمرقند

الخطة التي اعتمدها المغول كانت ترتكز أول ما ترتكز على تضخيم صورة الجيوش الزاحفة الى سمرقند ، فعمدوا أولاً الى حشد جميع البخاريين الذين سلموا من القتل وساقوهم معهم وكل من عجز عن السير قتلوه ، فلما دنوا من سمرقند قدموا خيالتهم ومن ورائها رَجّالتهم ومن وراء الرجالة الاسارى البخاريون باعدادهم الكثيرة ووراء البخاريين الأثقال والأحمال وأعطوا كل عشرة من البخاريين علماً يرفعونه أمامهم ، ايهاماً لمن يراهم انهم من صميم الجيش .

وتقدم الخيالة فأدركوا سمرقند، وفي اليوم الثاني تقدمت تلك الجموع منتشرة على الطرق بكثافتها وتكتلها ، فأحدث ظهورها أثره في نفوس السمرقنديين ، وهالهم ما رأوا من أعداد زاحفة اليهم ، ظنوها كلها جنوداً مقاتلة .

الدفاع عن سمرقند

وكانت قوى السمرقنديين مؤلفة أولاً من الخمسين الألف المقاتل الذين تركهم علاء الدين للدفاع عن سمرقند ، ثم من أهل سمرقند أنفسهم الذين يقول ابن الأثير أنهم لا يحصون كثرة . ومن هنا يتبين أن قوة الدفاع لم تكن ضعيفة ولا سهلة الأخذ لو أنها كانت تتمتع بقيادة مؤمنة شجاعة ، ولو انها كانت على مستوى رفيع من المعنويات يتفق مع ما هي عليه من الماديات .

وأول خذلان أصابها هو أن الخمسين الالف المقاتل الخوارزميين كانت قد ماتت فيهم عزيمة المقاومة وتملكهم الرعب فأبوا المشاركة في القتال . ولكن هذه الصدمة لم تضعف السمرقنديين ، فتقدم رجالتهم خارجين من البلد وزحفوا للقاء المغول ، فتراجع المغول أمامهم ، وقد وضعوا لهم كميناً فلما جاوزوه خرج عليهم الكمين ، وقطع عليهم طريق الرجوع ، فأحيط بهم من الامام والوراء فاستقتلوا فأبيدوا عن آخرهم . ويقدر ابن الأثير عددهم بسبعين الف شهيد.

فلما رأى من بالبلد ما حل بالخارجين ، كان الجنود الخوارزميون الخمسون الالف أسرع الناس الى التسليم ، فقد اعتقدوا — وهم أتراك من جنس المغول — أن الرابطة العنصرية ستنجيهم من القتل فطلبوا الامان فاعطوه ففتحوا أبواب المدينة ولم يقدر الناس على منعهم ، وخرجوا الى المغول باهلهم وأموالهم ، فطلب المغول منهم تسليم السلاح أولاً ، وتعهدوا لهم بايصالهم الى مأمنهم ، فلما سلموا السلاح ، أعمل المغول فيهم السيف حتى أفنوهم جميعاً وأخذوا أموالهم ودوابهم ونساءهم .

وفي اليوم الرابع وذلك في المحرم من سنة ٦١٧ للهجرة أعلنوا في المدينة بأن يخرج أهلها جميعاً ومن تأخر قتل ، فخرج الجميع رجالاً ونساء وأطفالاً ، فأعادوا ما فعلوه في بخارى من القتل والنهب والسبي والأسر والتعذيب والهتك.

مطاردة خوارزم ونهايته

بعد سمرقند كان هم جنكيزخان ملاحقة خوارزم شاه نفسه فأعد لذلك عشرين الف فارس جعل مهمتهم الوصول الى خوارزمشاه ، وهؤلاء عرفوا في التاريخ باسم (التتر المغربة) لان اتجاههم كان الى غرب خراسان ، وتمييزاً لهم عن بقية المغول الذين عهد اليهم بمهمات أخرى .

ومضى التتر المغربة حتى بلغوا النهر في مكان يدعى (بنج آب) أي المياه الخمسة ، فكان النهر حاجزاً بينهم وبين خوارزم شاه ومن معه من المقاتلة ، ولم يطل الامر ، بل عمدوا الى صنع أحواض من الخشب غلفوها بجلود البقر ووضعوا فيها سلاحهم وأمتعتهم وأطلق كل واحد منهم فرسه في الماء ممسكا بذيل الفرس وشاداً اليه الحوض الخشبي فانطلقت الخيل في النهر دفعة واحدة جارة وراءها الرجال ، والرجال بدورها تجر الاحواض . فلم يشعر خوارزم شاه ومن معه إلا والمغول معهم على أرض واحدة .

وقد كان الحاجز المائي باعثاً على تماسك المسلمين أول الأمر ، فلما عبر المغول الحاجز انتهى كل شيء وساد الرعب والهلع ، وانفرط النظام ، وأصبح همُّهم كل جماعة نفسها ، وانتهت المقاومة كجيش مجتمع ، اذ سلكت كل شرذمة جهة من الجهات ، أخذت تسرع اليها فراراً .

ومضى خوارزم شاه نفسه في شرذمة من تلك الشراذم ، تضم خواص أصحابه حتى وصل نيسابور فاجتمع عليه من فيها من العسكر . ولكنه لم يكد يستقر حتى فوجيء بالمغول قادمين اليه ، فلما بلغه قربهم رحل عن نيسابور الى مازندران ، فلما علم المغول بذلك لم يعرجوا على نيسابور ، بل واصلوا السير وراءه ، وهو يواصل الفرار أمامهم ، وظل يفر وهم يطاردونه كلما نزل منزلاً

تعقبوه فيه فيتركه إلى غيره، فقد مضى من مازندران الى الري الى همذان، ومن همذان عاد في قلة من أصحابه الى مازندران، حتى انتهى الى بحر الخزر المعروف أيضاً ببحر قزوين، والذي كان معروفاً باسم بحر طبرستان، وهناك ركب الماء الى (آب سكون) ونزل قلعة كانت له فيها. ولم يكن المغول مهيئين لركوب البحر فتوقفوا على الشاطىء، وكان آخر العهد بعلاء الدين خوارزم شاه.

وبانطواء علاء الدين انطوى - الى حين - آخر أمل يمكن ان تجتمع عليه البلاد للمقاومة والدفاع، وأصبح الوطن كما عبر عنه ابن الأثير: (وهذا عظيم مثل خراسان وعراق العجم أصبح سائبا لا مانع له ولا سلطان يدفع عنه والعدو يجوس البلاد يأخذ ما أراد ويترك ما أراد).

على ان العدو لم يترك شيئاً فقد حطم ما مر به، حرقاً وهدماً وقتلا ونهباً وهتكا..

التتر المغرّبة

كان هم «التتر المغربة» الوصول الى خوارزم شاه فلما اعياهم ذلك وهبط الشاه الى بحر الخزر نازلا قلعة (آبسكون) ، منهياً بذلك الصراع بينه وبين المغول ، بل منهيا حياته في تلك القلعة النائية بعيدا عن ضجيج القتال وزمجرة السيوف .

لما اعيا المغول الوصول الى خوارزم شاه ثم ايقنوا ان لاعودة له الى بلاده ولا رجاء بتجدد الكفاح واستئناف القتال وان لاقيادة بعد اليوم تجمع الناس وتؤلب الجموع ، وان الدولة الخوارزمية بكل مافيها من رجال ومـا تضمه من حشود عادت كقطعان سائبة بلا رعاة ولا هداة .

لما وصل الامر الى هذا الحال، وانطلق المغول في البلاد من بلد الى بلد ، فكان ان عادوا الى مازندران ومازندران تعتبر من احصن المدن وامنعها حتى انها اعجزت المسلمين عن فتحها ايام الفتوح الاولى ، وظلت قلاعها مغلقة في وجوهم . فاكتفوا منها باخذ الخراج دون ان يدخلوها حتى عهد سليمان بن عبد الملك سنة تسعين من الهجرة . ولكن مازندران المنيعة هذه كانت غنيمة باردة للمغول واستسلمت لهم بلا عناء ، فاعادوا فيها مافعلوا في غيرها من القتل والسبي والنهب والاحراق .

ومضوا عنهـا نحو الري ، فشاء الله ان تستمكل مأساة خوارزم شاه ، ذلك ان امه لما سمعت بما جرى على ولدها خافت على نفسها فتركت مقرهـا متجهة الى الري فاصفهان فهمذان فبلاد الجبل لتحتمي بهـا . وفي طريق الري صادفها المغول ومعها نساء ولدها وامواله وذخائره ، التي يصفها المؤرخون بانها (لم يسمع بمثلها من الاعلاق النفيسة) ، فقبضوا عليها وعلى من معها ، وصادروا مامعها، (فكان فيه ماملأ عيونهم وقلوبهم ومالم يشاهد الناس مثله من كل غريب من

المتاع ونفيس الجواهر) . وانفذوا كل ذلك الى جنكيز خان في سمرقند .

وانك لتعجب حين تكشف الاحداث ابدأ عمـــا كان يجمعه اولئك الملوك والخلفاء من اموال ضخمة من ذهب وفضة وجواهر وكل ثمين ثم يودعونه خزائنهم ويقفلون عليه ابوابهم. انك لتعجب كيف كان اولئك المتسلطون يستحلون سلب الشعب امواله واستصفاء ثرواته ، وتكديس ذلك في مخازنهم وترك الناس للفاقة والحرمان .

وما الذي كان يدفعهم الى التخزين والاستزادة من التخزين في حين ان المـــال موفور دائما لهم والثروة ابدا في متناول ايديهم .

وهكذا صار امر تلك الكنوز مغنما لطاغية مثل جنكيزخـــان كما صار أمر كنوز أعظم منها مغنما لطاغية آخر هو هولاكو حفيد جنكيز حينما اكتشف في بغداد بقصر الخليفة حوض الذهب المملوء به كالتلال ...

ثم صار امر الري وهمذان وكل مافي طريق المغول من بلدان وقرى مصير غيرهما مما استباحوه ، وادركهم الشتاء وهم في همذان وبلاد الجبل فارهقهم بردهـــا فتركوها الى اذربيجان وهم يمعنون في طريقهم حرقا وقتلا ونهبا الى ان وصلوا تبريز ، وكان صاحبها ، بل صاحب اذربيجان كلها اوزبك بن البهلوان وكان هذا الامير في شاغل عن المغول وعن البلاد بكؤوسه وشرابه ، فاسترضـــاهم بهدايا واموال ودواب ، فرضوا ومضوا عنه .

ويبدو ان ماحملهم على تجاوز تبريز ليس هدايا اوزبك وحدها ، بل حرصهم على الوصول الى ساحل البحر والتخلص من البرد الشديد وامتلاك المراعي الواسعة هناك .

فادركوا موقان ولكنهم وهم في طريقهم احتكوا ببلاد الكرج [1] .فحشد

---

(١) كان الكرج مسيحيين يسكنون جبال القبق «القوقاز» .

لهم الكرج نحو عشرة الاف فارس واصطدموا بهم فتغلب المغول وهزموا الكرج وقتلوا اكثرهم.

محاولة

لقد كان من اعظم ماحقق للمغول سهولة الانتصار، هو فقدان القيادة وتفكك الناس، فاستفردوا المدن مدينة مدينة، والجموع جمعا جمعا، مما ادى الى انهيار العزائم وتشتت القوى واستيلاء اليأس. وجاءت هزيمة الكرج مشيرة الى تمادي الأخطار واستفحال الأهــوال. ولم تكن الامور بين الكرج واوزبك صاحب اذربايجان صافية، بل كانوا على خصام مستمر. وجــاء هذا الخطر المريع المهدد للجميع، فدعا الكرج اوزبك الى الصلح وتناسي الماضي والعمل يداً واحدة على دفع ما ينتظرهم من توغل المغول. فاستجـــاب اوزبك لذلك، وتقرر توسيع الحلف والاتصال بآخرين، فاتصلوا بالملك الأشرف صاحب خـــلاط وديار الجزيرة فوافق.

وهكذا بدا ان الامور تسير الى توحيد الكلمة وجمع القوى، وايجاد القيادة. ولكن الذي أفسد الامر هو سوء التقدير. اذ ان الحلفــاء قدروا ان المغول لن يتحركوا في الشتاء لقساوة البرد، وان تحركهم لا يكون قبل دخول فصل الربيع، لذلك لم يحزم المتحالفون أمرهم ويجمعوا شملهم منذ اللحظـة الأولى، بل أهملوا ذلك الى ما بعد انقضاء فصل الشتاء.

ويبدو ان المغول لم يكونوا غافلين عمـــا يجري، وان عيونهم كانت حسنة الاستطلاع فأدركوا حقيقة المحاولات لذلك عزموا على الانقضاض على الكرج قبل توحيد الجيوش ووطنوا النفس على تحمل البرد وقساوته وعدم الانتظار الى الربيع. والمؤرخون لم يشيروا الى السبب الذي دعـــا المغول الى هذا التعجيل ولكننا نحسب ان السبب هو ما ترامى اليهم من نجاح فكرة التحـــالف فصمموا على القضاء عليها في مهدها.

قوى تنضم الى المغول

وزاد الامر سوءاً ان قوى جديدة انضمت للمغول يقول عنهـا ابن الاثير ان الدافع لها للانضمام هو الجنسية الواحدة بينها وبين المغول ..

ولكننا لا نحسب ان الجنسية كانت كافية لتجذب هؤلاء المنضمين، فقد رأينا من قبل أن الجنسية لم تحل دون تذابح الجنس الواحد في الحرب الضارية وان المغول لم يستثنوا من هم من جنسهم من مجـــازرهم ، كما ان من هم من جنسهم لم ينفكوا عن قتالهم ومدافعتهم .

وانما يخيل الينا ان ما أحرزه المغول من انتصارات وما حققوه من مغانم كان حافزاً للنفوس الضعيفة الموجودة في كل زمان ومكان للانضمام اليهم . وانه يوجد أبداً من هم حاضرون للاخذ بجانب القوي حين تبدو قوته ويتأكد فوزه .

وهكذا كان أمر أحد أتباع اوزبك صاحب اذربايجان ، وهو مملوك تركي من مماليك اوزبك اسمه (اقوش) خرج على سيده (وجمع أهل تلك الجبال والصحراء من التركمان والاكراد وغيرهم، فاجتمع معه خلق كثير وراسل التتر في الانضمام اليهم فأجابوه الى ذلك ومالوا اليه للجنسية)[١] .

وتقدم أقوش بجموعه جموع المغول ومضوا جميعاً في بلاد الكرج نهبـاً وقتلا وتخريباً حتى شارفوا تفليس ، فخرج الكرج بكل قواهم واصطدموا بـأقوش فصمدوا له وصمد لهم . وأثخن الكرج بقوات أقوش قتلا ذريعاً ، ولكن المغول وصلوا وقد تعب الكرج وكلوا فكانت القاضية عليهم اذ لم يثبتوا للقوى القادمة وانهزموا فتبعتهم السيوف تفتك بهم الفتك المريع .

---

(١) ابن الأثير .

الانهيار المعنوي

هذه الانتصارات المتلاحقة للمغول ، وتخاذل القيادة الاسلامية وانهيار معنوياتها فعلت أسوأ الفعل في نفوس الشعوب وأوهنت عزائمها وضعضعت روحها ففقدا الناس وكأنهم أشباح لا قوة فيها ، ولا رجولة تحميها ، ولا ذهن يمدها، ولا حس يشدها . ويروي المؤرخون المعاصرون أقاصيص عجيبة تريك الى أي حد بلغ الوهن بالنفوس والتلاشي بالهمم والضياع بالعقول .

فيذكر ابن الأثير مثلا ان مغولياً واحداً دخل دربا فيه مائة رجل فما زال يقتلهم واحداً واحداً حتى أفناهم ، ولم يمد أحد يده اليه بسوء .

نجـــاة العراق

وقامت محاولات لصد هذا الزحف الطاغي بعد أن اتجه المغول نحو اربل ، فاستنجد صاحبها مظفر الدين كوكبري ببدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فأنجده بكل ما استطاع واضطربت النفوس في الموصل نفسها خوفا من وصولهم اليها . واتخذ المسلمون خط دفاعهم في (دقوقا) وحاولوا تجميع القوى فيها .

وتعهد مظفر الدين لخليفة بغداد بصد المغول ثم استنقاذ ما أخذوه من بلاد ، اذا أنجده بعشرة آلاف فارس ، فكان كل ما وصله من النجدات ثمانمائة طواشي . يقول مظفر الدين «فأقمت وما رأيت المخاطرة بنفسي وبالمسلمين» .

ويبدو ان تمركز مظفر الدين في دقوقا جعل المغول يحسبون حسابا للدفاع الاسلامي ويترددون في قصد العراق والتوجه الى اربل ، ثم انكفؤوا راجعين معتقدين ان المسلمين يتبعونهم فلما رأوا ان أحداً لا يتبعهم عادوا فاستقروا .

أما المسلمون فلما رأوا ان النجدات لا تأتيهم ، وان المغول لا يقصدونهم تركوا مواقعهم وتفرقوا في بلادهم .

ثم عاد المغول الى همذان ، فنجا العراق هذه المرة ، على أن نجاته كانت

مؤقتة ، والشر لا يزال متوقعاً والبلاء لا ينفك شاخصاً .

يعودون للشقاق

ومن عجيب أمر الناس يومذاك ان أولئك الذين أبصروا بعيونهم ما آل اليه حال العالم الاسلامي ، وشهدوا بأنفسهم المصير المفجع الذي صارت اليه البلاد التي عبر اليهـا المغول ، ثم رأوا المغول يطرقون أبوابهم ويصلون الى حدودهم ، أولئك الأمراء الذين كان مفروضاً بهم أن يكونوا القـــادة الذادة فيخططوا للمستقبل ويعدوا ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل لحماية أوطانهم أولا ، ثم لدفع المغول عما اغتصبوه من بلاد وما استباحوه من ديار .

أولئك الأمراء ، لم يكد المغول يهدؤون عنهم قليـلا ، ويؤخرونهم يسيرا ، حتى عادوا الى الاحتراب فيما بينهم وغزو بعضهم بعضا .

فاذا بمظفر الدين كوكبري صاحب اربل وشهاب الدين غازي صاحب خلاط والمعظم عيسى صاحب دمشق يتواعدون على قصد بلاد الملك الأشرف .

واذا بالذين فشلوا في التحالف لصد المغول والذين لم ينجدوا خط الدفـــاع الاسلامي في دقوقا بأكثر من ثمانمائة طواشي ، اذا بهم لا يفشلون في التحالف ضد بعضهم البعض واذا بنجداتهم هذه المرة تتوالى ألوفاً ، واذا ببدر الدين لؤلؤ الذي كان الوحيد الذي أنجد مظفر الدين كوكبري في دقوقا ، اذا به يجـــد نفسه محاصراً في الموصل بقوى كوكبري ، ولكن الحصار فشل .

المغول يصلون الى الفرات

نهاية علاء الدين خوارزم شاه في (آب سكون) لم تكن نهـــاية المقاومة الخوارزمية للمغول ، بل كانت نذير تلك النهاية .

فقد بقي من عـلاء الدين ولده جلال الدين منكبرتي ، وبقي له ستون الف مقاتل وصار جلال الدين في غزنة ومعه أولئك الجند ينتظرون ما سيصير اليـه الأمر ، ولم يكن جنكيز ليغفل عن تلك البقية ، لذلك أرسل لقتالها اثني عشر الفاً مستهيناً بها مستضعفاً أمرها . وخرج جلال الدين للقاء المغول فقــابلوه في ناحية من نواحي غزنة تعرف ببلق ، فانهزم المغول هزيمة منكرة كانت الأولى في غزوهم الفظيع . وبالرغم من قلة عدد المغول فان مجـرد التفكير يومذاك بالصمود لهم ، ثم قتالهم ، ثم هزيمتهم ، كان يعد أمراً خطيراً بعـد أن تلاشت العزائم وضعفت الهمم وخارت النفوس .

ولم يسكت جنكيز على الهزيمة ، فقد تمثلت عنده أمراً جللا ربما جرأ الناس عليه ، وكان فاتحة عهد من نضال ظافر !. لذلك عاود الكرة فأرسل هذه المرة جمعاً أعظم من الجمع الأول وجعل قيادته لأحد أولاده .

ومضت الحملة الجديدة تجر معها العديد من أسرى المعارك الأولى من المسلمين ، ربما لتتخذ منهم دريئة ، وربما لتهون بهم على المقاتلين نظير ما فعلته في معارك بخارى وسمرقند وغيرها من قبل . والتقاها جلال الدين في كابل وصمد الفريقان وقاتلو أشد قتال فانهزم المغول هـذه المرة أيضاً وخلفوا وراءهم ما لا يحصى من القتلى ،وتخلوا مرغمين عن أسرى المسلمين وكانوا خلقاً عظيما على حد تعبير صاحب (مفرج الكروب) ، كما تركوا غنائم كثيرة .

ويبدو ان الغنائم كانت من الوفور بحيث اغرت بالتنازع عليها ، ولم يحفل المنتصرون بعظيم ما جنوه من هزيمة الطغاة، وعظيم ما يرجى من وراء انتصارهم، ولا ازدهاهم ما تجرؤوا به على المغول من تكرار الهزيمة لهم والايغال في قتالهم ، ولا شغلهم التفكر في المستقبل الزاهي المنتظر لتكرار مثل هذه المعارك وتكرار النصر فيها ، بل شغلهم عن كل ذلك عظم الغنائم فاختلفوا عليها .

وكان بين المسلمين أمير تركي يقال له سيف الدين بغراق ، وكان من أشجعهم وأكثرهم مكيدة في الحروب ، وكان له في تحقيق النصر الدور الأكبر ، فوقع الخلف بينه وبين أمير آخر يدعى ملك خان يمت الى جلال الدين بعلاقة نسب ، وقع الخلف على الغنائم فساد الاقتتال بين المسلمين أنفسهم ، وقتل فيمن قتل أخ لبغراق . فعز ذلك على بغراق وأثاره فقال : «أنا أهزم الكفار ويقتل أخي لأجل هذا السحت» !.

ثم نادى بعسكره وفارق جلال الدين متجهاً الى الهند ، فتبعه ما لا يقل عن ثلاثين الفاً ، فكانوا قوة ضخمة تترك المعركة المنتظرة .

انسحاب جلال الدين

وأدرك جلال الدين خطر ما جرى فتبع بغراق وتوسل اليه أن يرجع وبكى بين يديه وذكّره الجهاد ، ولكن بغراق أصر على التخلي عن القتال واوغل في السير ، فكان ذلك كافياً لانهاء الصراع وضمان الظفر للمغول الذين كانوا قد ساروا هذه المرة بقيادة جنكيز نفسه ، فلم يقف لهم جلال الدين ، بل سار قبل وصولهم متجهاً هو الآخر الى الهند وفي الطريق حجزه نهر السند فلم يستطع عبوره مع جنده لفقدان السفن ، وكان جنكيز قد وصل اليهم فاشتبكوا في قتال ضار يقول عنه صاحب (مفرج الكروب) : «ان ما مضى قبله من الحروب كان لعباً بالنسبة اليه» ، واستمر القتال ثلاثة أيام لم ينهزم فيها أحد من الفريقين وكثر القتل فيهما جميعاً ، وكان القتل في المغول أشد ، وكان فيمن قتل ملك خان

صاحب فتنة الغنائم .

ويبدو ان كلا من الفئتين قد يئست من الظفر ، وأدى يأس المغول الى انسحابهم الى مكان بعيد ، ورأى المسلمون أنهم منفردون في هذا المكان ، وان لا نجدات يحتمل وصولها اليهم ، فانسحبوا هم الآخرون عابرين نهر السند ، غير عارفين بما حل بالمغول أنفسهم من يأس وما نزل بهم من قتل وجرح .

ويرى بعض المؤرخين القدامى ان لو علم المسلمون حقيقة ما حل بالمغول لعاودوا الكرة عليهم ولكان لهم أمل كبير بالظفر بهم .

وهكذا خلا الجو لجنكيز فاستهدف هذه المرة مدينة غزنة قاعدة جلال الدين فاقتحمها معيداً فيها فظائع بخارى وسمرقند وهرات وغيرها من قتل ونهب وهتك ، ثم احراق عام للمدينة .

عودة جلال الدين

لم يكن مضي جلال الدين الى الهند مضياً دائماً ، فبعد بضع سنين عاد الى ايران فقصد أولا الى كرمان ثم الى أصفهان التي كانت قد أعيت المغول ، فاستولى عليها وسيطر على ما كان يسمى بعراق العجم أو بلاد الجبل . ثم وجه همه لا الى قتال المغول بل للسيطرة والفتح داخل بلاد المسلمين واتجه الى ما كان بأيدي الخليفة العباسي فحاصر (تستر) فلم يقدر عليها ، ثم انتشر جنده حتى بلغوا أطراف بغداد وأطراف البصرة ، وتقدم الى دقوقا فافتتحها عنوة ، فاذا به يُنسي المسلمين ما فعل المغول بهم فيعمل في أهل دقوقا المسلمين وفي مدينتهم أشنع من أفعال المغول من قتل ونهب وتخريب ، واصطدم بعد ذلك بالكرج — غير المسلمين — فهزمهم ومضى رجاله في بلادهم نهباً وقتلا وسبياً وتخريبا ، ويقول صاحب مفرج الكروب : «فاستأصل أهلها قتلا وسبياً» ، واستولى على تفليس فسار فيها نفس السيرة الدموية .

ويبدو ان فريقاً من المغول قد انشقوا عن مركز السلطة واستقلوا بالعمل وحدهم ، فخرجوا من جديد الى البلاد الاسلامية فالتقوا بجلال الدين في وقائع لم يظفروا عليه فيها الى أن تبدل الموقف بينه وبين أخيه غيـــاث الدين وبعض الأمراء في احـد المواقف مع المغول ، مما جعل جلال الدين ينكفىء عن المغول الذين اتجهوا بعد ذلك الى أصفهان فاتجه اليها جلال الدين واستطاع بمعـــاونة الأصفهانيين التغلب على المغول .

ثم عاود غزو المسلمين فحاصر مدينة (خلاط) واستطاع فتحها فارتكب فيها من الفظائع والأهوال الى الحد الذي قال فيه محمد بن سالم بن واصل : « فقتل كل من وجد في البلد ، وسبى عسكره الحريم وباعوا الأولاد كما يفعل بالكفرة ونهبت الأموال وجرى نظير ما جرى من التتر » !!

هذا القائد الذي لا يزال يواجه الخطر المغولي ، والذي يتجه المسلمون اليـه والى أمثاله ليحموهم من هجمة مغولية جديدة ، هذا القائد المسلم تنسي أفعـاله في المسلمين ما لقيه هؤلاء من المغول ، ويستبيح في المسلمين مثل ما استباح المغول فيهم من قبل . هذا القائد ينسى أباه ، وكان عليه — على الأقل — ان يذكره ويذكر ما لاقى من المغول ، فينصرف الى الاعداد للمعركة على المغول وجمع كلمة المسلمين وتطييب قلوبهم وجبر كسورهم !.. ولكنــــه كان على الضد من ذلك فكان عليهم أشد من المغول !

وقيض الله له السلطان الملك الأشرف الذي اصطدم به في ارزنجان فهزمه ، وهكذا كان هؤلاء يتقاتلون على مشهد من المغول المتحفزين ، وكانت هذه المعارك تزيد المسلمين ضعفا على ضعف وهوانا على هوان ، وكان المغول يراقبونهـا فعندما تلوح لهم الفرصة يستغلونها أوسع الاستغلال .

ويبدو جلياً انه لم يكن في هؤلاء الخوارزمية خير ، فعلاء الدين من قبل كان العامل المباشر للغزو المغولي بأطماعه وسوء رأيه ، فلما بدأ هذا الغزو ملىء رعباً

وانهزم نفسياً وترك الأمة بأيدي المغول سائبة بلا رأس حتى فعلوا فيها ما فعلوا.

وهذا ابنه جلال الدين يرتكب ما ارتكب ، ويمضي في ذلك الى بلاد الاسماعيلية ، فيقول صاحب مفرج الكروب عن فعله بهم: «نهب بلاد الاسماعيلية نهباً وخرب ضياعهم وقتل أهلها وسبى الحريم واسترق الاولاد وعمل فيهم الأعمال الفظيمة» .

ثم يصفه قائلا : «قبيح السيرة سيء التدبير جداً وهو الذي أفسد حاله وحال المسلمين» .

وكان لا بد من النهاية الأليمة ، فان هزيمة جلال الدين أمام الملك الأشرف هيأت الأمر لانقضاض مغولي جديد فتتبعوا جلال الدين معيدين فيما يمرون به من بلاد سيرتهم الاولى ، وجلال الدين يمضي أمامهم معلناً - بعد فوات الاوان - انه يريد أن «يقصد الخليفة المستنصر بالله ملتجئاً اليه مستنجداً به وبملوك المسلمين على المغول» .

وظل يمضي والمغول يطاردونه حتى نزل قرية من قرى ميافارقين ، كان فيها رجل قتلت عساكر جلال الدين أباه وأخاه ، فوثب الرجل على جلال الدين فقتله .

وبمقتل جلال الدين ونهايته انتهى كل تفكير في الاعداد لمقاومة المغول والتبصر في أمور المستقبل ، وانصرف الناس الى شؤونهم ، وأمعنوا في نزاعاتهم ، فتقدم المغول الى اذربايجان واران ، وبلاد الجبل وكرمان وغيرها . ووصلوا الى اصفهان ، وكانوا من قبل قد عجزوا عنها ، وكادوا يعجزون الآن لولا فتنة وقعت بين الاصفهانيين سهلت الامر للمغول. ومضوا بعد ذلك سائرين حتى بلغوا الفرات ، وكان هذا أول وصول لهم اليه وذلك سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١) م .

امبراطورية جنكيز

كان انهيار الدولة الخوارزمية على الشكل الذي مر ذكره في الفصول السابقة ايذانا بسيطرة المغول ، اذ لم يكن امامهم قوة اسلامية اخرى كافية لصد زحفهم وايقاف تقدمهم . وكان استيلاؤهم على ما استولوا عليه من البلادالاسلامية في عهد جنكيز خان بعض ما كانوا يهدفون اليه من اقامة ملك مغولي يستوعب اكثر ما يمكن استيعابه من العــالم . وقد وُفق جنكيز في السيطرة على الصين الشمالية واواسط آسيا وايران وجورجيا والقفقاس وروسيا وبولندة واجزاء اخرى من اوروبا الشرقية.وهذا كما نرى امبراطورية مترامية الاطراف.

العالم الاسلامي يومذاك

واذا كان العراق وبقية العالم الاسلامي قد نجت من يد جنكيز فان العراق وغيره لم ينج من يد هولاكو حفيد جنكيز . فبعــد اربعين سنة من بدء تعرض جنكيز للعالم الاسلامي (٦١٦ هـ = ١٢١٩) استولىهولاكوعلى بغداد (٦٥٦هـ = ١٢٥٨ م) وكانت امبراطورية المغول وقت سقوط بغداد تضم اغلب بلاد الصين وتركستان وجزء من الهند واكثر ايران وآسيا الصغرى واكثر روسيا .

اما العالم الاسلامي فلم تكن موارده يومذاك بالموارد القليلة ، بل كان لا يزال واسع الرقعة مكتظا بالناس ، كثير الرجال والسلاح والمال ، ولكن كان ينقصه التماسك وتعوزه الزعامة. ولم تكن خلافة بغداد جديرة بمايفترض فيها من الدعوة الى الوحدة وقيادة الناس. ففي الوقت الذي كان فيه المغول يتهيؤون لما يتهيؤون له من الامتداد واختراق البلاد كانت سلطة بغداد تشتغل باعداد المذابح المذهبية والهجوم بفريق من الشعب على فريق آخر بقيــادة ابن الخليفة نفسه فيحرقون

وينهبون و يسفكون الدماء ويسبون النساء المسلمات . ويوالون ذلك مرات ومرات .

لذلك كان من العبث ترقب شيء من حكام بغداد وكانت سلطة الخليفة المستعصم بالله (٦٤٠ – ٦٥٦) = (١٢٤٢ – ١٢٥٧ م) تشمل في ذلك الوقت جزءاً من عراق اليوم يمتد من تكريت الى الفاو ومن حدود ايران الى عانة بما في ذلك خوزستان . وكان الخليفة يستقل بما تحت يده استقلالا كاملا منذ انقضاء السيطرة السلجوقية على الخلفاء ومن قبلها السيطرة البويهية ، وفشل السيطرة الخوارزمية في الحلول محلها .

هذا اذا نظرنا الى السلطة المادية ، أما سلطته المعنوية فقد كانت تشمل كل ما بقي سالماً من العالم الاسلامي من النيل الى سيحون، اذ كان يخطب باسمه على منابر الاسلام في كل مكان ، وينظر اليه كرمز اسلامي يمثل المسلمين كافة . وبهذا كان مستطيعاً ان يهيب بدنيا الاسلام من جميع أطرافها ويجمع الشمل ويوحد الكلمة للوقوف في وجه الطغاة الزاحفين . ولكن شيئاً من ذلك لم يقع ولا كان أحد يؤمل ان يقع مما سهل على هولاكو انهاء أمر الخلافة بأقل جهد . ولما تفاقم الأمر في عهد المستعصم وُطلب اليه العمل الجدي كان يقول : «ان بغداد تكفيني ولا يستكثرونها علي اذا نزلت لهم عن باقي البلاد ، ولا ايضاً يهجمون علي وأنا بها وهي بيتي ودار مقامي»[١] .

بهذه الروح الانهزامية كان رأس الأمة وخليفة المسلمين يعالج الخطر المغولي ، وبهذا التفكير كانت تقابل احتشادات العدو . واذا كان الرجل الأول يرى مثل هذه الآراء ، وهذه هي همته وهذا هو عزمه فكيف بالآخرين .

---

(١) تاريخ مختصر الدول لابن العبري ص ٢٥٥ طبع بيروت ١٩٥٨ .

بعد جنكيز

العام ٦٢٠ هـ (١٢٢٣م) كان جنكيز قد حقق أهدافـــه الاولى في البلاد الاسلامية فعاد الى بلاده ومات بعد أربع سنين ، فتولى بعده ابنه (اوغوتاي) . وقد رأينا محاولات جلال الدين منكوبرتي في مقاتلة المغول وما كان من أفاعيله في المسلمين ثم نهايته وقتله سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣٠ م) وما كان من وصول المغول الى الفرات في تلك السنة .

ثم كانت لهم بعد ذلك غزوات أصطدموا فيها بقوات المسلمين غربي مدينة اربيل سنة ٦٢٩ هـ (١٢٣١ م) ، ثم سنة ٦٣٣ (١٢٣٥) حول اربيل نفسهـــا ، كذلك سنة ٦٣٤ (١٢٣٦) حيث اجتاحوا اربيل وارتكبوا فيهـــا ما اعتادوا عليه من فظائع ، ثم رحلوا عنهـــا حين بلغهم ان الخليفة المستنصر جهز عليهم الحملات . وفي سنة ٦٣٥ (١٢٣٧) وصل المغول الى (سر من رأى) وعادوا عنها منهزمين ثم رجعوا في السنة نفسها ووصلوا (خانقين) وهزموا جيوش الخليفة وغنموا غنائم عظيمة .

وفي سنة ٦٣٩ (١٢٤١) ملكوا ارزن الروم وقتلوا منها كثيراً . وفي السنة التالية عقد حلف بين سلطان الروم غياث الدين كيخسرو وجمع من اليونانيين والفرنج والكرج والأرمن والعرب وساروا لمحـــاربة المغول فالتقوا بهم بنواحي ارزنكان فانتصر المغول،وكان من نتائج هذا النصر ان انتشروا في آسيا الصغرى يقتلون وينهبون. وبسقوط آسيا الصغرى صار العراق مطوقاً من الشرق والشمال. وفي سنة ٦٤١ (١٢٤٣) غزوا أطراف الشام ووصلو الى قرب حلب .

وفي سنة ٦٤٢ (١٢٤٤) تقدموا من همذان نحو العراق فوصلوا خـــانقين

واقتربوا من بعقوبا . وفي سنة ٦٤٧ (١٢٤٩) كبسوا أبواب خانقين ووصلوا الى «البت» و«الراذان» وهما من نواحي بغداد وقتلوا هناك مقتلة عظيمة ووصل المار بون الى بغداد. وعاد المغول بعد أن قتلوا في «دقوقا» خلقاً وأسروا آخرين

وتوقف المغول عن التعرض للعراق حتى حملة هولاكو سنة ٦٥٦ (١٢٥٨) على انهم أغاروا على بلاد الجزيرة الواقعة الى شمال العراق سنة ٦٥٠ (١٢٥٢) حتى بلغوا حران والرها ونهبوا دياربكر وميافارقين .

المغـــول في أوربا

وعدا عن غزو البلاد الاسلامية فان المغول في عهد أوغتاي استولوا على أقاليم الصين الشمالية بأكملها وانهوا حكم أسرة «كين» .

كما تم في عهد خلفاء اوغتاي تصفية الصين الجنوبية . وكذلك سير أوغتـاي الجيوش الى أوروبا الشرقية بقيادة (سبوتاي) فاستطاع الاستيلاء على جميع البلاد الواقعة بين جبال اورال وشبه جزيرة القرم وهزم الروس وأحرق موسكو وأخضع اوكرانيا . وبذلك سقطت روسيا كلهـا بأيدي المغول وظلت بأيديهم طيلة قرنين ونصف القرن (١٢٣٩ – ١٤٨١ م) .

كما أخضعوا بولونيا وارتكبوا فيها الاهوال ووصلوا الى المانيـا وهنغاريا ، وتقدموا الى النمسا وسواحل بحر الادرياتيك .

وهكذا عانت أوروبا المسيحية مثلما عانى الشرق الاسلامي من فظائع المغول مما حمل البابا «غريغوري التاسع» الى استنهاض الحكام المسيحيين لصد المغول[١].

كيوك خان

وفي ذروة هذه الفتوح مات اوغتاي سنة ٦٣٩ هـ وقام نزاع على خلافته ولم يتول كيوك خان الحكم الا في سنة ٦٤٤ (١٢٤٦) وكانت توراكينا خاتون زوجة أوغتاي هي التي تدير الملك الى تولي ابنهـا كيوك (٦٤٤ – ٦٤٧) = (١٢٤٦ – ١٢٤٩ م) .

---

(١) التاريخ الأدبي لايران من الفردوسي الى سعدي لبراون ص ٥٧٣ .

ومن الجدير بالذكر انه حضر حفلات تنصيب اوغتاي مندوب الخليفة بغداد ومندوب لحاكم الاسماعيليين في ألموت علاء الدين فيمن حضر من ممثـــلي الدول الاخرى المجاورة للمغول والمهددة بهم ، كما حضر بعض المندوبين المسيحيين .

وبالرغم من المعاملة الحسنة التي عومل بها مندوب الخليفة فانه تسلم رسالة كلها تهديد ووعيد ، أما مندوب الاسماعيليين فقد عومل بغضب ومهانة[1] .

ومن هنــا نستطيــع ان نفهم نوايا المغول وما كانوا يضمرونه منذ تلك الفترة وما قبلها للاسماعيليين ولحكام بغداد وللبلاد الاسلامية كلها .

وتميز عهد كيوك بإيثار المسيحيين لان أمه كانت مسيحية .

---

(١) مختصر الدول لابن العبري ص ٤٥٠ .

منكوقا آن

(٦٤٨ — ٦٥٥ = ١٢٥٠ — ١٢٥٧م)

وبعد كيوك خان انتقل الحكم الى فرع آخر من أبناء جنكيز أبنـاء تولوي حيث تولى منكوقا آن بعد شيء من النزاع حكت خلاله زوجة كيوك خان .

وعهد منكوقا آن من أخطر العهود في تاريخنا ففيه تقرر غزو بغداد وتم هذا الغزو على يد أخي منكوقا آن ، هولاكو .

وبالرغم مما يبدو من ان هذا الغزو كان تصميما مغوليا بحتاً ، وان تنفيذه كان ينتظر الساعة المناسبة فقد حرضت عليه وقوت عزيمة المغول فيه رغبة اخرى في قهر العالم الاسلامي وتمزيقه ، هي رغبة اوروبا التي كانت لاتزال متشبثة بالحروب الصليبية .

فان لويس التاسع المعروف ملك فرنسا ظل يحلم بالانتصار على المسلمين وتحقيق امانيه في استصفاء بلادهم ، وعلى ذلك فقد رأى في المغول الوثنيين حلفاء له فيما يصبو الى تحقيقه ، لا سيما وهناك ما اشتهر عن بعض زوجاتهم المسيحيات وما لهن من الاثر عليهم . فارسل الى منكوقا آن سنة ٦٥٠ (١٢٥٢ م) بعثـــة برئاسة الراهب «غيوم روبرك Guillame robruk.» سارت من عكا الى القسطنطينية ومنها الى شبه جزيرة القرم ، ثم مدينة «سراي» ثم عبر منافذ الاورال ونهر ايلي الى أن وصل الى قراقورم حيث قابل منكوقا آن .

ويبدو ان الهدف كان انشاء تحالف مسيحي مغولي يتقدم فيه المغول من الشرق والصليبيون من الغرب لحصر العالم الاسلامي وتحطيمه .

ولقد قوبلت البعثة بترحيب في البلاط المغولي وعـادت تحمل رسالة جوابية الى لويس التاسع[١] .

ولم تقتصر هذه الدعوة على مسيحيي أوربا فان مسيحي غرب آسيا حاولوا هم الآخرون التقرب الى المغول والعمل على اجتذابهم الى صفوفهم حتى يستطيعوا بمعاونتهم ان يستخلصوا بلاد الشام من أيدي المسلمين.

هذا الامل هو الذي حفز «هيتوم Hethoum » ملك كليكيا الى الاسراع الى قراقورم في السنة نفسها التي عاد فيهـا رسول لويس الى أوروبا وألح على منكوقا آن للقيام بحملة مشتركة على المسلمين .

على ان الواقع يدل ان نية منكوقا آن لم تكن تهدف الى التحالف مع الصليبيين بل كان ينوي الحلول محلهم في السواحل الشامية وان ترحيبه برسلهم والتظاهر بالموافقة على دعوتهم كان يقصد بها تطمينهم وبعث الثقة في نفوسهم الى الوقت المناسب .

---

(١) الدولة الخوارزمية والمغول لحافظ حمدي ص ٢٤٨ .

التفكير في التخلص من الاسماعيليين

رأينا فيما تقدم ان وفد الخليفة الى حفلة تنصيب كيوك خان لقي الى جانب الترحيب تهديداً ووعيداً ، وعاد الى بغداد يحمل رسالة معربة عن ذلك . أما وفد الاسماعيليين أصحاب قلعة آلموت فقد لقي غضباً ومهانة ، ولكل من المعاملتين أسباب وجذور ودلالات. فوفد الخليفة يمثل سلطة لم يصطدم بها المغول اصطداماً مباشراً بعد ولكنهم يتهيؤون لهذا الاصطدام ، فهم على ترحيبهم يريدون أن يفهموا من وراء الوفد ان عليهم التسليم أو انتظار عواقب عدم التسليم.

وأما الاسماعيليون فقد استطاعوا أن يصمدوا لغزو جنكيز بشكل أو بآخر وان تظل قلاعهم سليمة ويظلوا هم فيها سالمين ، فتنجوا مما أصاب غيرها . وهذا ما أثار حنق المغول عليهم حنقاً تجلى في مقابلتهم لوفدهم وفيما بدر منهم بعد ذلك عندما تهيؤوا للغزو العام . فقد أعلنوا ان هدفهم استئصال الاسماعيليين ولقوا من المسلمين من يحرضهم على ذلك ويمهد لهم السبيل .

بعض المسلمين الذين كان الخطر المغولي لا يزال جاثماً على أبوابهم بكل جبروته وقوته بعد غزو جنكيز خان ، لم يروا في وثنية المغول الحاداً ، وانما رأوا هذا الالحاد في عقيدة الاسماعيليين ، لذلك أطلقوا عليهم اسم «الملاحدة» وأصبحت قلاعهم تعرف باسم قلاع «الملاحدة» ، وأصبح هم المسلمين لا العمل على وضع الخطط للمستقبل القريب والبعيد ، والاعتبار من الماضي بالتفكير في تنظيم القوى الاسلامية وجمع صفوفها لتكون سداً منيعاً في وجه غزو مغولي جديد . لم

يصبح همهم هذا ، بل كان همهم كيف نتخلص من «الملاحـدة» وقوتهم ، وكيف نقضي على الاسماعيليين وحكومتهم .

كان منكوقاآن حفيد جنكيز هو الذي انتهت اليه خلافة جنكيز ـ كما رأينا ـ ، وكان هو الحاكم الذي تسير باشارته جيوش المغول في كل مكان . وكان له عدة اخوة يقودون جيوشه ويحكمون باسمه ، أحدهم «هولاكو» .

على منكوقاآن هذا كان يتردد قاضي قضاة المسلمين شمس الدين القزويني ، وكان هم هذا القاضي أن يثير حفيظة الامبراطور المغولي على الاسماعيليين ويحرضه على اقتحام بلادهم ، فلم يترك وسيلة من الوسائل الا استغلها لانجاح مقصده .

يقول رشيد الدين الهمذاني في كتابه جامع التواريخ في الصفحة ٢٣٣ من المجلد الثاني ـ الجزء الأول : «في ذلك الوقت كان قاضي القضاة المرحوم شمس الدين القزويني موجوداً في بلاط الخان . وذات يوم ظهر للخان مرتديا الزرد وأخبره انه يلبسه تحت ثيابه خشية الملاحدة ، كما سرد له طرفاً من اعتداآتهم وغاراتهم . وكان الخان يتوسم في أخيه هولاكو مخايل الملك ، ويرى في عزائمه مراسم الفتح والغزو . وكان قد تفكر فرأى أن بعض ممالك العالم قد دخل فعلا في حوزة جنكيز خان وبعضها لم يستخلص بعد» .

ويقول الجوزجاني «انظر طبقات ناصري ، صفحة ٤١٣ ـ ٤١٤» ان شمس الدين هذا كان على اتصال بالمغول ، وكان اماماً وعالماً كبيراً ، ذهب مرة الى منكو خان وطلب منه أن يضع حداً لشر الملاحدة ويخلص الناس من فسادهم . ويقول الجوزجاني أيضاً ان كلمات هذا القاضي كان لها اثر عميق في نفس منكو خان اذ نسب اليه الضعف والعجز لانه لم يستطع أن يستأصل شأفة هذه الطائفة التي تدين بدين يخالف ديانات المسيحيين والمسلمين والمغول ، وما ذلك الا لأنهم

استطاعوا أن يغروا منكو خان بالمال . بينما هم يتحينون فرصة ضعف دولته ، فيخرجون من الجبال والقلاع ليقضوا على البقية الباقية من المسلمين ويعفوا آثارهم.

هذا بعض ما حفظه المؤرخون من تحريض قاضي قضاة المسلمين (الامام العالم الكبير) على حد تعبير الجوزجاني . أما ما لم يحفظوه فلا شك انه شيء كثير ، كما انه من غير شك لم يكن الوحيد الذي كان يقوم بهذه المهمة «المقدسة» مهمة تحريض المغول على الاسماعيليين ، والصدفة وحدها جعلت اسمه يذكر وبعض أقواله تسجل .

وتدل أقواله وتصرفاته على أنه كان داهية دهاء يعرف كيف يصل الى قلب محدثه وعقله وكيف يستحوذ على عواطفه وشعوره . ثم انظر كيف استطاع ان يثير في نفس حفيد جنكيز خان ذكريات عدم توفق جده بالاستيلاء على قلاع الاسماعيليين ، حتى أدى الأمر الى ان يروي لنا المؤرخ الموقف على هذا الشكل «فرأى ـ منكو خان ـ ان بعض ممالك العالم قد دخل فعلا في حوزة جنكيز خان ، وبعضها لم يستخلص بعد» . ومن البديهي ان قلاع الاسماعيليين كانت ممن لم يستخلص بعد .

وتعقيباً على تحريض القاضي يقول صاحب جامع التواريخ «فاستقر رأي منكو خان على أن يعهد بكل طرف من المملكة الى واحد من اخوته ليخضعها تماماً لارادته» .

وكانت بلاد الاسماعيليين من نصيب هولاكو .

هذه هي قصة من قصص بداية الغزو المغولي للبلاد الاسلامية على يد هولاكو الذي انتهى الى ما انتهى اليه من الوصول الى بغداد وما جرى فيها من الفظائع والفجائع والأهوال .

لقد كان بعض المسلمين محرضين على هذا الغزو ، وكان بطل التحريض «قاضي القضاة الامام العالم الكبير» . واستطاع هذا القاضي أن ينجح في مسعاه، فقضى المغول على دولة الاسماعيليين ، ولكنهم قضوا في نفس الوقت على خلافة بغداد وأزالوا دولة العباسيين . وليتنا نعرف رأي القاضي المحرض بالنهاية التي وصل اليها العالم الاسلامي نتيجة تحريضه وخيانته . صحيح ان المغول كانوا يعدون العدة لغزو العالم الاسلامي سواء حرضهم القاضي أم لم يحرضهم ، ولكن الصحيح أيضاً ان «قاضي القضاة» كان من المحرضين المتحمسين لهذا الغزو وانه أعطاهم المبرر ورفع لهم الشعار وكان من أخلص الأعوان .

ومضى هولاكو بجيشه الجرار معلناً انه انما يمضي للتغلب على الاسماعيليين ، ولما وصل الى «كش» أقام مدة شهر ، ثم أرسل عدة رسل الى الملوك والسلاطين في ايران تشتمل على هذه العبارات «بناء على أمر القاآن قد عزمنا على تحطيم قلاع الملاحدة وازعاج تلك الطائفة . فاذا أسرعتم وساهمتم في تلك الحملة بالجيوش والآلات فسوف تبقى لكم ولايتكم وجيوشكم ومساكنكم وستحمد لكم مواقفكم . أما اذا تهاونتم في امتثال الأوامر وأهملتم فاننا حين نفرغ بقوة الله من أمر الملاحدة فاننا لا نقبل عذركم ونتوجه اليكم فيجري على ولاياتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى»[1] .

وهكذا نرى ان شعار الحملة المغولية كان تحطيم قلاع الاسماعيليين الذين استعار هولاكو من المسلمين لقبهم فسماهم هو الآخر «ملاحدة» . واحسب ان القارىء يشاركني العجب من الزمن الذي جعل وثنياً مثل هولاكو يسمي الاسماعيليين ملاحدة . ولم يكن عبثاً اصرار هولاكو على أن يعلن بأن شعار حملته هو القضاء على الاسماعيليين وتحطيم قلاعهم وازعاج تلك الطائفة ، فلولا انه كان يوقن بأن هذا الشعار يلقى صدى طيباً ، وانه اعلان لتلبية ما دُعي اليه

---

(١) جامع التواريخ .

وحرض عليه ، لما أكثر من ترداد هذا الشعار والتصريح به في كل مناسبة .

واحسب ان القارىء يشاركني العجب أيضاً من الزمن الذي أرانا وثنياً يتبجح بين المسلمين بأنه سيقضي على الاسماعيليين الذين لم يتمكن جده من القضاء عليهم ، يتبجح بذلك ممتناً به على المسلمين الذين دعاه بعضهم والحوا في دعوته ليبيد جماعة لو لم يكن لهم من الصفات الا أنهم مواطنون شركاء في الأرض التي يعيش عليها المسلمون لكان ذلك كافياً للغضب لهم والذود عنهم ، وكان مانعاً لمواطنيهم من أن يحرضوا عليهم الأجنبي الوثني .

الهجوم الأول على بغداد

وأول معركة دارت بين الجانبين كانت في سنة ٦٤٣هـ – ١٢٤٥م وقد أشار اليها رجل عاصر أحداثها بنفسه وهو عز الدين بن أبي الحديد المعتزلي حيث يقول في (شرح النهج ٦ / ٣٥٠) .

«ودخلت سنة ثلاثة وأربعين وستمائة فاتفق ان بعض أمراء بغداد وهو سليمان ابن برجم وهو مقــدم الطائفة المعروف بالايواء وهي من التركمان قتل شحنة من شحنهم في بعض قلاع الجبل يعرف بخليل بن بدر . فأدى قتله ان سار من تبريز عشرة آلاف غلام منهم يطوون المنــازل ويسبقون خبرهم . فلم يشعر النــاس ببغداد إلا وهم على البلد وذلــك في شهر ربيع الأول من هذه السنة في فصل الخريف .

وقــد كان الخليفة المستعصم بالله أخرج عسكره إلى ظـاهر سور بغداد على سبيل الاحتياط وكان التتر قد بلغهم ذلك إلا ان جواسيسهم غرتهم وأوقعت في آذانهم أنه ليس خارج السور إلا خيم وفساطيط مضروبة لا رجال تحتها . وانكم متى أشرفتم عليهم ملكتم سوادهم ويكون قصارى أمر قوم قليلين تحتها ان ينهزموا الى البلد ويعتصموا بجدرانه .

فأقبلت التتر على هــذا الظن وسارت على هـــذا الوهم فلما قربوا من بغداد وشارفوا الوصول الى المعسكر أخرج المستعصم بالله الخليفة مملوكه وقائد جيوشه «شرف الدين اقبالا الشرابي» الى ظــاهر السور وكان خروجه في ذلك اليوم من لطف الله تعالى بالمسلمين فان التتار لو وصلوا وهو بعد لم يخرج لاضطرب العسكر لانهم كانوا بغير قائد ولا زعيم بل كان كل واحـــد منهم أمير نفسه وآراؤهم

مختلفة لا يجمعهم رأي واحد ولا يحكم عليهم حاكم واحد فكانوا في مظنة الاختلاف والتفرق والاضطراب والتشتت فكان خروج شرف الدين اقبال الشرابي في اليوم السادس عشر من الشهر المذكور ووصلت التتر الى سور البلد في اليوم السابع عشر فوقفوا بازاء عساكر بغداد صفاً واحداً وترتب العسكر البغدادي ترتيباً منتظماً ورأى التتر من كثرتهم وجودة سلاحهم وعدد خيولهم ما لم يكونوا يظنونه ولا يحسبونه وانكشف ذلك الوهم الذي اوهمهم جواسيسهم عن الفساد والبطلان .

وكان مدبر أمر الدولة والوزارة في هذا الوقت هو الوزير مؤيد الدين «محمد ابن أحمد بن العلقمي» ولم يحضر الحرب بل كان ملازماً للخلافة بالحضرة لكنه كان يمد العسكر الاسلامي من آرائه وتدابيره بما ينتهون اليه ويقفون عنده .. فحملت التتار على عسكر بغداد حملات متتابعة ظنوا أن واحدة منها تهزمهم لأنهم قد اعتادوا انه لا يقف عسكر من العساكر بين أيديهم وأن الرعب والخوف منهم يكفي ويغني عن مباشرتهم الحرب بانفسهم فثبت لهم عسكر بغداد وأحسن الثبوت ورشقوهم بالسهام ورشقت التتار أيضاً بسهامها وأنزل الله سكينته على عسكر بغداد وأنزل بعد السكينة نصره فما زال العسكر البغدادي تظهر عليه امارات القوة وتظهر على التتار امارات الضعف والخذلان الى أن حجز الليل بين الفريقين ولم يصطدم الفيلقان وانما كانت مناوشات وحملات خفيفة لا تقتضي الاتصال والممازجة ورشق بالنشاب شديد فلما أظلم الليل أوقد التتار نيراناً عظيمة ووهموا انهم مقيمون عندها وارتحلوا في الليل راجعين الى جهة بلادهم فاصبح العسكر البغدادي فلم ير منهم عين ولا أثر .

وما زالوا يوطئون المنازل ويقطعون القرى عائدين حتى دخلوا «الدربند» ولحقوا ببلادهم . وأضاف ابن ابي الحديد قائلا :

«كتبت الى مؤيد الدين الوزير عقب هذه الواقعة التي نصر فيها الاسلام ورجع

التتر مخذولين ناكصين على أعقابهم ابياتا انسب اليه فيها الفتح واشير الى انه هو الذي قام بذلك وان لم يكن حاضراً له بنفسه واعتذر اليه عن الاغباب بمديحه فقد كانت الشواغل والقواطع تصد عن ذلك :

أبقى لنا الله الوزير وحاطه ... بكتائب من نصره ومقانب
وامتد وارف ظله لنزيله ... وصفت متون غديره للشارب
يا كالىء الاسلام اذ نزلت به ... فزعاء تشهق بالنجيع السالب
في خطة بهماء ديمومية ... لا يهتدي فيها السليك للاحب
فرجت غمرتها بقلب ثابت ... في حملة ذعرى ورأي ثاقب
ما غبت ذاك اليوم عن تدبيرها ... كم حاضر يحمى بسيف الغائب

موقف ابن العلقمي

رأينا فيما تقدم ان (الامام العالم الكبير) قاضي قضاة المسلمين شمس الدين القزويني كان المحرض الأول للمغول على العالم الاسلامي تعصبا منه على الاسماعيليين وانتقاماً من وجودهم سالمين في قلاعهم الحصينة . وبعض الناس ينسون هذا ولا يقفون عنده في حين انه جدير بالتوقف الطويل ، وخليق بان يركز عليه كلما كتب كاتب عن المغول ، فليس أفظع في تاريخ الامم من أن يكون إمام المسلمين وقاضي قضاتهم هوالمحرض للمغول، الصريح في تحريضه المغالي به. وليس من خيانة ثابتة في تاريخ الاسلام تعدل هذه الخيانة ، ولا من جريمة فيه تقاس بهذه الجريمة ، من حيث موضوعها ، مضافاً الى شخصية صاحبها وصفته الدينية .

ومع هذا يمرون بها مرور الكرام ولا يتعرض لها متعرض ويتمسكون بابن العلقمي تمسكا عجيباً ويهيمون في تمسكهم بالاختلاق والاختراع . وقد رأيت أن من أفضل ما كتب في هذا الموضوع هو ما كتبه الدكتور جعفر خصباك في كتابه (العراق في عهد الملوك الايلخانيين) لذلك اخذته لهذا الكتاب ، على اطنابه لانه اطناب في محله .

قال الدكتور جعفر خصباك :

يكاد المؤرخون يتفقون في الثناء على شخصية محمد بن أحمد بن العلقمي وزير المستعصم بالله آخر خلفاء بني العباس فقد وصفوه بالعقل والعلم والأدب والكفاية والوقار والنزاهة والعفة عن أموال الديوان والمعرفة بادوات الرياسة[1] . وقد

---

(١) : انظر تاج الدين السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٥ ص ١١٠ . ابن الطقطقي تاريخ الدول الاسلامية ص ٣٣٧ – ٣٣٨ .

وصفه سبط ابن الجوزي بانه (كان رجلافاضلا صالحاً عفيفاً قارئاً للقرآن)[١] . ووصفه الخزرجي بانه (كان عالماً فاضلا أديباً حسن المحاضرة دمث الاخلاق كريم الطباع خير النفس كارهاً للظلم خبيراً بتدبير الملك)[٢] . كان مؤيد الدين أسديا من السيل قيل لجده الملقمي لانه حفر النهر المعروف بهذا الاسم . وكان خـــاله عضد الدين ابو نصر المبـــارك بن الضحاك من المعدلين بمدينة السلام رتب ناظراً بديوان الجوالي و كتب في ديوان الانشاء ونفذ رسولا الى صـــاحب الشام وعندما توفي الخليفة العباسي الظـــاهر بامر الله بن الناصر لدين الله سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م كان هو المتولي لأخذ البيعة للخليفة الجديد المستنصر بالله وقد ظل في عهده استاذاً للدار حتى وفاته سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م[٣] . واشتغل محمد بن الملقمي في صبـــاه بالادب ففاق فيه وسمع الحديث واشتغل في الحلة على عميد الرؤساء أيوب وعاد الى بغداد وأقام عند خاله عضـــد الدين استـــاذ الدار الذي عرف بالعلم والرياسة والتجربة لتخلقه باخلاقه واستنابه في ديوان الأبنية الى أن توفي حيث انقطع ابن الملقمي ولزم داره ولكن شمس الدين ابا الازهر احمد بن الناقد الذي عين استاذاً للدار بعد عضد الدين استدعاه الى دار التشريفات وأمره بالتردد اليها ومشاركة النواب بها وعندما عزل المستنصر بالله وزيره ابن القمي سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣١م كان ابن الملقمي مشرفاً بدار التشريفات فعين بعد قليل استاذاً للدار مكان شمس الدين ابن الناقد الذي عين نائباً للوزارة[٤] وعندما توفي ابن الناقد سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م عـــين ابن الملقمي مكانه وظل يشغل منصب الوزارة حتى سقوط بغداد ومقتل الخليفة عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م . وقد عرف ابن الملقمي بحبه للعلم والادب ومعرفته

---

(١) : مرآة الزمان ، ج ٨ قسم ٢ ص ٧٤٧ .

(٢) : العسجد المسبوك ، ج ٢ الورقة ١٩٤

(٣) : الحوادث الجامعة ، ص ١٦ .

(٤) : ن . م . ص ٣٥ ، خـــلاصة الذهب المسبوك ، ص ٢١١ ، العسجد المسبوك ج ٢ الورقة ١٩٤ .

باللغة وكانت له مقدرة على نظم الشعر وكتابة النثر الجيد الحسن . وقد أنشأ لنفسه مكتبة في داره في ٦٤٤هـ/١٢٤٦م نقل اليها عدداً كبيراً من الكتب من أنواع العلوم وصفها العدل موفق الدين القاسم بن أبي الحديد بابيات أولها :

رأيت الخزانة قد زينت بكتب لها المنظر الهائل[1]

وذكر علي ابن أخت الوزير المذكور انها كانت تشتمل على عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب وقد صنفت للوزير كتب منها العباب الذي وضعه الصفاني اللغوي وشرح نهج البلاغة لعز الدين عبد الحميد ابن أبي الحديد[2] .

ومع ذلك فقد وجه كثير من المؤرخين المسلمين الى الوزير مؤيد الدين بن العلقمي تهمة في غاية الخطورة خلاصتها أنه خان سيده الخليفة المستعصم بالله ودينه الاسلام وجلب على قومه القتل والذل والخراب بمكاتبة هولاكو طاغية التتار وإطماعه بفتح العراق بل دعوته لذلك وتهيئة الامور له باساليب متعددة منها اشارته على الخليفة بتسريح أكثر جنوده وتشجيعه على عدم انفاق المال في سبيل الاستعداد العسكري وتهوين امر المغول امامه ودعوته للخروج لمواجهة هولاكو حينما أحاط هذا ببغداد للتغرير به بحجة حضور عقد نكاح ابنة هولاكو لابن الخليفة وسبب ذلك ان الوزير كان شيعياً رافضياً وانه كان يريد الانتقام من أهل السنة خصوصاً طائفة من مستشاري الخليفة كابنه ابي بكر وقائد عسكره مجاهد الدين الدويدار الصغير لانهم أوقعوا بمحلة الكرخ الشيعية سنة ٦٥٤هـ وقتلوا العديد من أهلها وسبوا نساءها ونهبوا دورها وكان في المحلة أقارب للوزير .

ولعل من المفيد أن نستعرض أهم ما ورد من أقوال المؤرخين في هذه التهمة الخطيرة : قال أبو شامة شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المتوفى سنة ٦٦٥هـ ١٢٦٢م عن حوادث سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م أن التتار استولوا على بغداد بمكيدة

---

(١) : الحوادث الجامعة . ص ٢٠٩ .

(٢) : ابن الطقطقي ، ص ٣٣٧ .

دبرت مع وزير الخليفة[١] . وأعـاد قطب الدين اليونيني البعلبكي المتوفى سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٥م نفس العبارة ثم أضاف اليها قوله أن هولاكو تهيأ في سنة أربع وخمسين وستمائة لقصد العراق وسبب ذلك أن (مؤيدالدين بن العلقمي وزيرالخليفة كان رافضياً وأهل الكرخ روافض وفيه جماعة من الاشراف والفتن لا تزال بينهم وبين أهل باب البصرة فاتفق انه وقع بين الفريقين محاربة فشكا أهل باب البصرة وهم سنية الى ركن الدين الدوايدار والامير أبي بكر بن الخليفـة فتقدما الى الجند بنهب الكرخ فهجموا ونهبوا وقتلوا وارتكبوا العظائم فشكا أهل الكرخ ذلك الى الوزير فأمرهم بالكف والتغاضي وأضمر هـذا الامر في نفسه وحصل بسبب ذلك عنده الضغن على الخليفة) وبعد أن أشار اليونيني الى الخليفة المستنصر بالله وحال الجند في عهده ، عاد الى ابنه المستعصم وقال : (وكاتب الوزير ابن العلقمي التتر واطمعهم في البلاد وأرسل اليهم غلامه وأخاه وسهل عليهم ملك العراق وطلب منهم أن يكون نائبهم في البلاد فوعدوه بذلك وأخذوا في التجهيز لقصد العراق وكاتبوا بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل في أن يسيّر اليهم ما يطلبونه من آلات الحرب فسير اليهم ذلك ولما تحقق قصدهم علم انهم ان ملكوا العراق لا يبقون عليه فكاتب الخليفة سراً في التحذير منهم وانه يعد لحربهم فكان الوزير لا يوصل رسله الى الخليفة ومن وصل الى الخليفة منهم بغير علم الوزير أطلع الخليفة وزيره على أمره) . ثم يمضي اليونيني فيصف تقـدم جيش هولاكو الى بغـداد وهزيمته لعسكرها وأحاطته بها ثم يعود فيقول : (فحينئذ أشار ابن العلقمي الوزير على الخليفة بمصانعة ملك التتر ومصالحته وسأله ان يخرج اليه في تقرير ابنته من ابنك الامير أبي بكر ويبقيك في منصب الخلافة كما أبقى سلطان الروم في سلطنة الروم لايؤثر الا ان تكون الطاعة له كما كان أجدادك مع السلاطين السلجوقية وينصرف بعساكره عنك فتجيبه الى هذا فانه فيه حقن دماء المسلمين ويمكن بعد ذلك أن يفعل ما تريد فحسن له الخروج اليه فخرج في جمع من أكابر الصحابة فانزل في خيمة ثم

(١) : تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، ص ١٩٨ .

دخل الوزير فاستدعى الفقهاء والاماثل ليحضروا عقد النكاح فيما أظهره فخرجوا فقتلوا وكذلك صار يخرج طائفة بعد طائفة[١] . وقال شمس الدين الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م في كلامه عن وقائع سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ما يأتي : (وأما بغداد فضعف دست الخلافة وقطعوا أخبار الجند الذين استجدهم المستنصر وانقطع ركب العراق . كل ذلك من عمل الوزير ابن العلقمي الرافضي جهد في أن يزيل دولة بني العباس ويقيم علويا وأخذ يكاتب التتار ويراسلونه والخليفة غافل لا يطلع على الامور ولا له حرص على المصلحة[٢] . وقال عبد الله بن فضل الشيرازي الذي الف كتابه حوالي ٧٢٩هـ/١٣٢٨م ما معناه أن الخليفة المستعصم بالله كان منصرفاً الى الراحة واللهو وكان وزيره ابن العلقمي مستبداً بالامور حتى انه لم يكن يحترم المقربين الى الخليفة ولا يظهر تأدباً في مخاطبته اياهم وقد تغيرت نيته ازاء الخليفة بسبب واقعة الكرخ لان ابن الخليفة ارسل جنوداً أغاروا عليها وأسروا البنين والبنات وبينهم العلويات فبعث ابن العلقمي لذلك رسالة الى تاج الدين محمد بن نصر الحسيني أحد سادات العصر وعندما فرغ البادشاه هولاكو سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م من فتح قلاع الملاحدة وأرسل بالرسل يبشرون بالنصر في المشارق والمغارب ارسل ابن العلقمي في الخفاء رسولاً الى هولاكو أظهر الاخلاص والطاعة وزين مملكة بغداد في خاطره وذم الخليفة وقال لهولاكو انه اذا توجه بسرعة فسوف تسلم له مملكة بغداد ولكن هذا لم يعتمد على قوله لان حصانة بغداد وكثرة جنودها كانت أمراً مشهوراً في الاقاليم السبعة وكان ملك العالم اوغوتاي في أول جلوسه على العرش قد أرسل القائد جرماغون بجيش فناك فهزم من قبل الخليفة المستنصر بالله ولذلك فان البادشاه طلب من رسول ابن العلقمي ما يؤكد صحة أقواله ليطمئن بذلك خاطره الشريف . وعندما زحفت جيوش هولاكو على بغداد واطمأن ابن العلقمي لنجاح مكيدته قال للخليفة ان الجم الغفير من

---

(١) : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ص ٨٥ – ٨٩ .

(٢) : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

سلاطين وملوك الاطراف اظهروا والحمد لله اخلاصهم وطاعتهم وسمعة الخليفة كبيرة وحكمه نافذ وماله كثير فمن الخير توفير اموال الخزينة وعدم صرفها على الجند فكان الخليفةمنصرفا لسماع الاغاني والاجتماع بالجواري والمغنيات وابن العلقمي يفرق الكلمة ويشرد جميع الافراد وينفر الجنود في الوقت الذي انتشرت فيه أخبار جيش المغول وكان الشرابي والدوايدار يحذرون الخليفة منه وابن العلقمي يسخف اقوالهم[١] . وقال ابن شاكر الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ م في كلامه عن الوزير ابن العلقمي : (ولم يزل ناصحاً لاصحابه واستاذه حتى وقع بينه وبين الدوايدار لانه كان متغاليا في السنة وعنده ابن الخليفة فحصل عنده من الضغن ما اوجب سعيه في دمار الاسلام وخراب بغداد على ماهو مشهور لانه ضعف جانبه وقويت شوكة التتار بحاشية الخليفة . . واخذ يكاتب التتار الى ان جرأ هولاكو وجره على اخذ بغداد) [٢] وقال عنه ايضا (وحكي انه لما كان يكاتب التتار تحيل انه اخذ رجلا وحلق رأسه حلقا بليغاً وكتب ما اراد عليه بالابر ونفض عليه الكحل وتركه عنده الى ان طلع عليه شعره وغطى ما كتبه فجهزه وقال: اذا وصلت أمرهم بحلق رأسك ودعهم يقرؤون ما فيه . وكان في آخر الكلام « اقطعوا الورقة » فضربت عنقه . وهذا في غاية المكر والخزي) [٣] . وقال تاج الدين السبكي المتوفى سنة ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م انه لما توفي المستنصر بالله كان اكبر الامراء واعظمهم الدوايدار والشرابي وهم الذين اقروا المستعصم لضعفه ولينه واقاموه واستوزروا ابن العلقمي (وكان فاضلا أديباً وكان شيعياً رافضياً في قلبه غل على الأسلام واهله وحبب الى الخليفة جمع المال والتقليل من العساكر فصار الجنود يطلبون من يستخدمهم في حمل القاذورات ثم كرر الكاتب المذكور رواية مكاتبة ابن العلقمي للتتار وعزا ذلك الى رغبته في الانتقام من الأمير ابي بكر ابن

---

(١) تاريخ وصاف الحضرة (طبعة الهند) ج١ ص ٢٧ — ٢٨ .

(٢) فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٣١٣ .

(٣) ن . م . ص ٣١٥ .

ابن الخليفة والدوايدار قائد الخليفة لأنهما أوقعا بالكرخ ووصف طريقة مكاتبة التتار بما يأتي : « انه حلق رأس شخص وكتب عليه بالسواد وعمل على ذلك واصار المكتوب كل حرف كالحفرة في الرأس ثم تركه عنده حتى طلع شعره وارسله اليهم » واضاف السبكي الى ذلك قوله ان الوزير كتب الى نائب الخليفة في اربيل تاج الدين محمد بن الصلايا وهو شيعي ايضا رسالة يقول فيها : (نهب الكرخ المكرم والعترة النبوية وحسن التمثيل بقول الشاعر :

امور تضحك السفهاء منها ويبكي من عواقبها اللبيب

فلهم اسوة بالحسين حين نهب حريمه واريق دمه .

امرتهم امري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد الا ضحى الغد

وقد عزموا لا أتم الله عزمهم ولا انفذ امرهم على نهب الحلة والنيل بل سولت لهم انفسهم أمرا فصبر جميل والخادم قد اسلف الانذار وعجل لهم الاعتذار .

فكان جوابي بعد خطابي لابد من الشنيعة بعد قتل جميع الشيعة ومن احرق كتاب الوسيلة والذريعة فكن لما نقول سميعا والا جرعناك الحمام ولنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ولنخرجنهم منها اذلة وهم صاغرون .

ووديعة مني لآل محمد اودعتها اذ كنت من امنائها
فاذا رأيت الكوكبين تقاربا في الجدي عند صباحها ومسائها
فهناك يؤخذ ثأر آل محمد لطلابها بالترك من اعدائها

فكن لهذا الامر بالمرصاد وترقب اول النحل وآخر الصاد) [١] .

وقال عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ/١٤٠٦م ان هولاكو لما رجع الى بلاد الاسماعيلية وقصد قلعة ألموت بلغته (في طريقه وصية من ابن

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى : ج ٥ ص ١٠٩ – ١١٢ .

العلقمي وزير المستعصم ببغداد في كتاب ابن الصلايا صاحب اربيل يستحثه للمسير الى بغداد ويسهل عليه امرها لما كان ابن العلقمي رافضيا هو وأهل محلته بالكرخ وتعصب عليه اهل السنة وتمسكوا بان الخليفة والدوايدار يظاهرونهم واوقعوا باهل الكرخ وغضب ابن العلقمي ودس الى ابن الصلايا باربيل وكان صديقا له بان يستحث التتر لملك بغداد واسقط عامة الجند) [١] .

وعندما نصل الى اواخر القرن العاشر الهجري نجد ان قصة سقوط بغداد وخيانة الوزير ابن العلقمي تتسع الى حد غير معقول وتختلط باقاصيص غريبة على يد الشيخ حسن الديار بكري المتوفى سنة ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م حيث كتب يقول ان الوزير (ابن العلقمي الرافضي كان قد كتب الى هولاكو ملك التتار في الدست انك تحضر الى بغداد وانا اسلمها لك وكان قد داخل قلب اللعين الكفر فكتب هولاكو ان عساكر بغداد كثيرة فان كنت صادقا فيما قلته وداخلا في طاعتنا فرّق عساكر بغداد ونحن نحضر فلما وصل كتابه الى الوزير ودخل الى المستعصم وقال ان جندك كثيرة وعليك كلفة كبيرة والعدو قد رجع من بلاد العجم والصواب انه تعطي دستورا لخمسة عشر الف من عسكرك وتوفر معلومهم فأجاب المستعصم لذلك فخرج الوزير لوقته ومحا اسم من ذكر من الديوان ثم نفاهم من بغداد ومنعهم من الاقامة بها ثم بعد شهر فعل مثل فعلته الأولى ومحا إسم عشرين ألفاً من الديوان ثم كتب الى هولاكو بما فعل وكان قصد الوزير بمجيء هولاكو اشياء منها انه كان رافضيا خبيثا واراد ان ينقل الخلافة من بني العباس الى العلويين فلم يتم له ذلك من عظم شوكة بني العباس وعساكرهم ففكر ان هولاكو قد يقتل المستعصم وأتباعه ثم يعود لحال سبيله وقد زالت شوكة بني العباس وقد بقي هو على ما كان عليه من العظمة والعساكر وتدبير المملكة فيقوم عند ذلك بدعوة العلويين الرافضة من غير ممانع لضعف العساكر ولقوته ثم يضع السيف في اهل السنة فهذا كان قصده لعنه الله ولما بلغ هولاكو ما فعل الوزير ببغداد ركب وقصدها الى ان نزل عليها وصار

---

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر : ج ٥ ص ١١٤٩ .

المستعصم يستدعي العساكر ويتجهز لحرب هولاكو وقد اجتمع اهل بغداد وتحالفوا على قتال هولاكو وخرجوا الى ظاهر بغداد ومضى عليهم بعساكره فقاتلوا قتالا شديدا وصبر كل من الطائفتين صبرا عظيما وكثرت الجراحات والقتلى في الفريقين الى ان نصر الله تعالى عساكر بغداد وانكسر هولاكو اقبح كسرة وساق المسلمون خلفهم واسروا منهم جماعة وعادوا بالاسرى ورؤوس القتلى الى ظاهر بغداد ونزلوا بخيمهم مطمئنين بهروب العدو فارسل الوزير ابن العلقمي في تلك الليلة جماعة من اصحابه فقطعوا شط دجلة فخرج ماؤها على عساكر بغداد وهم نائمون فغرقت مواشيهم وخيامهم واموالهم وصار السعيد منهم من لقي فرسا يركبها وكان الوزير قد ارسل الى هولاكو يعرّفه بما فعل ويامره بالرجوع الى بغداد فرجعت عساكره على بغداد وبذلوا فيها السيف[١]. وأضاف هذا الكاتب رواية جديدة عن مصير ابن العلقمي بقوله : (فلم يلبث ان امسكه هولاكو بعد قتل المستعصم بايام ووبخه بالفاظ شنيعة معناها انه لم يكن له خير في مخدومه ولا دينه فكيف يكون له خير في هولاكو ثم انه قتله شر قتلة)[٢] .

هذه هي خلاصة النصوص التي وردت باتهام الوزير مؤيد الدين بن العلقمي ومثل هذه التهم ليست غريبة في ايام المحن العامة والكوارث الخطيرة وقد كان سقوط بغداد بايدي المغول الوثنيين وقتلهم خليفة المسلمين حدثا عظيما هز العالم الاسلامي وترك جرحا عميقا في قلوب المسلمين جعلهم يفتشون عمن كان السبب فيه وكان الوزير شيعيا في وقت كان للدين فيه سيطرة عظيمة على النفوس والمنازعات الطائفية شديدة في بغداد ، وكان يحتل اسمياً المنصب الثاني في دولة

---

(١) الشيخ حسن بن محمد بن الحسن الديار بكري ، تاريخ الخميس في أحوال انفس نفيس ، ج٢ ص ٤٢٠ – ٤٢١ .

(٢) – ن. م. ص ٤٢١ .

الخليفة واعداؤه يتربصون به الدوائر والاحوال العـــامة في تدهور والمغول يطرقون ابواب البلاد دون ان يكون امامهم استعداد عسكري واضح وقد قتل الخليفة واستبيحت بغداد فلم يقتل الوزير بل انه كان احد جماعة عهد اليهم اعادة تنظيم ادارة العراق فلم لاتوجه اليه التهمة وقد جمع اليه الخيانة من اطرافهـــا كما يبدو ذلك لاول وهلة . وقد سبق للخليفة النـــاصر لدين الله ان اتهمه خصومه بخيانة تشبه ماوجه لابن العلقمي ولكنها اعظم خطرا واورد ياقوت الحموي اشاعة كانت تتردد في عهده هي ان علويا كان مقدما على احد ابواب نيسابور قـــاعدة خراسان ، راسل المغول خلال غزوهم هذا الاقليم ، يتعهد فيه بتسليم البلد اليهم مقابل جعله متقدما عليه فاجابوه الى ذلك وعندما فتحوا المدينة المذكورة كان هو اول من قتلوهم فيها [1] . وقد ادت بنا دراساتنا للتهمة الموجهة للوزير ابن العلقمي بعد قراءة المصادر التي اوردتهـا وتفهم طبيعة الغزو المغولي منذ بدايته واحوال العراق والعالم الاسلامي المعاصر ، الى رفضها بناء على الاسباب التالية :

اولا : ان التهمة تحدد البداية التاريخية لخيانة ابن العلقمي بمراسلته هولاكو بعد استباحة محلة الكرخ الشيعية سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م خصوصاً بعد فراغ الفاتح المذكور من فتح قلاع الاسماعيلية او خلال محاصرته لها في السنة المشار اليهـــا ولكن الحقيقـــة هي غير ذلك لان هولاكو كان يسير الى غزو العراق قبل هذا التاريخ ببضعة سنين وانه كان يعمل طبقا لاوامر عليا صدرت اليه قبل وصوله بلاد الاسماعيلية اي قبل وقوع حادثة الكرخ .

ولعل الامر يتضح بدارسة النقاط الآتية :

أ ــ كان غزو العراق امرا تتضمنه طبيعة الغزو المغولي الذي كان يستهدف السيطرة على العالم وقد استولى المغول فعلا على اكثر الصين واواسط آسيا وايران

---

(١) معجم البلدان ج ٥ ص ٣٣٢ .

واوربا الشرقية وبقيت بلاد الاسماعيلية والعراق وسورية ومصر جيباً جغرافياً وعسكرياً كان لابد من الاستيلاء عليه وهذا ما قام به هولاكو واذا كان العراق قد سقط بايدي المغول نتيجة لخيانة وزيره ابن العلقمي فكيف نفسر سقوط كل هذه البلاد الممتدة من المحيط الهادي الى اواسط اوربا ومن هم الخونة الذين سلموها الى الاعداء ثم كيف نفسر احتلال هولاكو لسورية واستعداده للزحف على مصر.

ب – ربما تلقي ضوء على رغبة المغول في ضم العراق الى منطقة نفوذهم قبل سنين عديدة من استيلائهم الفعلي عليه ، المقابلة التي جرت بين الامبراطور كيوك خان بمناسبة تنصيبه على العرش المغولي سنة ٦٤٤ هـ/١٢٣٦ م ورسول الخليفة حيث هدد الخان ذلك الرسول موعدا ومنذرا .

جـ – ان زحف هولاكو على العراق واحتلاله اياه انما تم بناء على اوامر عليا اصدرها امبراطور المغول مانغوخان سنة ٦٥١ هـ/١٢٥٣م بفتح البلاد الغربية التي ضمنها العراق وسورية ومصر يؤيد ذلك التقرير الذي رفعه (جـانع ته) الذي ارسله (مانغوخان) الى اخيه هولاكو ودونه احد الصينيين المسمى (ليو) المتصلين بالسفير المذكور وما ورد في كتاب التاريخ الصيني للاسرة المغولية التي حكمت الصين والذي امر بوضعه احد اباطرة الصين وتم اعداده سنة ٧٧٢ هـ/١٢٧٠ م وقد ورد في كلا المصدرين ان مانغوخان امر اخاه هولاكو سنة ٦٥١ هـ/١٢٥٣م بالزحف لاحتلال البلاد الغربية واخضـاع خليفة بغداد [١] . وقد سبق هذا التاريخ حـادثة الكرخ بثلاث سنوات على اقل تقدير وقد ايد ذلك ابن العبري [٢] والكتاب الموسوم بالحوادث الجـامعة [٣] ورشيد الدين فضل الله [٤]

---

(١) E. Bretchneider, Medieval Reserches from Eastern Asiatic Sources, I.P. 109, 121.

يحدد عطا ملك الجويني بداية تفكير مانغو خان بفتح هذه البلاد بسنة ٦٤٩هـ/١٢٥١

(٢) تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٦٣ .

(٣) ص ٢٦٧ .

(٤) جامع التواريخ ، ج ٢ قسم ١ (النسخة المترجمة) ص٢٣٨ ، انظر النص الفارسي ، ج ٢ ص ٦٨٧ .

ثانيا : ان القول بان الوزير كان يسيطر على الخليفة تماما بحيث انه كان يمنع الرسل الذين يحذرونه من خطر المغول، مردود لان الادلة تشير الى ان الوزير كان ضعيفا غير مسموع القول وليس له نفوذ على الخليفة الذي كان واقعاً تحت نفوذ اعداء الوزير وخصوصا مجاهد الدين الدويدار الصغير الشركسي الذي كان قائدا للجيش والدليل على ذلك ماياتي :

(أ) : ان الخليفة لم يعهد بالوزارة الى ابن العلقمي سنة ٦٤٢ هـ/ ١٢٤٤ م الا بعد ان عرضها على مربيه صدر الدين ابن المظفر علي بن محمد النسيار شيخ الشيوخ فامتنع عليه [١] .

(ب): ان استباحة محلة الكرخ سنة ٦٥٤ هـ/ ١٢٥٦ م انما تمت نتيجة لأوامر الخليفة القاضية بكف الشقي الكرخي الذي قتل أحد سكان محلة (قطفتا) السنية كما ان ايقاف الاستباحة بعد ان افلت زمام الامور من يد الحكومة بتسلط الغوغاء واهل الفوضى انما صدر من قبل الخليفة ايضا وكان في محلة الكرخ اقارب للوزير فلو كان له اي نفوذ في الدولة وهو بمنصب وزير وهو يقابل رئيس الوزراء في عصرنا، لمنع استباحة المحلة المذكورة او لاوقفها عند حدها حفظا لاقاربه على الاقل [٢] .

(ج) : في الخلاف الذي وقع بين الوزير والدويدار الصغير قائد الجيش ، لم يأخذ الخليفة برأي الوزير بل انه صفح عن الدويدار مع عظم التهمة التي نسبت اليه [٣] .

(د) : ان هولاكو كان يراسل الخليفة ويطلب منه نجدة وينذره بالقدوم اليه منذ ان كان يحاصر قلاع الاسماعيلية وكان الخليفة يستشير الوزير والدويدار وغيره من افراد حاشيته وخواصه ، وكانت نصائح الوزير معقولة تدل على تفهم لطبيعة الخطر المغولي من جهة واحوال العراق من جهة اخرى ولم تكن تتضمن تغريرا

---

(١) العسجد المسبوك ، ج ٢ الورقة ١٩٣ .

(٢) انظر في حوادث استباحة الكرخ ص ٢٣ .

(٣) انظر موقف الوزير .

بالخليفة ولا تآمرا عليه ولكن الخليفة كان يهمل نصائح الوزير ويأخذ برأي خصومه خصوصا الدويدار الصغير[١] .

(هـ): وفيما يتعلق بمنع الوزير للرسل من الوصول الى الخليفة ان الادلة لاتؤيد ذلك لان الخطر المغولي كان يهدد العراق منذ ايام الخليفة الناصر لدين الله اي منذ ان كان المستعصم بالله صبيا صغيرا وقد استمر ايام الظاهر لدين الله والمستنصر بالله وامره ذائع معروف واخباره يعرفها الخاص والعام والمعروف ان المستشارين ايام الخطر العسكري هم العسكريون لا المدنيون ولم يكن الوزير عسكريا ، فكيف يعتمد عليه الخليفة دون قواد الجيش وامرائه ، وقد قدمنا ان الوزير لم يكن صاحب نفوذ على الخليفة بل ان النفوذ الحقيقي كان بايدي الفئة العسكرية وعلى رأسها الدويدار الصغير عدو الوزير ، ثم كيف كان يستطيع الوزير ان يمنع الرسل من الوصول الى الخليفة وهل كان يلقي بهم في السجن وما هي الأمثلة على ذلك واذا كان يفعل هذا فهل كان يستطيع منع افراد العائلة العباسية من تحذير الخليفة او الوقوف بين رجال الدولة الآخرين كصاحب الديوان وعارض الجيش والنقباء والمحتسب وغيرهم واخبار الخليفة بحقيقة الأمر . ولو صحت هذه التهمة على الوزير لكان معناها انه كان يترأس مؤامرة كبرى يشترك فيها اكثر رجال الحكومة لكن المصادر التاريخية تبين ان المراسلات كانت قائمة بين هولاكو والخليفة فعلا وانها لم تكن سرية لان الخليفة كان يستشير فيها حكومته وان الخليفة ارسل ابن الجوزي الى هولاكو وان هذا الرسول كان مخلصا للخليفة بدليل ان هولاكو قتله بعد فتح بغداد[٢] .

ثالثا: اما عن تآمر الوزير مع المغول لينصب علويا خليفة للمسلمين بدلا من المستعصم

---

(١) انظر موقف الوزير .

(٢) انظر حوادث الجامعة ص ٣٢٨ .

بالله فهو امر مردود ايضا لان علاقة العلويين بالعباسيين كانت طيبة في هذه الفترة. وقد عرض المستنصر بالله على رضي الدين ابي القاسم علي بن موسى بن طاووس (ت ٦٦٤ هـ/ ١٢٦٥ م) ان يذهب رسولا الى سلطان التتر فرفض ذلك وعرض عليه ان يكون وزيراً ولكنه رفض ايضا [١] . وقد قتل المغول الفاتحون العديد من العلويين ومنهم السيد شرف الدين بن الصدر العلوي وكان محترما في الدولة العباسية وروسل به الملوك وقد قتلوا نقيب العلويين علي بن النقيب الحسن بن المختار وعمر بن عبد الله بن المختار العلوي حاجب باب المراتب كما قتلوا نقيب مشهد موسى الكاظم [٢] واحرقوا المشهد نفسه . يضاف الى ذلك كيف يرضى العلويون بتنصيب احدهم خليفة للمسلمين من قبل المغول الوثنيين وهل كان الوزير يستطيع تدبير مثل هذا الامر الخطير بدون استشارة كبار العلويين فمن هم هؤلاء ؟ اما اتهام الوزير بانه كان يعمل على اطماع المغول بالعراق ليكون نائبا لهم فهو مردود لانه — اي الوزير — كان يشغل منصب الوزارة في دولة الخليفة وليس هناك مايدل انه كان سيمنح منصبا اعلى من ذلك.

رابعا : اختلفت الروايات التي تعين رسل الوزير الى هولاكو فمنهم من قال انه ارسل اخاه ومنهم من قال انه ارسل غلامه ومنهم من قال انه راسل هولاكو بواسطة ابن الصلايا العلوي صدر اربيل يضاف الى ذلك اننا نلاحظ ما ياتي :

(أ) : ان كل ما قيل عن رسل الوزير انما كان مجرد ترديد لاشاعات لا تستند الى أي دليل فليس هناك حتى من ادعى أنه رأى رسل ابن العلقمي الى هولاكو وقبض عليهم او تحدث معهم اوشهدهم يدخلون على هولاكو .

(ب) : ان هولاكو في مراسلاته مع الخليفة طلب مواجهة عدد من كبار رجال

---

(١) رضي الدين علي بن موسى بن طاووس ، كشف الحجة لثمرة المهجة ، ص ١١٣ — ١١٤ .

(٢) العسجد المسبوك ، ج٢ ، الاوراق ١٩٢ ، ١٩٣ .

الدولة العباسية ولكنه لم يقصر طلبه على الوزير وحده في اية مرة من المرات وكان من المعقول ان يفعل ذلك لو كانت هناك اتصالات سرية بينهما .

(ج) : ان ابن الصلايا العلوي الذي تزعم بعض المصادر انه كان صلة بين الوزير وهولاكو لا يمكن ان يكون قد قام بالعمل الخياني هذا لانه احد الناس الذين امر هولاكو بقتلهم[١] .

خامسا : ان الوضع والتكلف يتضحان من نصوص الروايات التي تتهم الوزير فهو يحلق رأس رسوله ويكتب عليه بالابر اويجعل الكتابة على رأسه كل حرف كالحفرة وهو يخرج الى هولاكو ليتوثق لنفسه ثم يعود الى الخليفة ليبلغه ان هولاكو يرغب بزواج ابنته من ابن الخليفة وان الاصلح الخروج مع اعيان الدولة لحضور عقد النكاح في وقت كان فيه الجيش المغولي يحيط ببغداد ويضربهـا بالمنجنيق . والمعروف ان هولاكو لم يجلب معه احدى بنـاته عند زحفه على العراق . وهو يبعث الى ابن الصلايا العلوي رسالة متكلفة في اسلوبها وافكارهـا مثل : (فكان جوابي بعد خطابي لا بد من الشنيعة بعد قتل الشيعة .. الخ) ومثل : (فكن لهذا الامر بالمرصاد وترقب اول النحل وآخر الصاد) وغير ذلك...

سادسا : ان الزعم بان الخلفاء السابقين للمستعصم بالله وخصوصـا المستنصر بالله كانوا يتخذون جيوشا كبيرة وان الوزير ابن العلقمي عمل على صرفها وتفريقها ليسهل امام هولاكو غزو العراق امر مردود للسببين التاليين :

(أ) : ليس هناك دليل يؤيد اتخاذ اولئك الخلفاء جيوشا كبيرة بل يبدو ان العكس هو الصحيح فجيش الناصر لدين الله وهو اكثر الخلفاء العباسيين اهتمامـا بالامور العسكرية ورغبة في التوسع، لم يستطع الوقوف امام الخوارزميين ومنهم السلطان جلال الدين منكوبرتي الذي لم يستطع بدوره الوقوف امام المغول لانهم هزموه وشردوه فكيف يستطيع الجيش العباسي وحده الوقوف امامهم.

---

(١) الحوادث الجامعة ، ص ٣٢٧ .

يضاف الى ذلك ان غزوات المغول للعراق تكررت ايام المستنصر بالله وكان الخوف منهم يسيطر على البلاد ولو كان لدى الخليفة جيش كبير لهاجم المغول في قواعدهم وهي ايران مع انهم لم يكونوا في عهده على ما وصفهم استاذ داره غير (سرايا متفرقة وغارات متفقة)[1] ولكن قوات الخليفة التي وقفت لمحاربتهم كانت ضعيفة وقليلة العدد .

(ب) : كيف يستطيع الوزير اقناع الخليفة بصرف اكثر جنوده والاكتفاء بالقليل منهم في وقت كان الخطر المغولي يهدد الدولة العباسية والعراق وكان للخليفة مستشارون عسكريون على رأسهم الدويدار الصغير عدو الوزير ؟؟ .

سابعا : هناك مصادر مهمة لم ترد فيها اية اشارة الى خيانة الوزير مثل كتاب (جهانكشاي) لعطا ملك الجويني الذي هو احد المصادر الرئيسة في تاريخ المغول وقد سرد الاحداث الى نهاية احتلال جيش هولاكو لقلاع الاسماعيلية وتدميره لدولتهم والمفروض ان مراسلات الوزير مع هولاكو اذا جرت ايام تلك الاحداث ولم يشر عطا ملك الجويني الى اية مراسلات من هذا النوع مع انه كان شديد الصلة بهولاكو وكان في رفقته عند زحفه على بغداد في حين انه ـ اي الجويني ـ اورد التهمة المنسوبة الى الناصر لدين الله من انه راسل ملوك الخطا . ولم ترد التهمة كذلك في الرسالة المنسوبة الى نصير الدين الطوسي (ت ٦٧٢ هـ/١٢٧٣ م) وقد رافق هولاكو الى بغداد وكان كبير الاطلاع على خفايا الامور. ولا يذكرها عبد الرحمن سنبط بن قنيتو الاربلي في كتابه (الذهب المسبوك) مع انه عراقي معاصر للحوادث ولا يذكرها كذلك ابو الفرج بن العبري في كتابه (تاريخ مختصر الدول) مع انه معاصر اتصل بالمغول وعرف اخبارهم بينما يرفض التهمة ابن الطقطقي (وضع كتابه سنة ٧٠١ هـ (١٢٣٠م) وفوق كل هذا يفصل رشيد الدين فضل الله احداث الفتح ويشير الى التهمة بان مصدرها الدويدار الصغير عدو

---

(١) كشف الحجة لثمرة المهجة، ص١٤٧ ــ ١٤٨ .

الوزير . ورشيد الدين مؤرخ عرف بصلته الشديدة بسلاطين المغول واخبارهم وتاريخ شعوبهم وقد اطلع على المصادر الاسلامية والمغولية ولم تكن له اية مصلحة في الدفاع عن الوزير [١] . ولا حجة لمن يقول ان هذه المصادر كتبت في ظل المغول وتحت ضغطهم لان عبد الله بن فضل الله الشيرازي الذي عرف بوصّاف الحضرة لمدحه سلطان المغول الايلخاني محمد خدابنده ، شدد التهمة على الوزير وقدم كتابه الى السلطان المذكور . كما لم يردنا من الاخبار ما يفيد ان حكام المغول كانوا يامرون الكتاب والمؤلفين بالدفاع عن الوزير بل هناك من المصادر الاسلامية من يزعم ان هولاكو قتل الوزير ابن العلقمي لانه خان مخدومه الخليفة ولم ترد التهمة في كتاب ابن الفوطي البغدادي تلخيص مجمع الاداب وهو معاصر كبير الاطلاع .

ثامنا : ان سلامة شخص الوزير وداره ومشاركته في اللجنة التي اعادت تنظيم بغداد والعراق بعد الفتح لاتقوم حجة على خيانته لان صاحب ديوان الخليفة المستعصم بالله اي وزير ماليته وحاجب الباب في عهده اى مدير شرطة العاصمة قد عوملوا بنفس المعاملة كما سلم اقرب مستشاري الخليفة اليه صديقه عبد الغني بن الدرنوس وسلم الابن الاصغر للخليفة مع اخواته فاطمة وخديجة ومريم [٢] وقد كان هولاكو بحاجة الى من يدبر امر العراق بعد فتحه وكان الوزير وصاحب الديوان وحاجب الباب خبيرين باموره فاشركهم في لجنة عهد اليها امر تنظيمه ومن المحتمل ان هولاكو اعجب بالوزير عند مقابلته له نيابة عن الخليفة فاستبقاه والارجح ان شفاعة نصير الدين الطوسي له كانت اهم سبب في نجاته [٣] .

تاسعا : تجمع الروايات ان هولاكو لم يفرق في استباحته لبغداد بين السنيين

---

(١) : انظر ، جامع التواريخ ، ج ٢ قسم ١ (الترجمة) ص ٢٧٢ – ٢٧٤ ، النص الفارسي في المرجع الاصلي ج ٢ ص ٧٠٢ – ٧٠٤ .

(٢) : الحوادث الجامعة ، ص ٣٢٩ – ٣٣٢ .

(٣) : ابن الطقطقي ، تاريخ الدول الاسلامية ، ص ٣٣٨ .

والشيعيين بينما استثنى النصارى والمعقول ان ابن العلقمي لو كان قد اتفق مع المغول على تسليم بغداد لهم انتقاما من السنيين لحفظ له المغول جميل عمله فلم يقتلوا الشيعة على الاقل .

عاشرا : اما سقوط بغداد نفسها فلم يكن للوزيراي دخل فيه لأنه تم بعد هزيمة جيش الخليفة بقيادة الدويدار واستيلاء المغول على اسوار المدينة وسبب ذلك تفوق المغول الواضح في العدد والعدد والقيادة والمعنوية .

والخلاصة ليست هناك دلائل تدين ابن العلقمي وقد كان سقوط بغداد امرا متوقعا منذ تدمير المغول لدولة خوارزم وقتلهم آخر سلاطينها جلال الدين منكوبرتي سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م ولو أراد المغول فتح العراق آنذاك لما وجدوا صعوبة في ذلك . وخيانة ابن العلقمي لو صحت ما كانت تمثل اكثر من تشجيع هولاكو على قصد العراق وما كان هذا في حاجة الى تشجيع لأنه كان يحمل اوامر عليا بالفتح اصدرها اليه الامبراطور مانغوخان ومعه جيش متفوق على عدوه تفوقا ساحقا في العدد والعدد لم يستطع الاسماعيلية ايقافه بالرغم من كثرة عدد حصونهم وامتناعهم في جبال عالية وقمم شاهقة بينما تقع بغداد في سهل فسيح يسهل الاحاطة بها وقطع الميرة عنها . ويبدو ان الصاق تهمة سقوط بغداد بالوزير انما غايتها تبرير الاهمال والتسيب اللذين سيطرا على ادارة العراق منذ بداية الغزو المغولي لدولة خوارزم سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م وقد كانت الخطة الصحيحة المناسبة آنذاك هي محاربة المغول منذ اول ظهورهم في بلاد ماوراء النهر وخراسان وليس التفرج على هجماتهم وفظائعهم وانتظارهم عند اسوار بغداد ثم اتهام الوزير بانه السبب في سقوط المدينة .

زحف هولاكو

النصوص التي اوردها رشيد الدين فضل الله الهمذاني في كتابه جامع التواريخ كذلك ما ورد في طبقات ناصري [١] تدل على أن شمس الدين القزويني محرض المغول كان موجوداً في بلاط منكوقاآن عندما جرى تقسيم المهمات العسكرية بين أخوة منكوقاآن وارسال كل واحد منهم الى جهة من الجهات لفتحها. فعهد الى هولاكو بفتح «غرب ايران والشام ومصر وبلاد الروم والارمن» كما يقول الهمذاني .

وقبل مسير الحملة أرسل منكوقاآن خبراء الطرق ليكشفوا على الطريق الذي ستسلكه حملة هولاكو من قراقورم حتى شاطىء جيحون وليقيموا الجسور على الانهار والمجاري . وحدد لكل جندي مائة "مَنّ" من الدقيق وقربة من النبيذ . وحدد لهولاكو مهمته بهذه الوصية : «حافظ على تقاليد جنكيز وقوانينه في الكليات والجزئيات ، وخص كل من يطيع أوامرك ويجتنب نواهيك في الرقعة الممتدة من جيحون حتى اقاصي بلاد مصر ، بلطفك وبأنواع عطفك وانعامك . اما من يعصيك فاغرقه في الذلة والمهانة مع نسائه وابنائه واقاربه وكل ما يتعلق به . وابدأ باقليم قهستان فخرب القلاع والحصون . فاذا فرغت من هذه المهمة فتوجه الى العراق وازل من طريقك اللور والاكراد الذين يقطعون الطرق على سالكيها . واذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة فلا

(١) ص ٤١٣ – ٤١٤ .

تتعرض له مطلقاً ، اما اذا تكبر وعصى فالحقه بالآخرين من الهالكين . كذلك ينبغي ان تجعل رائدك في جميع الامور العقل الحكيم والرأي السديد وان تكون في جميع الاحوال يقظاً عاقلا وان تخفف على الرعية التكاليف والمؤن وان ترفه عنهم . واما الولايات الخربة فعليك ان تعيد تعميرها في الحال . وثق انك بقوة الله العظيم سوف تفتح ممالك الاعداء حتى يصير لك فيها مصايف ومشاتي عديدة . وشاور دوقوز خاتون في القضايا والشؤون»(١) .

في هذه الوصية تحديد لمهمة هولاكو فهي تحدد له المنطقة التي عليه ان يجتاحها بجحافله ، وهي تمتد من نهر جيحون حتى أقاصي مصر . وسترى ان هولاكو نجح في المهمة فاجتاح جميع البلاد المحددة ولكنه وقف دون مصر .

وكان تنفيذه للوصية تنفيذاً حرفياً اذ أغرق في الذلة والمهانة فضلا عن المنية كل من اجتاز بهم. وزاد فلم يقتصر في التخريب على القلاع والحصون ، بل شمل جميع العمران . اما الذي لم ينفذه من الوصية فهو تخفيف التكاليف والمؤن على الرعية والترفيه عنهم ، هذا اذا كان مفهوم الرعية هو الشعوب التي ستحكم من المغول . اما اذا كان مفهومها هو المغول انفسهم فقد فعل ولا شك .

وفي شهر ذي الحجة سنة ٦٥٠هـ (١٢٥٢م) قصد هولاكو معسكره يتهيأ ويستعد وينظم اموره . وبعد سنة كاملة اي في شهر ذي الحجة سنة ٦٥١ كان قد أتم وتدارك حاجاته فمشى زاحفاً بجيوشه الجرارة .

وقبل ان يسير كان قد عهد الى حكام الولايات التي سيجتاز بها بان يعدوا المأكل والمشرب للجنود وان يمهدوا من الطرق ما يحتاج للتمهيد وان يعدوا السفن لعبور الانهار . وكان كلما اجتاز بولاية ينضم اليه ما اعدته من جنود . وقد صحب معه زوجتيه «دوقوزخاتون» و «اولجاي خاتون» كما صحب ابنيه

---

(١) جامع التواريخ .

آباقاويشموت . وفي صيف سنة ٦٥٢ كان يعسكر في تركستان وما وراء النهر . وفي شهر شعبان من سنة ٦٥٣ (١٢٥٥) كان ينزل على مراعي سمرقند فامضى هناك ما يقرب من أربعين يوماً منصرفاً للشراب . ثم رحل حتى نزل عند حدود «كش» فاقام فيها مدة شهر . ومن هناك ارسل الى الملوك والحكام رسائل تقول: «بناء على امر القاآن قد عزمنا على تحطيم قلاع الملاحدة وازعاج تلك الطائفة . فاذا اسرعتم وساهمتم في تلك الحملة بالجيوش والعدد والآلات فسوف تبقى لكم ولاياتكم وجيوشكم ومساكنكم وستحمد لكم مواقفكم . اما اذا تهاونتم في امتثال الاوامر واهملتم ، فاننا حين نفرغ بقوة الله من امر الملاحدة ، فاننا لا نقبل عذركم ، ونتوجه اليكم فيجري على ولاياتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى عليهم»[1] .

ففي هذا المنشور الموجه الى الحكام لا يوضح هولاكو حقيقة مهمته التي حددتها وصية منكوقاآن من ان عليه ان يفتح البلاد من جيحون الى أقاصي مصر ، بل يحصر مهمته في «تحطيم قلاع الملاحدة وازعاج تلك الطائفة» . اي انه يعلن انه انما ينفذ ما طلب اليه امام المسلمين وقاضي قضاتهم شمس الدين القزويني تنفيذه وان على هؤلاء الحكام المسلمين ان يسارعوا الى معونته ونصره .

فها نحن نصبح في صميم المأساة: طاغية وثني يعكف في طريقه شهراً على الشراب ، يريد ان يخلص «المؤمنين» من «الملحدين» تنفيذاً لرغبة اولئك المؤمنين ! . .

تخليص الناس من «الالحاد» هو ما يهدف اليه هولاكو . وعلينا ان لا نعجب من ذلك ما دام «المؤمن» شمس الدين القزويني قد رفع له الشعار ! .

ويصف رشيد الدين فضل الله الهمذاني في (جامع التواريخ) التسارع الى تلبية نداء هولاكو فيقول : «أقبل من بلاد الروم السلطانان عز الدين وركن

---

(١) : جامع التواريخ .

الدين . ومن فارس سعد ابن الاتابك مظفر الدين . ومن العراق وخراســـان وآذربيجان واران وشروان وجورجيـــا الملوك والصدور والاعيـــان» .
من جيحون الى أقاصي مصر !. وهـــا هو هولاكو على ضفة جيحون ليخطو الخطوة العملية الاولى في طريق رحلته الطويل فـــامر بتوقف حركة النقل في النهر الكبير ونصب عليه جسراً عبرت عليه قواته في غرة ذي الحجة سنة ٦٥٣ (١٢٥٥) وفي اليوم التالي كان ينزل في مرعى «شبورقان» من توابع بلخ ففاجأته هناك الامطار والثلوج واستمرت سبعة ايام فهلك الكثير من دوابه برداً . فقرر تمضية الشتاء هناك عاكفاً على اللهو والطرب والاستمتاع .

قلاع الاسماعيليين

ما هي قلاع الاسماعيليين التي اعلن هولاكو ان شعار حملته هو تحطيمها ؟ يوصل بعض المؤرخين عدد هذه القلاع الى المائة قلعة وهي واقعة الى الشمال الغربي من مدينة قزوين . والذي يقصد قزوين من همذان يشاهد اذا قارب قزوين سلسلة جبال الديلم التي وجدت فيها قلاع الاسماعيليين . واهمها قلعة «ألموت» وتقع على ارتفاع أكثر من ستة آلاف قدم لا يمكن الوصول اليها الا بواسطة ممر ضيق منحدر حلزوني ، تتحكم بواد مزروع ومغلق طوله نحو ثلاثين ميلا وعرضه في اعرض نقاطه : حوالي ثلاثة اميال . وتليها قلعة لمسر وقلعة قوهستان وقلعة كردكوه وقلعة ميمون‌ذر ثم بقية القلاع .

وكانت هذه القلاع مقر الدعوة الاسماعيلية النزارية ، وألموت منها خاصة قاعدة دولتها .

الاسماعيليون النزاريون

ويعود قيام الدعوة والدولة الى العهد الذي انفصل فيه الحسن بن الصباح عن الدولة الفاطمية في مصر وانتقل بدعوته الى ايران ولجأ الى قلعة ألموت متخذاً منها حصنا منيعا وقاعدة متينة ، ينطلق منها دعاته ويمتد نفوذه حتى توفي سنة ٥١٨ (١١٢٤) وتوالى خلفاؤه فيها حتى كان عهد ركن الدين خورشاه معاصر هولاكو الذي سينتهي به عهد اسماعيليي ألموت كما سيأتي .

ولا بد من القول انه حيكت حول الحسن بن الصباح وحول دعوته وجماعته حكايات هي اقرب الى ان تكون اساطير منها الى ان تكون حقائق . منها

الاسم الذي اطلق على اتباعه لا سيما الذين كانوا منهم في سوريا وهو «الحشيشية» نسبة الى الحشيش المادة المخدرة وان الحسن كان يزرعها في ألموت ويحمل اتباعه على ادمانها ولذلك كانوا يقدمون على الاهوال تنفيذاً لاوامره واوامر خلفائه من بعده . الى غير ذلك من الاقوال المتعلقة بهذا الموضوع مما ليس هذا مكان بحثه .

والحقيقة ان اللقب لحق القوم مأخوذاً من الكلمة الفرنسية « Assassin » التي تعني القتلة المغتالين ، وهو ما أطلقه عليهم الصليبيون خلال احتلالهم لبلاد الشام حين اكثروا فيهم الاغتيال .

مقدمة هولاكو

قبل ان يعبر هولاكو نهر جيحون متوجهاً الى البلاد الاسلامية سبقته مقدمة لجيوشه مهدت له الطريق وعملت اول ما عملت على حصار قلاع الاسماعيليين . ففي شهر جمادى الآخرة سنة ٦٥٠ تقدم « كيتوبوقا » بهذه المقدمة تاركا بلاط منكوقا آن . وفي أوائل شهر المحرم سنة ٦٥١ عبر نهر جيحون فهاجم اول ما هاجم ولاية قهستان فسيطر على بعض اجزائها ثم تقدم لحصار قلعة « كرده كوه » في ربيع الاول من السنة نفسها واكتفى بان احكم حصارها بخندق حفره حولها واحاط الخندق بسور كما احاط جيشه بخندق آخر وسور آخر ، ثم ترك عندها قطعة من الجيش ومضى الى قلعة «مهرين» وحاصرها . وتقدم الى مدينة (شاه) فكانت فيها اولى المذابح ورجع عنها في الوقت الذي كان قائد آخر من قواده يتغلغل في البلاد محدثا مذبحة استمرت ثمانية عشر يوماً .

وفي التاسع من شوال سنة ٦٥١ كان المحاصَرون في كرده كوه يقومون بغارة ليلية على المغول مستهدفة قائدهم «بوري» فتنجح في القضاء عليه وعلى مائة شخص من جنوده . فرأى كيتوبوقا في ذلك تحدياً ضخما قابله بهجوم ساحق على ولاية قهستان استولى فيه على «تون» و«ترشيز» وأباح القتل والعسف والاسر . ولم تلبث قلعة مهرين ان سقطت ثم تبعتها قلعة «كالي» .

هولاكو يتولى بنفسه

وكان اول احتكاك لهولاكو بالاسماعيليين ان ارسل رسالة الى ناصر الدين المحتشم في

قلعة «سر تخت» . ويبدو جليا من النص الذي اورده الهمذاني في جامع التواريخ[١] ان بعض المسلمين كانوا قد بدأوا يتعاونون مع هولاكو ويسيرون في ركابه وينفذون اوامره ، فان الذي حمل رسالة هولاكو الى ناصر الدين المحتشم هو الملك شمس الدين كرت .

كانت الرسالة تدعو المحتشم للدخول في الطاعة ، وكان المحتشم قد شاخ وضعف ورأى تساقط القلاع من قبل بيد المغول فآثر اجابة الطلب ومضى مع الملك شمس الدين حاملا معه الهدايا والتحف معلنا بذلك استسلامه الشخصي لهولاكو في حين ابقى على القلعة ولم يسلمها . فاعترض هولاكو على ذلك ، ولكن ناصر الدين رد قائلا : «ان لهم ملكا يدعى خورشاه يأتمرون بامره» .

واراد هولاكو ان يضرب مثلا حسنا لمن يستسلمون ولا يقاومون وان يشجع على التسليم فأنعم على المحتشم وعينه حاكما على مدينة «تون» .

وهنا يبدو الغموض في النصوص التاريخية التي تذكر احتلال تون احتلالا ثانيا على يد هولاكو بعد ان ذكرت احتلالها اولا على يد كيتوبوقا . والذي يستنتج من ذلك ان تون ربما عادت فخرجت على المغول قبل وصول هولاكو ثم عادوا فاحتلوها بعد وصوله .

وقد تابع هولاكو خط زحفه حتى بلغ حدود «زاوه»[٢] و«خواف»[٣] ومن هناك وجه قواده لاكتساح الولايات الاسماعيلية فلقوا مقاومة عند حدود قهستان تغلبوا عليها في خلال اسبوع فانتهت باسر المقاومين . ثم تقدموا الى «تون» ونصبوا عليها المجانيق ثم استولوا عليها وقتلوا جميع سكانها مستثنين ارباب الحرف ، ثم عادوا الى معسكر هولاكو يعلنون ظفرهم .

بعد هذه التمهيدات للاحتلال اتجه هولاكو بفيالقه نحو مدينة طوس ، وتجاوزها موغلا في السير باتجاه القلاع الاسماعيلية ، وفي الطريق أرسل الى ركن الدين خورشاه كبير الاسماعيليين وفداً مؤلفا من مغولي هو «بكتيمورجي» ومسلمين هما ظهير

---

(١) ص ٢٤٦ . (٢) كورة بخراسان . (٣) مدينة بخراسان .

الدين سبلار البيتكجي وشاه أمير. فادى الوفد الرسالة وعاد ملتقيا بهولاكو وقد وصل الى نواحي القلاع وشرع بهجماته عليها .

وبالرغم من ان النصوص التاريخية لا تعرب عن مضمون الرسالة فلا شك انها كانت دعوة الى التسليم وان خورشـاه لم يجب الى ذلك بدليل ان هولاكو حين تقدم الى خرافان وبسطام في العاشر من شعبان سنة ٦٥٤ هـ أرسل وفداً مغولياً آخر الى خورشاه يحمل رسالة اخرى ، وامر رجلي الوفـــد بتخويف خورشاه وتهديده ووعيده .

التسليم

واستشار ركن الدين خورشاه من عنده من الرجال فاشاروا بعدم جدوى المقاومة ومالوا الى التسليم . فرأى ان يرسل اخاه الاصغر شاهنشاه واصيل الدين الزوزني على رأس جماعة من اعيان مملكته الى هولاكو دليلا على التسليم فاكرمهم هولاكو ولكن عاد فارسل وفداً آخر فيه صدر الدين وظهير الدين وتوكل بها دروبخشي ومازوق برسالة الى خورشاه تطلب اليه ان يخرب القلاع ، اذا كان حقا قد قبل التسليم ويأتي بنفسه الى هولاكو .

فهدم خورشاه اقساما من بعض القلاع كقلعة هامون دز ولمسر وألموت نفسها فحطم الابراج ورمى الابواب واخذ يعمل في تخريب اسوارها وحصونها .

اما بشأن قدومه بنفسه الى هولاكو فطلب امهاله سنة ليغادر القلعة ويقبل الى هولاكو فلم يرق ذلك لهولاكو فتوجه من بسطام متقدما نحو القلاع وامر ان تجتمع الجيوش كلها وسار في قلبها ، ثم ارسل رسلا الى خورشـاه يقولون : «اذ اتى بنفسه لاستقبالنا فاننا سنعفو عنه رغم جرائمه العديدة» وظل هولاكو على تقدمه حتى تجاوز مدينة «فيروزكوه» وهناك التقى برسله عـــائدين بتعهد بتخريب القلاع وراجين ان يرضى ببقاء خورشاه عاما واحدا في القلاع ، على ان يستثنى من التخريب قلعتا ألموت ولمسر لما فيهما من الذكريات الاسمـــاعيلية باعتبارهما قاعدتا الحكم الاسماعيلي ، وعزز خورشاه تسليمه هذا بان كتب الى

حكام كرده كوه وقهستان بان يتوجوا الى هولاكو .

ولكن هولاكو ظل مصرا على التسليم العام الكامل وحضور خورشاه بنفسه معلنا هذا التسليم ، وظل مستمرا بزحفه ، فتجاوز ولاية (لارودمـــاوند) الى (فِرّان) ثم حاصر قلعة (شاهدز) الواقعة في طريقه فسلمت في يومين . ثم عـاد يرسل الرسل الى خورشاه ليحرضوه على التسليم . فمشى خورشاه في تسليمه هذه المرة خطوة اوسع حيث ارسل ابنه مع ٣٠٠ من الجنود ورضي بان يخرب القلاع جميعها دون استثناء .

فتوقف هولاكو في مدينة «عبــاس آباد الري» منتظراً تنفيذ الوعود . وفي السابع عشر رمضان سنة ٦٥٤ بدأ خورشاهتطبيق ما وعد بتطبيقه فارسل ابنه الذي كان لايتجاوز الثامنة من عمره مع جمع من الاعيــان والكبراء ، فاعاد هولاكو الغلام معززاً لصغر سنه ، ورضي بان يرسل خورشاه اخـاه الآخر اذا كان لا يستطيع الحضور.فامتثل ركن الدين لهذا الامر وارسل اخاه شروانشاه واصيل الدين الزوزني مع ثلثمائة من كبـــار رجال الدولة فالتقوا بهولاكو في ضواحي الري .

ثم اعاد شروانشـــاه الى اخيه مصرا على تخريب القلاع وامر بان تتجمع جيوشه المنتشرة وتلتقي في معسكر واحد فلم يشعر الاسمـــاعيليون الاوقد احيط بهم واصبحوا مطوقين من كل الاطراف . فارسل خورشاه قائلا : مادمنا قد خضعنا ونحن نشتغل بتخريب القلاع فعلام اقبلتم علينا .

ثم احاطت الجيوش بقلعة ميمون دز ولكن عجز المغول عنها لمناعتها ، فهمّ هولاكو بالرحيل لمداهمة الشتاء له ثم العودة في العام المقبل ولكن مستشاريه وبينهم سيف الدين البيتكجي اصروا على البقاء والاستمرار في حصار القلعة . فارسل رسالة جديدة الى خورشاه تجمع بين الترغيب والترهيب فاستشار خورشـــاه رجال دولته ثم ارسل وفدا من كبار رجاله على اختلاف مناصبهم لمقابلة هولاكو

ودراسة الاوضاع والعودة بالرأي الاخير ، فاستقبل المغول الوفد ثم انزلوهم في اماكن متفرقة كل رجل بمفرده ، ثم استجوبوهم واحدا واحداً . ولاشك ان هذا التصرف كان يراد به شيئين : اولا استطلاع حقيقة الحال في القلعة وبقية القلاع ، ثم التهويل على الموفدين ، لذلك عاد رجال الوفد الى خورشاه مقتنعين بوجوب التسليم . وبعد ايام نزل خورشاه من القلعة ومعه نصير الدين الطوسي واصيل الدين الزوزني ، والوزير مؤيد الدين ، وابناء رئيس الدولة وهم اطباء ، فكان نزوله توديعا نهائيا للارض التي ظلت مقراً لاسرته وحصنا منيعا لها طيلة قرنين .

وكان استقبال هولاكو لخورشاه استقبالاً حسناً ، اذ كان لا يزال محتاجاً اليه ثم أوفد معه من يتسلم القلاع والحصون في قهستان ورودبار وقومس وكانت تبلغ المائة فاستسلمت جميعها فيما عدا قلعتي كردكوه ولمسر .

وكانت القلاع تضم الكثير من الخزائن والذخائر والنفائس والآلات مما كان الاسماعيليون يجمعونه ويحتفظون به طيلة قرنين فتسلم المغول ذلك كله ثم خربوا القلاع تخريبا تاماً .

وفي لمسر امتنعت الاسرة الحاكمة - اذا صح التعبير — من أقرباء ركن الدين خورشاه وفريق من أتباعه ورفضوا التسليم وظلوا في المقاومة طيلة سنة ، ولم يزعزعهم سوى حلول وباء فيهم أهلك الكثيرين منهم مما حمل الباقين على الاذعان وهكذا استسلمت لمسر .

أما كردكوه فقد رفضت التسليم رفضاً قاطعاً وظل الاسماعيليون معتصمين بها يقاومون مستبسلين عشرين سنة فيما يبدو .

ولما تم الأمر لهولاكو في تلك القلاع تقدم نحو القلعة الكبرى «ألموت» مستصحباً معه ركن الدين خورشاه ، فلما بلغها هولاكو أوفد ركن الدين الى القلعة ليحمل من فيها على التسليم ولكن قائد القلعه رفض ذلك وصمم على المقاومة وظل يرد هجمات المغول بضعة ايام . فرأى هولاكو ان يؤمن من بها على

حياتهم ويدعوهم من جديد الى التسليم فنجح هذه المرة ونزل القائد مستسلماً فدخل المغول القلعة وأعملوا فيها النهب والسلب . ولم يخف هولاكو دهشته من مناعتها وروعة موقعها . وكان فيما قضوا عليه في القلعة ، المكتبة الكبرى التي تعب الاسماعيليون في جمع نفائسها : وقد استطاع الصاحب علاء الدين الجويني ان ينقذ بعض ما فيها[١] .

مقتل ركن الدين خورشاه

وترك هولاكو عند اسر من يحاصرها وتقدم في اتجاه قزوين حيث نزل في ٢٧ ذي الحجة سنة ٦٥٤ على بعد سبعة فراسخ منها . ولم يكتف هولاكو من خورشاه بتسليم قلاع ايران، بل طلب اليه ان يرسل من قبله وفداً مع وفد مغولي الى اسماعيليي بلاد الشام يدعوهم الى عدم المقاومة حين تصل جيوش المغول اليهم.

وهكذا ظل المغول على اعزاز خورشاه والانعام عليه ما داموا محتاجين اليه فلما انقضت حاجتهم ارسله هولاكو الى بلاط اخيه منكوقا آن ، وقبل ان يصل أرسل منكوقا آن من قتله في الطريق بين ابهر وقزوين كما قتل معه اسرته كلها رجالاً ونساء واطفالاً .

وكان هولاكو قد احتفظ بكل من نصير الدين الطوسي وابناء رئيس الدولة

---

(١) شهد علاء الدين الجويني مع هولاكو فتح قلاع الاسماعيلية وعني بوصف ما جرى هناك وصفاً تاريخياً ممتعاً في كتابه الذي الفه بالفارسية وسماه «جهان كشا» قائلا : كنت اعرف بان هناك خزانة كتب ثمينة طبقت شهرتها الآفاق وقلت يحسن انتهاز الفرصة للاطلاع على هذه الخزانة فوافق هولاكو فوراً وزرت الخزانة وانتقيت أنفس ما فيها من المصاحف والكتب واخرجتها كما «يخرج الحي من الميت» وحملت محتوياتها من آلات الرصد كذات الكرسي وذات الحلق الى انواع من الاسطرلابات التامة والمنصفة وذات الشعاع. وأما الكتب المجردة في عقائد الاسماعيلية ودعوتهم فذهبت طعمة للنيران .

ثم أشار الى ما اشتملت عليه الخزانة من الذهب وهي مقادير لا تحصى . هذا ومن النفائس التي ظفر بها علاء الدين الجويني في الخزانة كتاب في تاريخ الجيل والديلم ألف باسم فخر الدولة البويهي واستفاد الجويني منه ، ونقل نبذة عنه في تاريخ تلك الاصقاع .

وموفق الدولة اما الاول ففضلا عن كونه فيلسوفاً - كان فلكياً عالماً بالنجوم ، وكان هولاكو مغرماً بهذا النوع من العلم . وأما الآخرون فقد كانوا أطباء وكان بحاجة ماسة الى الاطباء لذلك احتفظ بالجميع في معسكره ونجوا بذلك من القتل ثم ألزمهم صحبته فصحبوه في مراحله كلها .

يطمع بشواطىء المتوسط

بانهاء الحكم الاسماعيلي على الشكل الذي مر ذكره انتهت المهمة الاولى لهولاكو ، وصفت له تلك القلاع والبلاد ، واذا كانت رغبة قاضي القضاة شمس الدين القزويني وغيره قد تحققت فان رغبات هولاكو ومن ورائه منكوقا آن لم تتحقق بعد فشتان بين ما تحقق وبين ما يراد تحقيقه ، وليست بلاد الاسماعيليين الا رقعة ضيقة من الارض الواسعة التي تقع بين جيحون والنيل ! .

ويبدو من النص الذي أورده صاحب جامع التواريخ[1] ان نية المغول كانت النفاذ الى البحر المتوسط وازاحة الصليبيين والحلول محلهم فيما كانوا لا يزالون يحتلونه من بلاد الشام . وان فكرة التحالف مع الصليبيين لم تكن واردة آنذاك وان المغول كانوا من الاعتداد بقواهم ما جعلهم يعتقدون انهم بغنى عن الصليبيين، وان على هؤلاء ان يتخلو لهم عما بيدهم من بلاد. ولم تكن مسايرتهم لهم اول الامر الا من قبيل كسب الوقت .

ذلك انه ورد في جامع التواريخ ان هولاكو وهو يتهيأ للتقدم استقبل قائداً من قواده يسمى (بايجونويان) قادماً من حدود آذربيجان بعد ان كان قد ارسله لتنفيذ مخطط حربي يقضي حتى بالوصول الى بغداد . ولكن هذا القائد رأى ان قواه أقل من ان تستطيع تحقيق هذه المهمة فعاد الى هولاكو فالفاه غاضباً عليه لعجزه عن تنفيذ ما عهد اليه بتنفيذه فاعتذر القائد قائلا : « اني لم اقصر وانما

---

(١) : ص ٢٦١

بذلت كل ما في مقدوري . فلقد أخضعت الاقـــاليم الممتدة من باب الري حتى حدود الروم والشام ما عدا بغداد .. » .

فقــال هولاكو : « يجب ان تعود لكي تستولي على تلك الولاية حتى شاطىء البحر من يد أبناء الفرنج ومن الكفار » .

ومن الطبيعي ان أبناء الفرنج المقصودين هم الصليبيون المستولون على الساحل الشامي فمن هم الكفار ؟! .

وهنا نعود الى مهزلة الايمان والكفر بعد ان كنا في مهزلة الايمان والالحاد من قبل ! وهكذا نرى هذا الوثني الطاغية مولعاً بتصنيف الناس عقائدياً ، وموزعاً تهمة الالحاد هنا والكفر هناك ! ...

واذا كان الفرنج غير داخلين في زمرة الكفـار عنده فمن هم الداخلون بها ؟ ينقل مترجمو جـامع التواريخ عن المستشرق الفرنسي «كاترمير» واضع مقدمة جامع التواريخ انه يرى ان المقصود بالكفار هنا الارمن والاغريق الذين كانوا يحتلون أماكن عديدة من آسيا الصغرى . على ان مـا يوضح الامر هو مـا ذكره قبل ذلك في جامع التواريخ نفسه من ان منكوقا آن قد حدد مهمة هولاكو ، وهي فتح غرب ايران والشام ومصر وبلاد الروم والارمن .

والعجيب هو تمييز هولاكو في العقيدة بـين الفرنج من جهة وبـين الارمن والاغريق من جهة ثانية .

على أن أهم ما في هذا النص مـا قلناه من انه يدل على أنه كان من أهداف المغول الوصول الى شواطىء البحر المتوسط مع مـا في ذلـك من الاصطدام بالصليبيين . فضلا عن آسيا الصغرى التي عاد (بايجونويان) فهزم فيها غياث الدين كيخسرو بن علاء الدين واستصفى بلاده .

ويبدو لنا ان المغول أخروا الصدام بالصليبيين في سواحل الشام الى مـا بعد

احتـلال مصر وان عودة هولاكو وفشلهم في احتلال مصر قلب خططهم . ولا يمنع هذا ما كان من تعاطف بـين النصارى وبين المغول فيما احتلوه من بلاد ويبدو ان هذه النوايا لم تكن لتخفى على الصليبيين مما جعل بارونات عكا لايخفون نقمتهم على المغول ناظرين اليهم كبرابرة لا يمكن ان يفضلوا بنظرهم على المسلمــين . وحدث أن هاجم أحد هؤلاء البارونات المسمى الكونت جوليـــان الصيداوي Julien de Sidonجماعة مغولية وقتل ابن اخي القائد كيتوبوقا فـخط المغول لهذا الحادث ومضوا لتخريب صيدا[١]مما جعل العداء صريحاً بين الفريقين . و كذلك حدث انه عندما هـــاجم الجيش المصري طلائع جيوش المغول المتقدمة الى غزة وانتصر عليها – كما سيأتي – وأراد التقدم وراءها ، فان الافرنج في عكا سمحوا للمصريين بان يعبروا أرضهم ويتزودوا بالمؤن عند أسوار عكا . يقول المقريزي : « ثم نزل السلطان بالعساكر الى غزة وأقام بها يوماً ، ثم رحل من طريق الساحل على مدينة عكا وبها يومئذ الفرنج ، فخرجوا اليهم بتقادم وأرادوا ان يسيروا معه نجدة فشكرهم وخلع عليهم واستحلفهم ان يكونوا لا له ولا عليه وأقسم لهم انه متى تبعه منهم فارس أو راجل يريد أذى عسكر المسلمين رجع وقاتلهم قبل ان يلقى التتر »[٢] .

واتنقل هولاكو من ضواحي قزوين ونزل على همذان ثم تقدم الى الدينور في ٩ ربيع الآخر سنة ٦٥٥ هـ متجهاً الى بغداد ثم بداله فعاد الى همذان ومنها أرسل الى المستعصم رسولاً يحمل منه رسالة وعيد وانذار فكيف كانت الحال في بغداد؟

---

(١) grousset: l'empire des steppes P. 437.

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٣٠ .

الحال في بغداد

كانت بغداد غافلة عما يراد بها،غارقة في شقاقاتها الشخصية وفتنها المذهبية ، وكانت قد نكبت قبل ذلك آخر صيف سنة ٦٥٤ بفيضان عظيم طغى عليهـــا فأغرقها واستمر خمسين يوماً يعمل عمله ثم أخذ بالتناقص ، ونتج عن ذلك فوضى أدت الى سيطرة طبقة من الرعاع أخذوا بالاعتداء على الناس والسلب والنهب ، مما زاد في تفكك البلد وتخاذله .

وكان أبرز رجال الدولة في ذلك الوقت شخصان يتوليان منصبـين خطيرين هما الوزير مؤيد الدين محمد بن أحمد بن العلقمي وقـــائد الجيش مجاهد الدين الدواتدار [١] وكانا لسوء الحظ متنـافرين متشاكسين يدس كل منهما على الآخر . ولم يكن في شخصية الخليفة من القوة ما يحسم مثل هذه الامور ، بل لم يكن في شخصيته ما يؤهله لقيادة العالم الاسلامي في معركته الحاسمة . والمسلمون لم يفهموا أن المغول انما يستهدفون كيانهم ، والذين فهموا كانوا غافلين . لقد كانت القلاع الاسماعيلية المنيعة مستطيعة الصمود طويلا أمـــام الموجة المغولية بل لم يكن النصر مستحيلا لو ان المسلمين عضدوا الإسماعيليين وأمدوهم،ولكن المسلمين كانوا بين محرض على الاسماعيليين وبين شامت وبين متجاهل، بل لقد عمهم السرور للقضاء على الاسماعيليين . وها هو التهديد المغولي يصل الى بغـداد ويتردد صداه

---

(١) : اشتهر في أواخر الدولة العبـاسية «دواتداران» أولهما : الدواتدار الكبير وهو علاء الدين الطبرسي الظاهري ، كان دواتدار الخليفة الظاهر حظيا عنده . ولما استخلف المستنصر بعد الظاهر ثابر على تقديمه وتقريبه وزوجه ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل . كما تزوج اختهـا بعد ذلك ابنه الدواتدار الصغير مجاهد الدين في خلافة المستنصر .

في جميع أنحاء العالم الاسلامي دون أن يكون لهذا الصدى أية ردة فعل عملية . وعلى هذا مضى الأمر وتهيأ هولاكو لمتابعة الخطوات في اتجاه بغداد .

كانت الخلافات الشخصية تحول دون كل تفـــاهم بـين أولي الأمر في بغداد وكانت نكبتها بالفيضان قد خلقت طبقة رعـاعية معتدية — كما قدمنا — ويظهر أن هذه الطبقة سيطرت على الشارع بحيث جعل النـــافذين يتسابقون عليها استنصاراً بها ، فكان أن احتضنها مجاهد الدين الدواتدار واعتضد بها ففرض نفسه على الخليفة بحيث صار اسمه يذكر في الخطبة بعد اسم الخليفة [١] .

من هذا وأشباهه يمكننا أن نحكم على ما كان يشغل أولي الأمر في بغداد وعلى مقدار انصرافهم الى الاهتمام بمعالجة الخطر الداهم . ولم يكن يدري الدواتدار انه كان بتصرفاته هو وغيره من المسؤولين كان يمهد الى ان يطير اسمه واسم الخليفة لا من الخطبة بل من الوجود !.

مراسلات تهديدية

تركنا هولاكو في الدينور وقد أرسل رسالة التهديد والوعيد الى الخليفة وقد قال فيما قال في تلك الرسالة : « لقد أرسلنا اليك رسلنا وقت فتح قلاع الملاحدة وطلبنا مدداً من الجند ، ولكنك أظهرت الطـاعة ولم تبعث الجند . وكانت آية الطاعة والاتحـاد أن تمدنا بالجيش عند مسيرنا الى الطغـاة فلم ترسل الينا الجند والتمست العذر ومهما تكن اسرتك عريقة وبيتك ذا مجد تليد « فان لمعان القمر قد يبلغ درجة يخفى معهـا نور الشمس الساطعة » ولا بد انه قد بلغ سمعك على لسان الخاص والعام ما حل بالعــالم والعالمين على يد الجيش المغولي منذ عهد جنكيزخان الى اليوم ، والذل الذي حـاق بأسر الخوارزمية والسلجوقية وملوك الديالمة والأتابكة وغـيرهم ممن كانوا ذوي عظمة وشوكة . وذلك بحول الله القديم

(١) : جامع التواريخ ص ٢٦٢.

الدائم ، ولم يكن باب بغداد مغلقاً في وجه أية طائفة من تلك الطوائف ، واتخذوا منها قاعدة ملك لهم . فكيف يغلق في وجهنا رغم مـا لنا من قدرة وسلطان ؟ . ولقد نصحناك من قبل . والآن نقول لك : احذر الحقد والخصـــام ولا تضرب الخصف بقبضة يدك ولا تلطخ الشمس بالوحل فتتعب .

ومع هذا فقد مضى مامضى، فاذا أطاع الخليفة فليهدم الحصون ويردم الخنادق ويسلم البلاد لابنــه ويحضر لمقـابلتنا ، واذا لم يرد الحضور فليرسل كلا من الوزير وسليمان شاه والدواتدار ليبلغوه رسالتنا دون زيادة أو نقص . فاذا استجاب لأمرنا فلن يكون من واجبنـــا ان نكن له الحقد وسنبقي له على دولته وجيشه ورعيته . امـــا اذا لم يصغ الى النصح وآثر الخـلاف والجدال ، فليعبىء الجند وليعين ساحة القتال فاننا متأهبون لمحاربته وواقفين له على استعداد . وحيـــنما أقود الجيش الى بغداد مندفعاً بسورة الغضب فـانك لو كنت مختفياً في السماء أو في الارض « فسوف أنزلك من الفلك الدوار ، وسألقيك من عليـائك الى أسفل كالاسد ، ولن أدع حياً في مملكتك وسأجعل مدينتك واقليمك وأراضيك طعمة للنار . فاذا أردت أن تحفظ رأسك واسرتك فاستمع لنصحي بسمع العقل والذكاء والا فسأرى كيف تكون ارادة الله » . انتهى .

وصلت الرســـالة الى المستعصم في بغداد فكان جوابه عليها من نوعها شدة وعنفاً . واذا كان الأصل العربي للرسالة قد فقد ، فان الهمذاني حفظ لنا الأصل المترجم عن العربية الى الفارسية ، ثم المعادة ترجمته عن الفارسية الى العربية لذلك فـان ما نورده هنا ليس هو الاصل العربي بل المترجم مرتين وقد أرسل المستعصم جوابه مع وفد صحب الوفد المغولي العائد . وهذا هو الجواب :

أيها الشاب الحدث المتمني قصر العمر ومن ظن نفسه محيطاً ومتغلباً على جميع العالم مغتراً بيومين من الاقبال ، متوهماً أن أمره قضاء مبرم وأمر محكم . لمـاذا تطلب مني شيئاً لن تجده عندي .

الى أن يقول :

ألا ليعلم الامير أنه من الشرق الى الغرب ، ومن الملوك الى الشحاذين ، ومن الشيوخ الى الشباب ممن يؤمنون بالله ويعملون بالدين ، كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لي . انني حينما أشير بجمع الشتات سأبدأ بحسم الأمور في ايران ثم أتوجه منها الى بلاد توران واضع كل شخص في موضعه . وعندئذ سيصير وجه الارض جميعه مملوءاً بالقلق والاضطراب . غير أني لا أريد الحقد والخصام ولا أن اشتري ضرر الناس وايذاءهم كما أنني لا ابغي من وراء تردد الجيوش ان تلهج ألسنة الرعية بالمدح والقدح ، خصوصاً وانني مع الخاقان وهولاكو خان قلب واحد ولسان واحد . واذا كنت مثلي تزرع بذور المحبة فما شأنك بخنادق رعيتي وحصونهم . فاسلك طريق الود وعد الى خراسان . وان كنت تريد الحرب والقتال فلا تتوان لحظة ولا تعتذر اذا استقر رأيك على الحرب ، ان لي الوفاً مؤلفة من الفرسان والرجالة وهم متأهبون للقتال . وانهم ليثيرون الغبار من ماء البحر وقت الحرب والطعان «انتهى» .

ومع الرسالة أرسل بعض التحف والهدايا . ولما خرج رسل المغول من بغداد جوبهوا بمظاهرة عنيفة من جموع الرعاع المنتشرة في العراء كانت مادتها السباب والشتائم وتمزيق ثيابهم والبصق في وجوهم . وبلغت أخبار المظاهرة الى الوزير فخشي العواقب واسرع فارسل من خلص الوفد المغولي من أيدي الرعاع . فاثار جواب الخليفة وما لقي الوفد من المهانة حفيظة هولاكو وغضبه .

ونحن حين نتأمل الجواب نرى انه الكلام الذي يستحقه هولاكو ، وان من يهدد الناس في اوطانهم لا يجوز ان يلقى منهم أقل من هذا بشرط ان يقترن القول بالعمل ، فهل اتخذ الخليفة من الاجراءات ما يتفق مع وعيده ويليق بكرامة موقفه ؟ .

من المؤسف أن نقول ان شيئاً من ذلك لم يكن ، وان الأمور ظلت في بغداد

على ما كانت عليه من استهتار وعدم مبالاة وان الخليفة اكتفى بالكلام الأجوف وعاد الى لهوه ونزعاته . وان كل مظاهر حماسة الشعب كانت غوغـائية رعاعية اكتفت بالشتيمة والبصاق والاعتداء في غير محل الاعتداء !.

لقد كان المستعصم صادقاً كل الصدق حين قال في جوابه : «انه من الشرق الى الغرب ومن الملوك الى الشحاذين ، ومن الشيوخ الى الشباب ممن يؤمن بالله ويعملون بالدين كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لي . انني حينما أشير بجمع الشتات سأبـــدأ بحسم الأمور في ايران ثم أتوجه الى بلاد توران ...»

ونحن اذ تجاوزنا كلمة «عبيد» وفهمنا منها غير معناها المادي فاننا نرى الحقيقة كل الحقيقة في هذا القول ، فان عشرات الملايين المؤمنين بالله مستعدون للالتفاف حول مقام الخلافة وحماية الاسلام اذا اهيب بهم اهابة صادقة . وان الخليفة حين يشير بجمع الشتات يمكنه أن يطارد المغول في ايران وتوران ...

ولكن الخليفة الذي لم يستطع أن يشير بجمع الشتات بين حاشيته وفي عاصمته ايستطيع ان يشير بجمع الشتات في أطراف العـالم الاسلامي الواسعة . والخليفة الذي كان ابنه يقود المذابح المذهبية في بغداد أيقـدر أن يقود الملاحم الاسلامية في ايران وتوران ؟!.

مؤتمر وطني

كان هولاكو سنة ٦٥٥ (١٢٥٧) يعسكر في حدود مدينة همذان حين جاءه جواب المستعصم مع رسله ، فرد الرسل برسالة شفهية فيها زيادة غضب وتهديد وانذار بالسير الى بغداد . ولما عاد الوفد الى المستعصم بالرسالة الجديـــدة بدأ مشاوراته فتضاربت الآراء بين استرضاء هولاكو واشغاله بالمال وارسال التحف والهدايا اليه وبين رفض هذا الرأي دون ابـداء رأي آخر . وكان للنكايات الشخصية أثر في تضارب الآراء وبقي الموقف مائعاً دون تحديد خطة معينة .

ولما رأى الوزير ابن العلقمي ذلك دعا الى ما يمكن أن نطلق عليه في اصطلاحنا الحاضر (مؤتمراً وطنياً) شهده قادة الرأي وأركان الدولة وكان أكثر الحاضرين من الرجال العسكريين - للتشاور فيما يمكن عمله في درء الخطر الداهم . وكانت الدعوة الى المؤتمر بعد أن يئس الوزير من حمل الخليفة على اقرار خطة واضحة ومنهج صريح ، ووجد ابن العلقمي ان الخليفة غير متفهم لدقة الموقف وحراجة الظرف اذ أجاب الوزير في آخر حديث معه : «لا تخش القضاء المقبل ولا تغل خرافة فان بيني وبين هولاكو خان وأخيه منكوقاآن صداقة والفة لا عداوة وقطيعة ، وحيث انني صديق لهما فلا بد انهما أيضاً يكونان صديقين وموالين لي ، وان رسالة الرسل غير صحيحة . أما اذا أضمر الاخوان لي خلافاً وغدراً فلا ضير على الاسرة العباسية . اذ ان ملوك الأرض هم بمثابة الجنود لي وهم منقادون ومطيعون لامري ونهيي فادعوهم من كل قطر . وأسير لدفعهما ، واثير ايران وتوران عليهما. فقر قلبك ولا تخافن تهديد المغول ووعيدهم، فانهم رغم كونهم أرباب دولة وأصحاب شوكة ، الا أنهم لا يملكون سوى الهوس في رؤوسهم والريح في أكفهم» .

بهذه الذهنية كان رأس الدولة يعالج الخطر المغولي ، وبهذه الاوهام كان يتشبث . لذلك دعا ابن العلقمي الى المؤتمر الوطني ودعا فيمن دعا اليه حتى خصومه مثل مجاهد الدين الدواتدار . وقد حفظ لنا «جامع التواريخ» ما يمكن أن نسميه محضر جلسة المؤتمر[1] . قال :

«وقد اجتمع عند الوزير امراء بغداد وعظماؤها ، مثل سليمان شاه بن برجم وفتح الدين بن كره ، ومجاهد الدين الدواتدار الصغير ، واطلقوا السنتهم بقدح الخليفة ولعنه قائلين انه صديق المطربين والمساخرة ، وعدو الجيش والجنود . واننا امراء الجيش ، بعنا كل ما ادخرناه في عهد والده» . وقال سليمان شاه: «اذا

(١) ص ٢٧٣

لم يقدم الخليفة على دفع هذا الخصم القوي ولم يبادر الى طلب العون والمساعدة ، فسيتغلب جيش المغول عن قريب على بغداد ، وحينئذ لايرحمون اي مخلوق كما فعلوا ذلك بسائر البلاد والعباد فلا يبقون على اي شخص من الحضر كان اومن البدو ، قويا كان ام ضعيفا ، وسيخرجون ربات الخدور من ستر العصمة . ولوان المغول لم يحدقوا بجميع الجهات لكان من السهل حشد الجنود من الاطراف ، ولحملت عليهم بجيش في غارة ليلية وشتت شملهم . ولو جرت الامور على خلاف ذلك فاولى بالفتى ان يقتل في حومة الوغى في عزة وشرف» .

ويقول الهمذاني : وعندما بلغ الخليفة هذا الكلام اعجب به وقال للوزير : «ان كلام سليمان شاه له الاثر في النفس المنهكة ، فاستعرض الجند حسب تقريره لا غنيهم بالدرهم والدينار وسلم امرهم الى سليمان شاه ليحقق خطته» .

ويقول الهمذاني[1] : «على ان الوزير عرف ان الخليفة لن يمنح مالاً» ويستطرد الهمذاني قائلا :

«أمر (الوزير) العارض بان يعرض الجنود بالتدريج فوجا فوجا ليصل الى تعبئة الجنود في حضرة الخليفة الى البعيد والقريب والترك والعرب فتفتر عزيمة العدو . وبعد خمسة اشهر ابلغ العارض الوزير ان الجند قد صاروا عددا وفيراً وجيشا جرارا ، وان على الخليفة ان يمنح المال . فعرض الوزير الامر على المستعصم ولكنه اعتذر . فيئس الوزير من مواعيده كلية ، ورضي بالقضاء ووضع عين الانتظار على نافذة الاصطبار»[2] .

وهكذا نرى ان الوزير ابن العلقمي قد بذل اقصى ما يستطيع مثله ان يبذل في مثل هذا الموقف وانه حاول اعداد الجيوش للدفاع ، وظل طيلة خمسة اشهر يعمل في تهيئة الجند ، ولما احتيج الى بذل المال لا كمال الاعداد وانجاز التعبئة نكص

---

(١) جامع التواريخ ص ٢٧٤ .
(٢) ص ٢٧٤ .

الخليفة ومنع المال عن الجيش فكان السبب في تعطيل كل ذلك .

رسالة ساذجة وجوابها

ثم لجأ الخليفة الى تدبير سخيف يدل على ما كان عليه الرجل المؤمل للموقف العصيب ، من سذاجة ، وعلى الاساليب التافهة التي يعلل نفسه بها ويحسب انها ترد عنه غائلة المغول فقد ارسل الى هولاكو هدية صغيرة وبعث اليه يقول :

«لوغاب عن الملك ، فله ان يسأل المطلعين على الاحوال ، اذ ان كل ملك — حتى هذا العهد — قصد اسرة بني العباس ودار السلام بغداد كانت عاقبته وخيمة. ومهما قصد ذوو السطوة من الملوك واصحاب الشوكة من السلاطين ، فان بناء هذا البيت محكم للغاية ، وسيبقى الى يوم القيامة . وفي الايام السالفة قصد يعقوب ابن الليث الصفار الخليفة وتوجه بجيش لجب الى بغداد فلم يبلغ مأربه اذ مات بعلة الزحار ، والامر كذلك مع اخيه عمرو ، اذ قبض عليه اسماعيل بن احمد الساماني وكبله وارسله الى بغداد لكي يجري عليه الخليفة ما حكم به القضاء . وكذلك جاء البساسيري بجيش عظيم من مصر الى بغداد وقبض على الخليفة وسجنه في الحديقة . وفي بغداد جعل الخطبة والسكة مدة عامين باسم المستنصر الذي كان خليفة الاسماعيلية في مصر . وفي النهاية علم طغرلبك بذلك فأسرع من خراسان وقصد البساسيري في جيش جرار وقبض عليه وقتله واخرج الخليفة من السجن واعاده الى بغداد واجلسه على عرش الخلافة . وكذلك قصد السلطان محمد السلجوقي بغداد فعاد منهزما وهلك في الطريق . وجاء محمد خوارزم شاه بجيش عظيم قاصدا استئصال هذه الاسرة فابتلي في روابي «أسد آباد» بالثلج والعواصف بسبب غضب الله عليه وهلك اكثر جنده وعاد خائبا خاسرا. ثم لاقى مالاقى من جدك جنكيز خان في جزيرة آبسكون . فليس من المصلحة ان يفكر الملك في قصد اسرة العباسيين . فاحذر عين السوء من الزمان الغادر» .

هذه هي الرسالة التي بعث بها المستعصم الى هولاكو مع هديتـــه الصغيرة . وهكذا رايناه من قبل يعتمد على صداقته لهولاكو حين كان يحاور الوزير وحين كتب رسالته السابقة ومع انه ليس في ايدينا ما يشير الى عوامل هذه الصداقة المدعاة فانه ليخيل الينا انها مبنية على تحـــالف ضمني بين الاثنين للقضـــاء على الاسماعيليين ، وان هولاكو ربما كان متفاهماً من قبل مع الخليفة حين عول على انهاء الاسماعيليين وان المستعصم كان معتمداً على ذلك متوهما ان رباطا من الصداقة قد توثق بينه وبين هولاكو بعد ان جمعها – لوقت ما – هدف واحد . ولهذا رابنا المستعصم يكرر ذكر هذه الصداقة اكثر من مرة ويؤكد اعتماده عليها .

ويبدو انه ادرك متـأخرا ان صداقة هولاكو غير مجدية وان صديقه محطم الاسماعيليين ينوي تحطيم اصدقائه العباسيين لذلك لجأ الى هذا الاسلوب الساذج المضحك مهـــددا ببركة اجداده واسرارهم الالهية التي ردت عنهم الاعداء ونصرتهم على الخصماء !. ناسيا انه اذا صح ان يقول القائل القديم: «ان للبيت ربا يحميه» فلا يصح ان يعاد هذا القول مرة ثانية ، وان رب البيب لا يحميه اذا كان اهله لم يتولوا بانفسهم حمايته والدفاع عنه . وان الرب – جل وعلا – هو القائل: واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ....

فلما وصلت الرسالة الى هولاكو اغضبته غضبا شديدا فرد الرسل مصحبا اياهم بابيات من الشعر معناها :

اذهب واصنع من الحـــديد المدن والاسوار
وارفـع من الفولاذ الابراج والهيـــاكل
واجمع جيشا من المردة والشيـــاطين
ثم تقـــدم نحوي للخصـــام والنزال
فـــأنزلك ولو كنت في الســـماء
وسأدفع بك غضبـــا الى افواه السباع

الزحف الى بغداد

في الوقت الذي كانت تعوز الخليفة فيه اعتماد خطة معينة لمقابلة الزحف المغولي ، كان هولاكو يعد خطته ويحكم امرها فقرر الزحف على اكثر على خط واحد ليحصر بغداد بين مجموعة من الجيوش . وهكذا فقد امر جيوش «جرماغون» و«بايجونويان» التي اخضعت آسيا الصغرى ان تسير على الميمنة الى الموصل عن طريق اربل ثم تعبر جسر الموصل وتعسكر في الجانب الغربي من بغداد وحدد لها الوقت الذي يجب ان تصل فيه ، وامر قوات اخرى بقيادة «كيتوبوقانويان» و«قدسون» و«نرك ايلكا» ان تسير على الميسرة فتزحف من حدود لرستان وبيات وتكريت وخوزستان حتى شاطىء البحر مما كان يعرف بساحل عمان . وفي اوائل المحرم سنة ٦٥٥ (١٢٥٧ م) سار هو في القلب من همذان عن طريق كرمنشاه وحلوان . وهكذا كانت ثلاثة جيوش ضخمة تتقدم للاحاطة ببغداد ومع ذلك فقد ظلت بغداد تعلل النفس بالاماني الفارغة معتمدة على الأوهام .

ومن الطريف المحزن ان هولاكو حين وصل الى اسد آباد ارسل رسالة جديدة للخليفة يدعوه للحضور اليه فكان الخليفة يكتفي بالمماطلة والتعلل . ثم ارسل الى هولاكو رسالة مملوءة وعدا ووعيدا يطلب فيها منه ان يعود من حيث اتى على ان يدفع له الخليفة ما يشاء من المال ، فرد هولاكو على الرسالة مستهزئاً : «وكيف نترك زيارة الخليفة بعد كل ما قطعناه من هذا الطريق . سوف نعود باذنه بعد الحضور للقائه والتحدث معه» .

وعبر هولاكو جبال الاكراد ووصل كرمانشاه في السابع والعشرين من المحرم فبدأت المذابح والسلب . ويبدو ان الخليفة كان قد تحرك فارسل طلائع من

جيشه بقيادة ايبك الحلبي وسيف الدين قلج لمقابلة الجيوش الجرارة ، ولكن هذه الطلائع كانت من الهزال بحيث لم تلبث ان قبض على قائديها واحضرا الى هولاكو فاستنطقهما ويبدو انهما قصا عليه حقيقة الوضع في بغداد ، فاذا بهما ينضمان اليه ويسيران في طلائع جيشه .

وعندما تقدم هولاكو باتجاه بغداد واخذ يدنو من حدود العراق ويوغل داخله كان من طلائع جيشه احد القواد المسلمين من بقايا الخوارزميين اسمه سلطان جوق ، في حين يقود طلائع جيش الخليفة تركي آخر هو قبجان المعروف بقراسنقر ، فكتب الأول الى الثاني يدعوه الى الاستسلام والانضمام الى المغول وكانت رسالته : «اني وانت من جنس واحد ، وبعد البحث والتدقيق ، التحقت بخدمة هولاكو بسبب الفقر والاضطرار ودخلت في طاعته . وهو الآن يعاملني معاملة طيبة . فانقذ انت حياتك وترفق بها واشفق على اولادك ، وقدم الطاعة حتى تأمن على دارك واولادك ومالك وروحك من هؤلاء القوم » .

ولكن قراسنقر رفض ذلك وابى الاستسلام وهو ما يحمد عليه ولكن المؤسف هو تعليل اسباب الرفض التي في رسالته الجوابية . اذ لم تكن مستمدة من روح الدفاع عن الاوطان وحماية الذمار والتنديد بالخيانة ، بل كانت جزءاً من الروح الانهزامية المسيطرة على الخليفة نفسه القانعة بان الله وحده سيحمي العباسيين ويرد عنهم غائلة المعتدين اذ قال قراسنقر في جوابه : «من يكون هؤلاء المغول حتى يقصدوا اسرة العباسيين . لقد شاهدت هذه الاسرة الكثيرين من امثال دولة جنكيزخان ، وان اساسها الاكثر احكاما ورسوخاً من اساس اسرة جنكيز خان التي تترنح مع كل ريح عاصف . ثم ان العباسيين قد استمروا حكاما اكثر من خمسمائة سنة ، وكل خاوق قصدهم بسوء قضى عليه الزمان . واذن فليس من العقل والكياسة ان تدعوني لأنضم الى جانب الغصن الغض لدولة جنكيز وكان الأولى بالود والمسالمة ان لا يتجاوز هولاكو خان الري بعد فراغه من فتح قلاع الملاحدة ، وان يعود الى خراسان وتركستان ، لان قلب الخليفة متأثر وساخط

بسبب زحف هولاكو بجيوشه . فاذا كان هولاكو نادماً على فعلته ، فعليه ان يعيد الجيش الى همذان لكي نجعل الدواتدار شفيعاً فيتضرع بدوره الى الخليفة علّه يزول اله ويقبل الصلح ، فيغلق بذلك باب القتال والجدال»[1] .

ان هذا الجواب يرينا حقيقة الحال المسيطرة على رجال الدولة جميعاً في تلك الساعات الحاسمة فقراسنقر لا يعتد بقوة الجيش المعد ، ولا يقول كلمة ترويع وتخويف بالحشود والزحوف ، بل يهدد ويتوعد بالقوة الغيبية وحدها ، كما فعل سيده وخليفته من قبل !.. فضلا عن اعلانه انما يمنعه من الانضمام الى المغول هو ان غصنهم لا يزال غضا ، والدخول معهم غير مأمون العواقب، والانضمام اليهم لايضمن المستقبل !..

وكما رجحنا وجود اتفاق سابق بين الخليفة والمغول على ابادة الاسماعيليين حين علقنا على الصداقة التي يكرر الخليفة ذكر قيامها بينه وبين هولاكو ، نعود الآن فنزداد ترجيحاً لهذا الرأي حين نرى قراسنقر يذكر سلطان جوق بذلك ويشير الى ان الخليفة كان يعتقد بان هولاكو سيعود بعد تنفيذ الاتفاق والانتهاء من فتح قلاع «الملاحدة» .

بل ان في هذا الجواب ما يؤكد اكثر من ذلك ، وهو ان من بنود الاتفاق ان يصل هولاكو الى الري فلا يتجاوزه، وان الخليفة يقر الاحتلال المغولي حتى تلك الحدود لقاء القضاء على الاسماعيليين . وان الخليفة يرى في تجاوز هولاكو للري وتقدمه نحو بغداد نقضاً للاتفاق ، ومخالف «للود والمسالمة» على حد تعبير قراسنقر . وان احتلال المغول لما يحتلونه من بلاد وما يرتكبون فيها من فظائع لايخالف الود والمسالمة اذا لم ينقضوا الاتفاق ويتجاوزوا الري !..

وعرض سلطان جوق جواب قراسنقر على هولاكو فكان تعليقه عليه الضحك

(١) جامع التواريخ ص ٢٨٢ – ٢٨٣ .

وقبل ان يستأنف المسير ارسل رسولا جديدا الى بغداد برسالة تقول : «اذا كان الخليفة قد اطاع فليخرج ، والا فليتأهب للقتال ، وليحضر الينا قبل كل شيء : الوزير وسليمان شاه والدوادتار ليسمعوا ما نقول» .

بين الدفاع والهجوم

وفي اليوم التالي في التاسع من ذي الحجة سنة ٦٥٥ (١٢٥٧ م) استأنف هولاكو زحفه حتى شاطيء نهر حلوان [١] حيث عسكر هناك حتى الثاني والعشرين من الشهر ، فهو الآن على حدود العراق . ومن العجيب انه لم يظهر اي اثر للمقاومة على طول تلك المسافة من همذان حتى حلوان فيما عدا ما رأيناه من وجود الطلائع التي استلم قائداها وانضما الى المغول ، وسنرى أيضاً ان الدفاع سيظل مفقوداً وان المغول سيصلون ضواحي بغداد دون ان يلقوا مقاومة ، وان اية هزيمة ستفسح المجال لدخول بغداد بسهولة كما حدث بعد ذلك بالفعل .

وفي التاسع من المحرم سنة ٦٥٦ (١٢٥٨) عبر بعض القادة المغول نهر دجلة عن طريق نهر دجيل ووصلوا الى نواحي نهر عيسى [٢] أي ضواحي بغداد غير البعيدة .

هذا عن خطط الهجوم ، أما عن الدفاع فان قائد الجيش مجاهد الدين ايبك الدواندار يعاونه ابن بكر كانا قد عسكرا بين بعقوبة وباجسرى ، على انهما فوجئا بوصول المغول الى الضفة الغربية ، لذلك عبرا نهر دجلة الى الغرب والتقيا بالمغول على حدود الأنبار على بعد تسعة فراسخ من بغداد . وأقدم المغول على فتح سد على نهر في ساحة المعركة لقطع خط الرجعة على جيش بغداد «فغمرت المياه

---

(١) قال ياقوت : «حلوان : آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد» اي انها على الحدود العراقية الايرانية

(٢) نهر عيسى كما يقول معجم البلدان : كورة وقرى كثيرة وعمل واسع غربي بغداد ومأخذه من الفرات وتتفرع عنه انهار تخترق بغداد .

كل الصحراء الواقعة خلف جيش بغداد». وفي فجر العاشر من المحرم وقع الصدام العسكري وقامت المعركة فانتصر المغول ، وقتل فتح الدين بن كر وقراسنقر قائدا المعركة مع اثني عشر الف رجل فضلا عمن غرق أو مات في الوحل . أما القائد العام الدواتدار فكان اول المنهزمين ونجا مع قلة وعاد الى بغداد . وبدأت حركة نزوح من بغداد الى المدن الداخلية .

وفي منتصف المحرم زحف القائدان بايجو وسونجاق رأسا الى بغداد واستولوا على الجانب الغربي منها ونزلوا في أحياء المدينة على شاطىء نهر دجلة ، ثم وصل آخرون بجيش جرار .

اما هولاكو فقد كان معسكرا في خانقين ثم تقدم باتجاه بغداد حتى وصل الجانب الشرقي منها في الحادي عشر من المحرم . ثم توالى تدفق الجيوش المغولية فاحاطوا باسوار بغداد واقاموا جدارا يحتمون وراءه.

وفي الثاني والعشرين من المحرم بدأوا الهجوم العام من كل الجهات فاحدثت المجانيق ثغرات في السور . وهنا حاول الخليفة محاولة يائسة فراح يعالج الأمر بما لا يعالج فانتدب الوزير لمقابلة هولاكو قائلا : «ان الملك قد أمر بان أبعث اليه بالوزير ، فها أننا قد لبيت طلبه فينبغي ان يكون الملك عند كلمته » .

فرد هولاكو قائلا : « ان هذا الشرط طلبته وأنا على باب همذان . أما الآن فنحن على أبواب بغداد ، وقد ثار بحر الاضطراب والفتنة فكيف أقنع بواحد ؟ ينبغي ان ترسل هؤلاء الثلاثة ، يعني الدواتدار وسليمان شاه والوزير » .

ثم اشتدت الحرب واستمرت ستة أيام متوالية وفي الخامس والعشرين من المحرم استطاع المغول هدم أحد الأبراج . وفي الثامن والعشرين منه استطاع المغول تسلق السور حيث يقف هولاكو فازالوا منه الجنود وفي المساء كانوا يتسلمون جميع الأسوار الشرقية . وأخذت بغداد الخالدة تترنح تحت الضربات المغولية العاتية . ثم أمر هولاكو ان يقيموا جسراً في أعلى بغداد وآخر في

اسفلها وأن يعدوا السفن وينصبوا المجانيق .

وكان المغول حين رأوا حركة النزوح عن بغداد ، قد أقاموا عشرة آلاف جندي من جنودهم بقيـــادة بوقاتيمور على طريق المدائن والبصرة ليحولوا بين الناس والهرب بالسفن . وكان في أول الهاربين القائد العـــام للجيش الدواتدار الذي ركب سفينة وأراد الفرار فيها بأمواله الكثيرة ولكنه بعدما اجتـاز قرية العقاب رأى ما يجري على سفن الهاربين التي كان جنود بوقاتيمور يصبون عليها حجارة المجانيق والسهام وقوارير النفط ، ثم يقبضون على بعض السفن ويهلكون من فيها ، عاد مرتداً .

محاولات يائسة

والخليفة الذي رفض ان يبذل المـال لتقوية الجيش عندما عرض عليه الوزير ذلك ، عاد الآن يفكر ببذل المال لعله يردع هولاكو فأرسل فخر الدين الدامغاني وابن درنوش مع قليل من التحف الى هولاكو فلم يلتفت هولاكو الى ذلك .

وفي التاسع والعشرين من المحرم خرج للقاء هولاكو ابو الفضل عبد الرحمن ، الأبن الثـــاني للخليفة مصحوباً بجماعة من كبراء المدينة وقد حملوا أموالاً كثيرة فردهم هولاكو ، وفي اليوم الثـــاني خرج ولي عهد الخليفة مع الوزير ليفاوضا هولاكو فعادا فاشلين .

نهاية ذليلة

وفي أول صفر أرسل هولاكو وفداً الى بغداد يطلب ان يخرج اليه سليمان شاه والدواتدار ، قائلا ان شاء الخليفة فليأت ، واذا لم يشأ فليبق ، قـــائلا ان جيش المغول سيبقى خلال ذلك على الاسوار ولن يقتحم المدينة .

ويبدو ان هولاكو كان يخشى مقاومة ضارية تليق بشرف بغداد الرفيع اذا هو هاجم المدينة هجومه الاخير فيتكبد الكثير من الضحايا والخسائر ، فاراد ان

يدخل بغداد دخولا هيناً لذلك طلب الدواتدار وسليمان شاه وهما المسؤولان الأولان عن الجيش . وتســامح في عدم حضور الخليفة اتمــاماً لخطته . فخرج الرجلان اليه ولكنه أعادهما طالباً ان يخرج معهما اتباعهما ليضمهم الى القوات المعدة للزحف على مصر والشام. وهنا وصل الموقف الى الهوان الاكبر فقد تسابق جند بغداد للخروج معهم ملقيـن بايديهم الى المغول طمعاً في الخلاص ، وكانوا على حـد تعبير جامع التواريخ « خلقاً لا يحصى » فكان نصيب هذا « الخلق الذي لا يحصى » ان قسم الى الوف ومئات وعشرات وقتلوا جميعاً . وكان الدواتدار في طليعة من قتل ..[1]

وهكذا فقدت بغداد الغالية من كان مفروضاً بهم ان يكونوا حماتها ، فقدتهم فقداناً حزيناً كسيراً ذليلا ، فبدلا من ان تسفك تلك الدماء دفاعاً عن الحمى المنيع ، وبدلا من ان تصمد تلك العشرات من الالوف تحت ظلال السيوف ذوداً عن أعز مدينة ، وصوناً لكرامة أكرم كريمة ، سفكت تلك الدماء صبراً في مواقف الذل ، وغدت بغداد العزيزة وحيدة يستفردها الطغاة ! ..

---

(١) لتعرف كيف كان هؤلاء القوم يعيشون بعـــد ان عرفت كيف ماتوا ننقل لك صورة واحدة من صور حياتهم ، هي كافية لتريك كيف كانت تمضي تلك الحيـــاة . جاء في « العسجد المسبوك» عن الدواتدار هذا ما يلي :

مجاهد الدين أبو الميامين أيبك الدويدار المستنصري وكان ممن رزق السعادة في دنياه ، ولـــا وغب بدر الدين لؤلؤ زعيم الموصل في الوصلة اليه عظم شأنه وارتفع مكانه وملك جزيل الأموال من العين والرقيق والدواب والعقار والبساتين والضياع مما يتعذر ضبطه على الحساب . وفي ليلة بنائه بزوجته نفذ الى داره من أواني الذهب والفضة والثياب والجواهر ما يزيد على ثلاثمائة الف دينـار وانعم عليه في صبيحة تلك الليلة التي دخل بزوجته ستمائة الف دينار عيناً ، الى غير ذلك مما يطول ذكره ويتعذر وصفه . وبلغ من الجاه العريض والحرمة الوافرة حتى انه كان يترفع على وزير الدولة الذي هو نائب الخلافة وعلى شرف الدين اقبال الشرابي الذي كان مقدم العساكر . ولم يركب الى أحد سوى الخليفة. وكان في جماعة من أكابر الزعماء وأرباب العمائم وأصحاب الكوسات والاعلام ويقصدونه في داره خدمة وتقرباً اليه وكان يصل اليه من اقطاعه وأملاكــه ومزارعاته زيادة على خمسمائة الف دينار .

والدواتدار ... ما كان أبعده عن اللقب الذي لقب نفسه به (مجاهدالدين)، فما جاهد لا للدين ولا للشرف، بل مات أحط ميتة وقتل أذل قتلة، وكان حريابه ان يجري دمه وبيده السيف تحت الرايات لا أن يجري ذاك المجرى الخسيس !.

المغول في بغداد

وأخيراً قرر الخليفة الخروج الى هولاكو،فخرج في الرابع منصفر سنة٦٥٦هـ (١٢٥٨) ومعه أبنـاؤه الثلاثة : أبو الفضل عبد الرحمن وأبو العبـاس أحمد وأبو المناقب مبارك ويرافقه حوالي الثلاثة الآلاف شخص من كبراء الدولة وشخصيات المدينة وكان هولاكو لا يزال بحاجة اليه وعامله بالحسنى ، اذ كان هولاكو يخشى المقـــاومة الشعبية داخل بغداد وان لا يستسلم الناس بسهولة ، لذلك طلب الى الخليفة ان « يضع سكان المدينة اسلحتهم ويخرجوا لكي نحصيهم » . فـــارسل الخليفة من ينادي في الناس بالقاء السلاح والخروج . وكان الناس قد عادوا اشتاتا خائفين فلبوا النداء وخرجوا الى ظاهر المدينة جماعات جماعات عزلا ، فكان المغول يتناولون كل جماعة ويقتلونهم .

وفي السابع من صفر كان القتل والنهب العامين فتدفق المغول الى داخل بغداد غير مبقين على شيء قتلا ونهبا وحرقاً ، وكان فيما احترق مشهد الكاظمين وجامع الخليفة .

وبعد يومين دخل هولاكو المدينة وأمر باحضار الخليفة وكانت قـد انتهت حاجته اليه ، فقال له مستهزئاً : «انك مضيف ونحن الضيوف ، فهيـا احضر ما يليق بنا !..»

وكان الخليفة يرتعد خوفاً فاحضر لهولاكو الفي ثوب وعشرة آلاف دينـار وبعض الجواهر والنفائس فلم يلتفت اليها هولاكو ووزعها على من كان حاضراً ، وقال للخليفة : «ان الأموال التي تملكها على وجه الأرض ظـــاهرة وهي ملك

عبيدنا ، لكن اذكر ما تملكه من الدفائن . ما هي وأين توجد» .

فاعترف الخليفة بوجود حوض من الذهب في ساحة القصر ، فحفروا الأرض حتى وجدوه ، وكان مليئاً بالذهب الأحمر !. ثم أمر هولاكو باحصاء نساء الخليفة فعدوا سبعمائة زوجة وسرية والف خادمة !.

حوض من الذهب الأحمر ،.وسبعمائة غانية !.. هذه كانت مشاغل لا هذا الخليفة وحده ، بل مشاغل من سبقوه من الخلفاء والحكام في الأقطار الاسلامية، الا من عصم ربك وما أندرهم !

حوض من الذهب الوهاج كان هؤلاء الخلفاء يجمعونه من أقوات الشعب ، ويكنزونه من مال الفقراء والمحرومين ويتوارثونه واحداً عن واحد ، وكل واحد يضيف اليه جديداً حتى سلموه يداً بيد الى الطاغية هولاكو !.

حوض من الذهب ، ثم يأبى هذا الخليفة أن ينفق على اعداد الجيش وتعبئته !

حوض من الذهب وسبعمائة غانية !..

وهال المستعصم ما يتعرض له نساؤه وتضرع لهولاكو قائلا : «مُنَّ علي بأهل حرمي اللاتي لم تطلع عليهن الشمس والقمر» !.

أجل ! لم تطلع الشمس والقمر على مئات الجواري في قصره وقصور غيره من الخلفاء والحكام ، ولكن الشمس كان تطلع كل يوم على ملايين الكادحات في الحقول والبراري والساحات ، يعملن جاهدات على احراز القوت ، ثم يأتي زبانية الخلفاء والحكام فيشاطرونهن القيمات ، ويقاسمونهن ما حصلن عليه بكد اليمين وعرق الجبين ليزيدوا ذهبا في أحواض الذهب !..

لم تطلع الشمس ولم يطلع القمر على نسائك السبعمائة أيها الخليفة ، ولكن الشمس اطلعت كل يوم على ضحاياك وضحايا أسلافك ، وضحايا عُمّالك وعمال أسلافك . والقمر اطلع كل ليلة على المرضى الذين لا يجدون الدواء والغرثى

الذين لا يجدون الغـــذاء والعرايا الذين لا يجدون الكساء في حكمك وحكم أسلافك !.

ورق هولاكو للخليفة فأمره بأن يختار مائة من هذه النساء السبعمائة ويترك الباقي ، فأخرج الخليفة مائة من المحببات اليه ومن قريباته ...

ثم أمر هولاكو بأن تجرد أموال الخليفـــة وتخرج ، ويقول الهمذاني : «وقصارى القول ان كل ما كان الخلفاء قد جمعوه خـــلال خمسة قرون ، وضعه المغول بعضه على بعض فكان كجبل على جبل» .

وأوفد سكان بغداد وفداً الى هولاكو يطلب الأمـان فأصدر أمره بالتوقف عن القتل والنهب . وفي الرابع عشر من صفر سنة ٦٥٦ قتل الخليفة .

مراثي بغداد

كانت فاجعة العالم الاسلامي بسقوط بغداد فاجعــة عظمى ، وكانت سيطرة المغول بالشكل الذي سيطروا فيه عليها مثار الأسى العميم . وكان الشعر مظهراً لتلك المشاعر التي ملكت النفوس . وبالرغم مما في ذاك الشعر من عواطف صادقة وشجى مؤثر فلم يكن يوجد في ذلك الوقت الشاعر الملهم الذي يستطيع أن يحلق بشعره التحليق الذي تستحقه بغداد الشهيدة .

قال شمس الدين الكوفي الهاشمي الواعظ من قصيدة مطلعها :

بانوا ولي أدمع في الخــد تشتبك　　ولوعة في مجـــال الصدر تعترك

ومنها :

يا نكبة ما نجا من صرفهـــا احد　　من الورى فاستوى المملوك والملك
تمكنت بعـــد عز في أحبتنا　　ايدي الأعادي فما أبقوا وما تركوا
ربع الهداية أضحى بعــد عهدهم　　معطـــلا ودم الاسلام منسفك

أين الذين على كل الورى حكموا   أين الذين اقتنوا أين الألى ملكوا
أجابني الطلل البالي وربعهم الخـــالي نعم هاهنا كانوا وقـد هلكوا

ولهذا الشاعر أكثر من قصيدة في هـــذا الموضوع ، وقد جاء في مطلع قصيدة أخرى :

عندي لأجل فراقكم آلام   فعلام اعذل فيـــكم وألام

وقال أحد الشعراء :

لسائل الدمع عن بغداد أخبـــار   فما وقوفك والأحباب قد ساروا
يا زائرين الى الزوراء لا تفـــدوا   فمـــا بذاك الحمى والدار ديار
تاج الخلافة والربع الذي شرفت   به المعـــالم قد عفاه اقفـار
أضحى لعطف البلى في ربعه أثر   وللدمـــوع على الآثار آثار

كما ان الشاعر الفارسي سعدي الشيرازي رثى بغداد حين بلغته أخبـــارها بقصيدة فارسية ، وأخرى عربية قال فيها :

حبست بجفني المدامع لا تجري   فلما طغى الماء استطال على السكر
نسيم صبا بغداد بعد خرابهـا   تمنيت لو كانت تمر على قبري

بقية البلاد

أما بقية أنحاء العراق فلم تكن فيهـــا مقاومة عدا واسط واربيل ولكن الموصل ثارت بعد ذلك . كما سلّمت البصرة ومنطقتها بدون قتال وكذلك تستر ومنطقتها خوزستان . أما أمير الموصل بدر الدين لؤلؤ فقـد كان خضع للمغول وأمد هولاكو بالسلاح ، وبعد سقوط بغداد جـاء الى هولاكو فأحسن استقباله وأقره على امارة الموصل ، ولكنه لما عاد اليها مرض أياماً ومــات ، فتولى بعده ولده الملك الصالح اسماعيل ، ولكن هـــذا أعلن الثورة على المغول سنة ٦٥٩ (١٢٦٠) فأرسل اليه هولاكو جيشاً حاصره اثني عشر شهراً . وبعد بذل أقصى

الجهود استسلم الصالح اسماعيل ، وبرغم الامان قبض المغول عليه وعلى ولده فقتل القائدولدهوأرسل الملك الصالح وأخاه الملك الكامل الىهولاكو فأمر بسلخ وجه الأول وهو حي ثم قتل أخوه وكان طفلا . ودخل الجيش الموصل في رمضان سنة ٦٦٠ (١٢٦١) فقتل أكثر أهلها. وفي الوقت الذي كان هولاكو يزحف على بغداد أرسل أحد قواده لفتح قلعة اربيل فاستبسل أهلها فيالدفاع عنها فاستنجد القائد المغولي ببدر الدين لؤلؤ واستشاره فأمده بطائفة منجنده وأشار عليه بالاستمرار في الحصار حتى الصيف حيث يلجأ السكان الى الجبال هربا من الحر فعمل بذلك ، ثم سلمها القائد المغولي الى بدر الدين لؤلؤ فهدم أسوارها واستولى عليها .

ولم يطل هولاكو اقامته فيبغداد اذ غادرها فيالثالث والعشرين منصفرعائداً الى معسكراته في خانقين . ومنها اتجه الى ايران حيث اختار مدينة مراغـة في آذربيجان قاعدة لحكمه .

هولاكو في بلاد الشام

كان ما جرى على بغداد كافياً ليشحذ الهمم في بلاد الشـــام ويؤدي الى توحيد المواقف وحشد الطاقات استعداداً لوصول المغول اليهـا ، ولكن كل تلك الفواجع والكوارث لم تستطع ان تثير في أمراء الشـــام نخواتهم وتقضي على خلافاتهم وتجمع كلمتهم ، بل ظلوا سادرين في غفلتهم يتشاكـون ولا يتحدون . لذلك استطاع المغول ان يقضوا عليهم واحدا واحدا ويسيطروا على بلدانهم بلداً بلداً .

وكان الصليبيون لا يزالون يحتلون شطراً من بلاد الشـام لا سـيما السواحل ، ويبدو ان تفكير المغول بازاحة الصليبيين والوصول الى البحر المتوسط ، كما حدد خطته هولاكو وقبله منكوقـــاآن – كما مر – يبدو ان هذا التفكير قد أجل موقتاً الى مـا بعد استصفاء الشام ومصر . ولكن سير الامور لم يظل على مـــا اشتهى المغول ، فقد اضطر هولاكو لترك بلاد الشام عائداً الى ايران . وفشل قائده وصهره كيتوبوقا في احتلال مصر وهزم في عين جـالوت وانسحب المغول من الشام مما غير الخطط وبدل المناهج .

وقد سبق زحف المغول الى بلاد الشـام انذارات واتصالات فقد كان الملك الناصر صــاحب حلب قد وطد صلته سراً بالمغول فارسل وزيره الصاحب زين الدين الحافظي بتحف وهدايا ملكية الى القاآن فقوبل بالانعامات عليه .

ولما صار هولاكو في ايران عائداً من بغداد كان صاحب حلب « يظهر الطاعة والميل اليه في الخفـاء » بل لقد طلب اليه امداده بنجدة يفتح بها مصر . ولكن

مثل هذه الصلة لا يمكن ان تخفى الى النهاية ، فاتهم بموالاة المغول وثار به حكام بلاد الشـــام فالتجأ الى هولاكو . فقوى ذلك من عزم هولاكو على الزحف الى حلب مبتدئاً بها فتح البلاد الشامية .

فكتب الى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل : «ان سنك قد جاوزت التسعين ولذلك أعفيناك من السير معنا . ولكن عليك أن تبعث بابنك الملك الصالح مع الرايات الغازية لفتح ديار الشام ومصر» فامتثل بدر الدين للامر وأرسل ولده الى هولاكو .

وفي الثاني والعشرين من رمضـــان سنة ٦٥٧ (١٢٥٩) ســـار هولاكو في قلب جيوشه من آذربيجان ، فكانت طريقه على خلاط وجبـــال حكار الكردية فقتل كل من لقيه من الأكراد، ووصل الى ديار بكر وفتح الجزيرة ووجه ابنه يشموت لحصار ميافارقين . وأرسل الملك الصـــالح بجيش لفتح آمد . واتجه بنفسه الى دنيسر ونصيبين وحران وفتحها فقتل المغول ونهبوا ثم عبر الفرات واصلا الى حلب ، فأبت حلب التسليم وصممت على القتـــال وصمدت للمغول تقاتلهم اسبوعاً وأخيراً دخلوا المدينة فأباحوهـــا قتلا وسلباً سبعة أيام . على أن القلعة صمدت أربعين يوماً ترد المغول عن أسوارها ثم سقطت . وحاصروا قلعة حـــارم فشغلهم حصارها مدة وطلب أهلها الأمان على أن يقسم لهم فخر الدين الساقي على الأمان ثم سلموا بنـــاء على عهده وايمانه . فكان ان غضب عليهم هولاكو غضباً شديداً فقتلوا دفعة واحدة مع نسائهم وأطفالهم. وكذلك سقطت حماه والمعرة وحمص.

أما دمشق فقد أدرك أهلها أن لا قبل لهم بمقـــاومة المغول فأوفدوا وفداً من كبرائهم يحمل الهدايا والتحف وقدم مفاتيح بوابات المدينة الى هولاكو وأظهروا الطاعة والخضوع . فـــأوفد اليها قائده كيتوبوقا ليختبر حالها فاستقبله أهلهـــا

وطلبوا الأمان . فأرسل كيتوبوقا وفداً من أعيانهم الى هولاكو فأحسن استقبالهم وهكذا سلمت دمشق . ولكن القلعة قاومت ثم سقطت .

ثم أتم المغول فتح البلاد الشامية وقتلوا حامية نابلس لأنها قاومت ، ثم انتهوا الى غزة دون مقاومة تذكر .

تهديد مصر

هكذا تم للمغول الاستيلاء على معظم العالم الاسلامي في ذلك العصر ، وبقي عليهم أن يثبوا الى مصر ، وتمهيداً لذلك احتلوا مدينة غزة وتوقفوا عندها قليلا مرسلين انذاراً رهيباً لحاكم مصر كما سيأتي . ولكن حدث أن تلقى هولاكو نبـأ موت أخيه منكوقاآن وتنازع أخويه قوبيلاي واريق بوكا ولاية العرش ، وقـد كان من الممكن أن يشترك هولاكو نفسه في هذا النزاع ولكن يبدو أنه آثر ان يكتفي بالاحتفاظ بما كان قد فتحه من بلاد وأن لا يدخل في الصراع على عرش المغول من أجل نفسه ، على أن لا يكون بعيداً عن الانغـــماس في هذا الصراع انتصاراً لأحد الفريقين المتنازعين ، وكان هواه مع أخيه قوبيلاي لذلك حرص على حضور (القوريلتاي) وهو المجلس المغولي الذي ينظر بهذه الشؤون. فغادر بلاد الشام عائداً الى ايران وترك لكيتوبوقا ان ينجز فتح مصر .

وقبل سفره أرسل وفداً مغولياً مؤلفاًمن واحد وأربعين رجلا يحمل الرسالة الآتيةالى الملك المظفر سيف الدين قطز حاكم مصر[1] :

«ان الله قد رفع شأن جنكيزخان واسرته ومنحنا ممالك الأرض برمتها . وكل من يتمرد علينا ويعصي أمرنا يقضى عليه مع نسائه وأبنائه وأقاربه المتصلين به وبلاده ورعاياه ، كما بلغ ذلك أسماع الجميع . أما صيت جيشنا الذي لا حصر له فقد بلغ الشهرة كقصة رستم واسفنديار . فاذا كنت مطيعاً كخدم حضرتنا

---

(١) الملك المظفر سيف الدين قطز بن عبد الله المعزي تسلطن بعد خلع استاذه الملك المنصور علي بن الملك المعز ايبك يوم السبت ١٧ ذي القعدة سنة ٦٥٧ .

فارسل الينا الجزية وأقدم بنفسك واطلب الشحنة والا فكن مستعداً للقتال» .

هذ هو الانذار المخيف الذي حمله الواحد والأربعون مغولياً الى السلطـــات المصرية وهذا هو التهديد المروع الذي وصل الى القاهرة .

وكانت كل جملة في هذا الكتاب صحيحة صادقة فقد دانت لهم ممالك الارض، وكل من تمرد عليهم قضي عليه وخربت بـــلاده . وشهرة جيشهم المنتصر كانت أعرف من أن ينوه بها . وكبراء الناس قد صاروا خدم الحضرة المغولية .

وهبط الوفد مصر جباراً متكبراً ، يزلزل بروعته العزائم ويوهي الهمم . هبط مصر وهبط معه تاريخ أسود من الانتصـــارات الكاسحة ، وماض بشع من التسلط المهول ، كانا كافيين للتسليم والخذلان ، لولا ان جابهتها حمية شماء ورجولة انوفة وبطولة وفداء .

مؤتمر عسكري

كان الامر أخطر من ان يقطع فيه انسان واحد . وكانت مصر آخر معقل فاذا هوت ، لم تقم بعدها قائمة . لذلك لم يجرؤ رجل فرد ، مهما اوتي من سداد الراي وقوة العزم ، ان يتفرد بالقرار . فجمع الحاكم المصري، الملك المظفر قطز، مؤتمرا عسكريا ، كان في محاوراته ونقاشه في ارفع مستوى عرفه التـــاريخ من الاجتماعات العسكرية والمؤتمرات الحربية . وجرت المداولة فيه بصراحة كاملة اقتضتها خطورة الموقف .

قـــال الحاكم المصري للمؤتمرين ، وكانوا في اكثريتهم من القواد اللاجئين الى مصر :

«لقد توجه هولاكو من توران الى ايران بجيش جرار ، ولم يكن لاي مخلوق من الخلفاء والسلاطين والملوك طاقة على مقاومته ، واستولى على جميع البلاد ، ثم جاء الى دمشق ولو لم يبلغه نعي اخيه لالحق مصر بالبلاد الاخرى ومع هذا فقد

ترك في هذه النواحي كيتوبوقا ، وهو كالاسد الهصور والتنين القوي في الكمين ، واذا قصد مصر فلن يكون لاحد قدرة على مقاومته . فيجب ان تتدبروا الامر قبل فوات الفرصة » .

هذا هو البيان الموجز الذي افتتح به الحاكم المصري الملك المظفر مؤتمره العسكري .

انه يبسط الامر على حقيقته لا يحاول ان يهول ولا ان يهون ، ومن خير ما فيه هذه الشورى ، او اذا شئت بلسان العصر الحاضر هذه الديموقراطية السليمة .

فبالرغم من ان المتكلم هو صاحب مصر ، والجيوش جيوشه ، والبلاد بلاده ، والعواقب تعود عليه وعلى بلاده وبالرغم من انه مستطيع ان يفرض الرأي الذي يريد ، فأما تسليم او قتال ، فانه لم يشأ الا ان يشرك حتى ممثلي البلاد الاخرى في الرأي وان يستمع اليهم .

اصغى المؤتمرون الى بيان الحاكم المصري بتفهم واستيعاب ، فكان اول المجيبين ناصر الدين قيمري ، فقال من جملة كلام له :

«ان البلاد الممتدة من تخوم الصين الى باب مصر هي الآن كلها في قبضة هولاكو ، فلو ذهبنا اليه لطلب الامان ، فليس في ذلك عيب وعار ، ولكن تناول السم بخداع النفس واستقبال الموت امران بعيدان عن حكم العقل ، انه ليس بالانسان الذي يطمأن اليه ، وهو لا يفي بعهده وميثاقه ، فانه قتل فجأة خورشاه ، وحسام الدين عكة ، وصاحب اربل بعد ان اعطاهم العهد والميثاق ، فاذا سرنا اليه فسيكون مصيرنا مصيرهم» .

فرد الحاكم المصري :

«ان كافة بلاد ديار بكر وربيعة والشام ممتلئة بالمناحات والفجائع ، واضحت

البلاد من بغداد حتى الروم خرابا يبابا ، وقد قضي على جميع من فيها من حرث ونسل ، فلو اننا تقدمنا لقتالهم فسوف تخرب مصر خرابا تاما كغيرها . وينبغي ان نختار مع هذه الجماعة التي تريدبلادنا ، واحدا من ثلاثة . الصلح او القتال او الجلاء عن الوطن. أما الجلاء عن الوطن فامر متعذر، وذلك لانه لا يمكن ان نجد مقرا لنا الا المغرب وبيننا وبينه مسافات بعيدة» .

كان يبدو من لهجة الحاكم المصري انه ميــــال الى المسالمة ولكن الحقيقة ان المسالمة لم تكن من رأيه – كما تبين فيما بعد – لكنه لم يشأ ان يفرض الحرب ، بل فضل ان تكون بقرار جمـــاعي او ان يفوض الامر اليه . وعندئذ يقررها اعتمادا على التفويض ، وهكذا كان .

فقد رد ناصر الدين القيمري قائلا :

«وليس هناك مصلحة ايضا في مصالحتهم اذ انه لايوثق بعهودهم» .

واذن فقد اصبح الطريق ممهدا لاتخاذ قرار مشرف . ان المسؤول عن مصر يبرهن على استحالة الجلاء . والقيمري يبرهن على استحالة المصالحة . ولكن بقي رأي آخر باستطاعته ان يبرهن على عقم المقاومة ، على انه بعد الرأيين السابقين ، وما فيهما من وضوح ، لم يعد باستطاعة هذا الرأي الاخير الا ان يلجلج دون ان يفصح . لذلك رأينا بقية الحاضرين – وكان معظمهم قد ذاق مرارة الهزيمة امام هولاكو فخمدت عزائمهم وضعفت هممهم ومالوا الى التسليم – يقولون لصاحب مصر قطز :

« – ليس لنا قدرة ولا طاقة على مقاومتهم فمر بما يقتضيه رأيك» .

فقال الملك المظفر :

– ان الرأي عندي هو ان نتوجه جميعا الى القتال . فاذا ظفرنا فهو المراد والا فلن نكون ملومين امام الخلق .

وكانت كلمته حاسمة ، فقر الرأي على وجوب المقاومة . ورأى بعضهم ان يفاجئوا المغول بامر يدل على الحزم والمضي في القتال دون هوادة ويقطع الطريق على اية دعوة انهزامية فاشاروا بقتل رسل المغول. فاستصوب الملك هذا الرأي وامر بصلب الرسل في الليل .

ولقائل ان يقول :

وما ذنب الرسل، والرسل في كل الشرائع لا تقتل ..

ولكن الذي يطالب بمثل هذا ينسى ان المغول امتهنوا الشرائع ، وغدروا بالرسل ، وخانوا المستأمنين ، ونقضوا العهود ، وان كل مـــا يمكن ان يرهب هؤلاء القوم هو حلال في كل شريعة صحيحة ، وان الامر كما قال علي بن ابي طالب عليه السلام : الوفاء لاهل الغدر غدر عند الله ، والغدر باهل الغدر وفاء عند الله.

المغول على ابواب مصر

كانت طلائع المغول قــد وصلت الى غزة – كما تقدم – ، وكان قد عسكر فيها جيش قوي بقيادة القائد المغولي (بايدر) ، وكان هذا القائد يتهيأ للهجوم على مصر ، فلما اتاه خبر صلب الرسل ارتاع لذلك وتردد في التقدم، ورأى ان يراجع قائده الاعلى (كيتوبوقا) الذي كان يعسكر بالقرب من مدينة بعلبك ، فاستشاط هذا غيظا وامر (بايدر) بان لا يتقدم قبل وصوله .

ولكن المصريين كانوا قد تخلوا عن الدفاع وعزموا على ان يبدأو بالهجوم ، فاقتحم جيشهم غزة وطاردوا (بايدر) حتى نهر العاصي . فزاد هذا التحدي من غضب كيتوبوقا واسرع بجيوشه لتأديب المصريين واثقا من نفسه مطمئنـــا الى جبروت قواه .

وكان المصريون موقنين ان الشجاعة وحدها لا تحسم الموقف ، وان الاستماتة لا تكفي لرد الاعداء ، فلا بد من اعمال الرأي لان الجيش القادم جيش خطر ، كثير العدد ، واضح الشجاعة ، مرهوب الجانب . لهذا تعمد الملك المظفر اعمال

الحيلة فعبأ جيشه في كمين تعبئة محكمة ، وخرج هو ببضعة آلاف يقـــابل المغول وجها لوجه في (عين جالوت) [١] فرشقته سهام المغول رشقا عنيفا ، وكروا عليه كرة زلزلته عن مواقفه فانهزمت جيوشه وتراجع، فتعقبه المغول واعملوا السيف في المصريين المنهزمين فقتلوا منهم كثيرا، ولكن لم تلبث ان طلعت عليهم الكمائن المصرية من ثلاث جهات فصدمتهم صدمة عنيفة صمدوا لها من الفجر الى منتصف النهار واستقتل الفريقان، ولكن المفاجأة المصرية اثمرت ثمارها في زعزعة صفوف المغول ، فلم تلبث بشائر النصر أن لاحت للمصريين ، ولم تلبث الجموع المغولية ان اخذت بالتصدع ، ولم تلبث الهزيمة ان حاقت بها .

وابى (كيتوبوقا) ان ينهزم، وآثر الموت على الفرار، وصمد يجالد بسيفه جلادا عنيفـــا ، ولكنه في النهاية سقط اسيرا وسيق مكبلا الى الملك المظفر ، فعنفه مذكرا اياه بالدماء التي سفكها والعهود التي نكثها . فعاد المغولي يهدد ويتوعد قائلا من جملة كلامه : «ستطأ سنابك خيل المغول من اذربيجان حتى ديار مصر ، وستحمل رمال مصر في مخالي خيولهم الى هناك ، ان لهولاكو ثلاثمائة الف فارس مثل كيتوبوقا ، فافرض انه نقص واحد منهم» .

ولكن رأس كيتوبوقا طاح عن جسده ومضى المصريون يطاردون المغول في الديار الشامية ويطهرونها منهم حتى بلغوا شاطىء الفرات .

ومضى تهديد كيتوبوقـا في الهواء . ولم يكتب لسنابك خيل هولاكو ان تعود فتطأ تراب الشام ورمال مصر مرة ثانية .

---

(١) تقع عين جالوت في فلسطين بين بيسان ونابلس وحدثت المعركة في رمضان السنة ٦٥٨ هـ — ١٢٦٠ م .

سيف الدين قطز و نصير الدين الطوسي

تتعرض الامم احيانا الى مواقف يتزلزل فيها كيانها ويتهشم وجودها ، فتغدو وكأنها شلو ممزق ، فقد الرأس والاطراف .

هنا تتجلى كوامن العزائم وتبرز مخبآت العبقريات ، فيقيض الله للامة من لم تكن تحسبهم شيئا فاذا هم كل شيء .

هذا ما صار اليه امر العرب والمسلمين بسبب الغزو المغولي الثاني بقيادة هولاكو حين استطاع تدمير البلاد والعباد ، وقضى على آخر رمز اسلامي قضاءه المبرم وحل ما كان قد بقي من روابط يمكن ان تشد البلاد بعضها الى بعض ، واخمد كل صوت يمكن ان يستصرخ مستنجدا ويستثير محمسا . فعادت الامة قطيعا سائبا تتعاوره الذؤبان وتعيث فيه السباع ، ونعى الاسلام نعاته ، ورثاه رثاته ، وخيل للناس ان الوثنية سادت وان لاقائمة تقوم بعد لكلمة التوحيد.

ولكن الاسلام ، وقد كان أحيى بعبقريته الشعوب وخلق النور الساطع من الظلام الدامس، لم يكن ليستسلم بمثل تلك السهولة التي حسبها الضعفاء ، فجذوته التي هزت الكون قبل اليوم ، كان لا يزال منها قبسات في نفوس بنيه ، فمن قلب اليأس برز الأمل في عزم رجلين اثنين قيض لهما أن ينقذا الاسلام من أخطر بلاء أصابه . ومن المؤسف أن الجمهور الاسلامي يجهل كل شيء عنهما ، بل ان الخاصة الاسلامية نفسها لا تكاد تعرف الا لمحات خاطفة عنهما ، في حين أن بعض من احيطت اسماؤهم بالتهويل والتطبيل في بعض الأحداث الاسلامية ليسوا بأهل لشيء من هذا ، وكان نصيبهم من العمل نصيباً لا يستحقون عليه ذرة من هذا الأجر الضخم .

هذان الرجلان متناقضان في كل شيء ، فلقد جرى كل منهما في طريق لا صلة لها بطريق الآخر ، وكانت وسيلة كل واحد منهما مختلفة عن وسيلة الثاني ، بل ان واحداً منهما لم يتصل بزميله ولم يتعرف اليه ولم يدر عن خططه شيئاً ، بل عمل كل فيما هيء له وسار في الطريق التي لايحسن السير في غيرهــا . ولو أنه انحرف عنهــا قيد شعرة لتعسف السبيل وضل الدرب وتاه وأتاه معه العروبة والاسلام .

هذان الرجلان البطلان هما الملك المظفر سيف الدين قطز حاكم مصر (١٢٥٩ – ١٢٦٠ م) والعالم الفيلسوف نصير الدين الطوسي (١٢٠١ – ١٢٧٤ م) .

وقصة الأول منهما ذكرت فيما تقدم ، فلا أعيد منها هنــا شيئاً سوى القول بأن هذا الرجل العظيم استطاع أن يبطل اسطورة الجيش الذي لا يغلب فهزم المغول في عين جالوت (١٢٦٠ م) هزيمة لم يتوقعها أحد ، بل خاض في الأصل معركة لم يتوقع خوضها أحد .

لقد انتصر في عين جالوت على المغول انتصاراً يمكن القول من ناحية أنه كان حاسماً ، هذا اذا اعتبرنا النتائج البعيدة التي أدى اليها هذا النصر . فان الزحف المغولي منذ تقدم بقيادة هولاكو لم يوقفه شيء وانهارت أمامه جميع القوى ، حتى خيل للناس في كل مكان انه ماض في فتوحه حتى النهاية ، وأن مصر هي هدفه الثاني بعد الشام ، وان هذا الهدف كغيره من الأهداف قريب المنال ومتى استصفى المغول مصر فانهم سيمضون حتما الى ما هو أبعد ، ولا يعلم الا الله أين سيقفون .

وفي الواقع لو قدر للمغول الانتصار العسكري في «عين جالوت» لكان الأمر كما ظن الناس ولكن المقاومة الباسلة التي لقوهــا عند حدود مصر ، والصمود الرائع الذي أعده لهم الملك المظفر ، ثم الهزيمة الكاسحة التي الحقها بهم المصريون بقيادته : ان ذلك أثبت أولا ان المغول يمكن أن يهزموا ، ثم وضع حــداً لتقدمهم ، ولم يكتف بردهم عن مصر ، بل ردهم عن الشام أيضاً ، ومن هنــا يمكن اعتبار النصر المصري في «عين جالوت» نصراً حاسماً .

نصير الدين الطوسي

كان نصير الدين الطوسي ضحية من ضحايا الغزو المغولي الأول، حينما اجتاحت جحافل جنكيز خان (١٢١٥ – ١٢٢٧ م) البلاد الاسلامية ودمرت ما مرت به منها . وكان من تلك الضحايا مدينة نيسابور التي كانت تعج بالعلماء وتزخر بالمدارس .

ولم يكتف المغول بتدمير المدينة بل اعملوا السيف في الناس ، فقتل من قتل واستطاع الفرار من استطاع ، وكان بين الناجين نصير الدين الطوسي ، فهام على وجهه يطلب الملجأ الأمين فوجده في قلاع الاسماعيلية الحصينة ، تلك القلاع التي صمدت وحدها لجنكيز خان وصدته عن أسوارها ، فظل حقد المغول مضطرماً على الاسماعيليين الى أن استطاعوا الثأر منهم في عهد هولاكو حفيد جنكيز .

ولم يكن نصير الدين وحده هو الذي احتمى بهذه القلاع ، بل لقد لجأ اليها كثير ممن استطاعوا الفرار والنجاة .

وعندما تقدم المغول في غزوهم الثاني ، وأعاد هولاكو سيرة جده ، كانت الحملة هذه المرة من القوة بحيث هابتها القلاع الاسماعيلية فلم تستطع لها صدا ، ونزل الأمير الاسماعيلي ركن الدين خورشاه على حكم المغول ، فكان حكمهم قتله وقتل أعوانه ومن لجأ اليه ، واستثنوا من ذلك ثلاثة رجال كانت شهرتهم العلمية قد بلغت هولاكو فأمر بالابقاء عليهم ، ولم يكن هذا الابقاء حباً للعلم وتقديراً لرجاله ، بل لأن هولاكو كان بحاجة الى ما اختص به هؤلاء الثلاثة من معارف ، فاثنان منهم كانا طبيبين هما موفق الدولة ورئيس الدولة، والثالث كان مشهوراً باختصاصه في أكثر من علم واحد هو نصير الدين الطوسي ، وكان مما اختص به علم الفلك، وكان هولاكو مقدراً لهذا العلم تقدير حاجة لا محض تقدير، مؤمناً بفائدته له . لذلك رأيناه بعد ذلك يعنى بانشاء مرصد «مراغة» ويوفر له كل ما يستدعي نموه وتقدمه ...

جمع نصير الدين الطوسي الى العلم الواسع العقل الكبير ، فتريك سيرته رجلا من افذاذ الرجال لا يمر مثله كل يوم . وتشاء الأقدار ان تعده لمهمة لا ينهض لها الا من اجتمعت له مثل صفـــاته : علم وعقل وتدبير وبعد نظر ، فكان رجل الساعة في العالم الاسلامي ، هذا العالم الذي كان مثخناً بالجراح .

كانت مهمة الطوسي من أشق المهات ، وكانت ازمته النفسية من أوجع ما يصاب به الرجال ، فانه وهو العالم الكبير ذو الشهرة المدوية بين المسلمين ، يرى نفسه فجأة في قبضة عدو المسلـــين ، ويرى هذا العدو مصراً على ان يبقيه في جانبه ويسيره في ركابه . وانى أين يمشي هذا الركاب ؟ انه يمشي لغزو الاسلام في دياره والقضاء عليه في معاقله ، فهل من محنة تعدل هذه المحنة ؟ .

ان أقل تفكير في التمرد على رغبة القائد المغولي سيكون جزاؤه حد السيف.. واني لأتخيل الطوسي متأملا طويل التأمل ، مطرقاً كثير الاطراق ، لقد كان يعز عليه ان يذهب دمه رخيصاً وان يكون ذلك بارادته هو نفسه ، فلو ان سيفاً من سيوف المغول الجانية أودى به فيمن أودى بهم في رحـــاب نيسابور وسهول ايران لكان استراح . أما الآن فلن يستسلم للقدر الطاغي وسيثور على حكم الزمن الغاشم .

كان الطوسي ذا فكر منظم يعرف كيف يخطط ويدبر . وهو في ذلــك آية من الآيات ، وقد أدرك ان النصر العسكري على المغول ليس ممكنــاً أبداً ، فقد انحل نظام العالم الاسلامي انحلالا تاماً لم يعد معه أمل في تجميع قوة تهاجم المغول وتخرجهم من دياره ، وكانت البلاد المحتلة أضعف من ان تفكر في ثورة ناجحة . على أن الغرب الاسلامي كان لا يزال سليما ، وكانت مصر هي القوة الوحيدة التي تتجه اليها الانظار ، وقد استطاعت مصر ان تذيق المغول مرارة الهزيمة وأن تردهم عنها ، ولكنها لم تكن مستطيعة أكثر من ذلك ، فمهاجمة المغول فيما احتلوه من بلاد بعيدة واخراجهم من تلك البلاد كان فوق طاقة مصر .

وفكر نصير الدين طويلا فـايقن انه اذا تم للمغول النصر الفكري ، بعد النصر العسكري ، كان في ذلك القضاء على الاسلام ، وها هو يرى بأم عينيه الكتب تحرق والعلماء يقتلون ، فماذا يبقى بعد ذلك ؟ ..

لقد استغل حاجة هولاكو اليه ، وحرصه على ان يكون في معسكره فلكي عالم بالنجوم ، فعزم على كسب ثقته واحترامه فكان له ما أراد ، وصار له من ذلك سبيل لانقاذ أكبر عدد من الكتب وتجميعها ، كما استطاع ان ينجي من القتل الكثيرين ممن كانوا سيقتلون .

ولما استتب الأمر لهولاكو خطا نصير الدين خطوته الأولى، وكانت هذه المرة خطوة جبارة فقد أقنعه بان يعهد اليه بالاشراف على الاوقاف الاسلامية والتصرف بمواردها بما يراه ، فوافق هولاكو . وتطلع نصير الدين فرأى أن المسلمين كانوا قد وصلوا من الانحلال الفكري الى حد أصبح العلم عندهم قشوراً لالباب فيها ، وانهم حصروا العلم في الفقه والحديث وحدهما ، وحرموا ما عداهما من سائر صنوف المعرفة التي حث عليها الدين العظيم ، وانصرفوا عن العلوم العملية انصرافاً تاماً . فأعلن افتتاح مدارس لكل من الفقه ، والحديث والطب ، والفلسفة ، وانه سيتولى الانفاق على طلاب هذه المدارس ، ولكنه سيجعل لكل واحد من دارسي الفلسفة ثلاثة دراهم يومياً ، ولكل واحد من دارسي الطب درهمين ، ولكل واحد من دارسي الفقه درهماً ، ولكل واحد من دارسي الحديث نصف درهم ، فاقبل الناس على معاهد الفلسفة والطب ، بعدما كانت من قبل تدرس سراً .

أحرز نصير الدين النصر الاول في معارك الاسلام ، فالعلم لن ينقطع بعد اليوم ولن يجمد المسلمون عن طلبه ، ثم انصرف يخطط للمعركة الكبرى الكاسحة . فاذا كان أنشاء المدارس المتفرقة لن يلفت هولاكو اليها ، ولن يدرك أهميتها ، فان انشاء الجامعة الكبرى وحشد العلماء فيها وحشر الكتب في خزانتها ، سيكون حتما منبها لهولاكو فكيف العمل ؟ .

هنا تبدو براعة الطوسي ، فهولاكو استبقاه لغاية معينة ، فراح يقنع هولاكو بانه من أجل استمراره في عمله والاستفادة من مواهبه لا بد من انشاء مرصد كبير فوافق هولاكو على انشاء المرصد ، وفوض لنصير الدين المباشرة بالعمل .

لقد كانت هذه الموافقة الحلم الأكبر الذي حققته الايام لنصير الدين وبات بعدها مستريحاً للمستقبل لا يشغله شيء الا الاعداد الدقيق والتخطيط السليم الموصل الى الغاية القصوى .

يقول الدكتور علي أكبر فياض : «كان يعيش عند ذاك رجل يعد من أكبر المشتغلين بالعلوم العقلية بعد ابن سينا ، الا وهو نصير الدين الطوسي . قدر لهذا الرجل العظيم ان يقوم بانقاذ التراث الاسلامي من أيدي المغول» .

ويقول الاستاذ مدرسي : « استطاع الطوسي بتأثيره على مزاج هولاكو ان يستحوذ تدريجياً على عقله وان يروض شارب الدماء فيوجهه الى اصلاح الأمور الاجتماعية والثقافية » .

ضخم نصير الدين امر المرصد لهولاكو واقنعه انه وحده أعجز من أن يرفع حجراً فوق حجر في ذلك البناء الشامخ ، وانه لا بد له من مساعدين أكفاء يستند اليهم في مهمته الشاقة ، وانه لا مناص من أجل ذلك من ان يجمع عدداً من الناس المختارين ، سواء في البلاد المحتلة او في خارجها ، فوافق هولاكو على ذلك.

وهنا هب نصير الدين الى اختيار رسول حكيم هو فخر الدين لقمان بن عبد الله المراغي ، وعهد اليه بالتطواف في البلاد الاسلامية ، وتأمين العلماء النازحين ودعوتهم للعودة الى بلادهم ، ثم دعوة كل من يراه كفؤاً في عمله وعقله من غير النازحين .

ومضى فخر الدين يؤدي مهمته على أحسن الوجوه ، وقصد الى اربل والموصل والجزيرة والشام ، فعاد الهاربون ولبى الدعوة غيرهم فجاءوا من كل مكان . جاءوا من دمشق والموصل ، وقزوين وتفليس وغيرها . وتحلقوا حول

نصير الدين يعدون العدة لانشاء أكبر معهد علمي عرفه العالم الاسلامي ، سائرين هدفهم بالمرصد ، مخلفين طريقهم بالافلاك والنجوم . بل لقد بلغت الدعوة أقاصي المغرب فكان من المغاربة يحيى بن أبي الشكر المغربي الذي كان أحد الستة الذين اختارهم نصير الدين ليكونوا اللجنة العليا المشرفة على العمل .

يقول الدكتور مصطفى جواد : « التحق نصير الدين الطوسي بهولاكو لينجي نفسه من الهلاك ، وليأتي بمعجزة القرن السابع وهي نشر العلوم في الشرق وتأسيس أول أكاديمية علمية فيه بالمعنى العلمي الحديث الذي تدل عليه كلمة Academie ، واقامة أعظم مرصد عرف في الشرق وانشاء اول جامعة حقيقة من النوع المعروف اليوم بال Universite .

وكان في طليعة الوافدين الى مراغة العالم الدمشقي مؤيد الدين العرضي الذي ترك لنا رسالة في وصف مرصد مراغة وادارته تحدث فيمقدمتها عن نصير الدين الطوسي فكان مما قاله : « ... وذلك كله باشارة مولانا المعظم والامام الاعظم العالم الفاضل المحقق الكامل قدوة العلماء وسيد الحكماء » .

ثم يقول : « فجميع العلماء اليه وضم شملهم بوافر عطائه وكان لهم ارأف من الوالد على ولده فكنا في ظله آمنين وبرؤيته فرحين كما قيل :

نميل على جوانبه كأنا نميل اذا نميل على أبينا
ونغضبه لنخبر حالتيه فنلقى منهما كرما ولينا

وهو المولى نصير الملة والدين محمد بن محمد الطوسي أدام الله أيامه » .

النتائج الخطيرة

مضى العمل منظما دقيقاً وانصرف العلماء باشراف الطوسي منفذين مخططاً مدروساً ، فلم يمض كبير وقت حتى كانت المكتبات تغص بالكتب ، وحتى كانت مكتبة مراغة بالذات تضم مجموعة قل ان اجتمع مثلها في مكتبة أخرى ، وحتى

كانت المدارس تقام في كل مكان ، وحتى كانت الثقافة الاسلامية تعود حية سوية وحتى كانت النفوس مشبعة بالامل والقلوب مليئة بالرجاء ، وحتى كان الدعاة ينطلقون في كل صوب والهداة ينتشرون على كل وجهة ...

ثم يموت هولاكو ، ولكن الاسلام الذي اراد له هولاكو الموت يظل صحيح البنية ، متوهج الفكر . والعرب الذين عول الطاغية على تحطيمهم يظلون شامخين سالمين ، ثم يموت ابن هولاكو وخليفته (ابقاخان) والاسلام لا يزال بقيادة الطوسي صامداً ، يقاتل ويقاوم ويدعو ويهدي .

ويأتي بعد ابقاخان ، ابن هولاكو الآخر (تكودار) فاذا بالاسلام ينفذ الى قلبه وعقله ، واذا به يعلن اسلامه وتسلم الدولة كلها بعد ذلك .

وكان الطوسي قد مات سنة ٦٧٢هـ (١٢٧٤م) . مات قرير العين وهو يرى طلائع الظفر مقتحمة الدنيا بموكبها الرائع وبشائر النصر هازجة بارفع صوت وأعلى نبرة . مات الطوسي مودعا الأمر الى تلميذه وأقرب المقربين اليه قطب الدين ابو الثناء محمود بن مسعود الشيرازي ، فنهض بالعبء على ما أراده نصير الدين . فلم يجد « تكودار » الذي أصبح اسمه « أحمد تكودار » خيراً من الشيرازي خليفة الطوسي ليكون رسوله الى العالم العربي والاسلامي .

يقول الاستاذ عبد المتعال الصعيدي : « لم يمت نصير الدين الا بعد أن جدد ما بلي في دولة التتار من العلوم الاسلامية وأحيا ما مات من آمال المسلمين بها » .

الى أن يقول : « ... ان الانتصار على التتار لم يكن في الحقيقة بردهم عن الشام في موقعة «عين جالوت» وانما كان بفتح قلوبهم الى الاسلام وهدايتهم له » .

هكذا استطاع نصير الدين الطوسي ان يهزم بالعقل والعلم الدولة الطاغية الباغية ، وأن تنجح خططه في تحويل المغول من وثنيين الى مسلمين .

ونختم القول بما أنشأه قاضي القضاة نظام الدين الاصفهاني في مدح الطوسي

ووصف رصد مراغة فقال :

صفا شرب عيشي في هوى في مراغة ... فظلت كما شاء المنى اتفرج

بها الرصد العالي النصيري مقصدي ... الى الفلك الأعلى به أتدرج

فلله بانيه وطرق ابانها ... الى كشف اسرار الغوامض تنهج

أرى عصب التنجيم أحسن هيئة ... به يستوي ما في التقاويم عوجوا .

دقائق علم لا يجدن توانيا ... حوى درجاً منه الى الغيب يدرج

تسامي الهضاب الشم تبلغ جيدها ... عساها بما يبنى عليها تتوج

فقالت لعمري الخط ارض مراغة ... فمن كل اقليم عليها يعرج

فان عيروا بابن المراغة شاعراً ... مديحي على معنى الهجاء يخرج

بناء لعمري مثل بانيه معجز ... تقر به الالحاظ والنفس تبهج

سيبلغ اسباب السماء بصرحه ... يناغي كعاب الزهر منها تبرج

أقول وقد شاد البناء لذكره ... وشيد قصراً لم يشيد ، متوج

على الزهر ارصاد طلائع فكره ... الى الرصد المعهود من أين يحوج

ترصد لقياه هناك وقربه ... فكان منى من دونها الباب مرتج

ورمت سعود الجد في جنباته ... فساعدني سعد بودي ملهج

وجدت اسمه فالا علي مباركا ... مقدمة منها الميامن تنسج

الى السدة العيلاء شمر ناهضاً ... لتقبيله منه البنان تبيج

فكلفته عرض الدعاء وخدمتي ... وحملته ما في الصحائف يدرج

ورمت على حال وقوف وقوفه ... فهمي ان أنهي اليه يفرج

واحدرت عن تحرير ما انا كاتب ... وصحبي زموا العيس والخيل اسرجوا

لعضد جناب الصاحب الاعظم ارتمت ... صلائح اسفار لما تاب تزعج

تكفل دفع الجو عنهم وانه ... مواعيد صدق صبحها يتبلج

ولولا عوادي الخطب جئت ملبيا ... دواعي اشواق لظاها تأجج

ولاة هولاكو

بعد ان استقر الامر لهولاكو عين ولاة على البلاد التي أخضعها ، فكان ابنه الأكبر آباقاخان واليا على العراق وخراسان ومازندران حتى جيحون . وكان ابنه الآخر يشموت على آران وآذربيجان. وكان الأمير تودان على ديار بكر وديار ربيعة حتى شاطىء الفرات. ومعين الدين بروانه على آسيا الصغرى. والملك صدر الدين على تبريز . والأمير انكيانو على فارس .

وفوض منصب صاحب ديوان البلاد كلها شمس الدين الجويني واطلق يده في كل الأمور . وفوض حكم بغداد الى أخيه الصاحب علاء الدين عطا ملك كما سيأتي .

موته

مات هولاكو سنة ٦٦٣ (١٢٦٥) وكان عمره ثماني واربعين سنة ، عند شاطىء نهر جغاتو في آذربيجان قرب مراغة .

الدولة الايلخانية

بانفراد هولاكو في حكم ما فتحه من بلاد نستطيع القول انه قامت دولة مغولية جديدة مستقلة عن غيرها من المغول كان اول ملوكها هولاكو ، وشملت سلطتها جميع البلدان الممتدة بين نهر جيحون والمحيط الهندي ، ومن السند الى الفرات مع جزء كبير من الاناضول وبعض القوقاس ، عرفت باسم الدولة الايلخانية وكان أهم مقاطعاتها : العراق وايران .

وقد انفصلت الدولة الايلخانية تدريجيا عن الامبراطورية المغولية ، وبعد ان كان الخاقان المغولي يرأس امبراطورية عظيمة في «قراقورم» ، صار الايلخان او السلطان يحكم من مدينة تبريز او السلطانية .

وبعد ان كانت الدولة في أول ظهورها وثنية اخذت تذوب في المدنية الفارسية الاسلامية ، حتى انتهى امرها الى ان اسلمت نهائيا ، وصارت دولة اسلامية بحتة.

ويعتبر هولاكو مؤسسا لهذه الدولة كما يعتبر السلطان ابو سعيد المتوفى عام ٧٣٦هـ (١٣٣٥م) آخر ملوكها الذين دانت لهم المملكة كلها ، ذلك لان ابا سعيد لم يترك ولداً يخلفه في الملك فقام امراء من فروع اخرى للاسرة ، ولكن لم يستطع احد منهم ان يجمع البلاد كلها تحت حكمه . وكان لا يزال يوجد الى العام ٧٥٤هـ امراء عديدون واميرة واحدة هي (ساتي بك) اخت ابي سعيد .

اباقا خان

وبموت هولاكو تولى بعده ابنه الأكبر (اباقا) الذي يعتبر ثاني ملوك الدولة الايلخانية . وبعد ان كان من اهداف الحملة الأولى حملة هولاكو محاربة الصليبيين

والحلول محلهم في سواحل البلاد الشامية ، وفشل تحقيق هذا الهدف بانشغال المغول بهزيمتهم في عين جالوت واضطرار هولاكو الى العودة الى بلاده – بعد ذلك عاد الأمر في عهد اباقا الى العكس اذ عمل اباقا على التحالف مع الصليبيين وغيرهم من نصارى اوربا كما سنرى :

ولد اباقا في بلاد المغول في آذار ١٢٣٤م . ودخل فارس مع ابيه سنة ١٢٥٦ ولما توفي ابوه قرب مراغة في ٨ شباط ١٢٦٥ ، نادى به امراء المغول خانا عليهم ، أي ملكا . وبعد خمسة أشهر ، ولي رسميا ، فضرب النقود باسمه . ثم بعد خمس سنوات ، اعترف به عمه قبيلاي قاخان ، اي الخان الأكبر ، رأس امبراطورية جنكيزخان .

وكان امبراطور بيزنطية ، ميخائيل باليولوغ ، قد قرر زفاف ابنته ماريا دسبينا الى هولاكو . فجهزها باثمن التحف ، وسيرها باطرف الهدايا الى بلاط آذربيجان ، مصحوبة بالبطريرك افتيميوس ، بطريرك انطاكية. على ان هولاكو توفي ، وهي في الطريق اليه ، فتزوجها ابنه أباقا . فتشددت اواصر المودة بين الامبراطور والخان . وكان للملكة الجديدة تأثير قوي في زوجها وأثر بعيد في توجيه سياسته ، نحو رعاية الكنائس الشرقية على اختلافها في داخل بلاده ، ونحو التحالف مع الدول المسيحية في الخارج ، استعانة بقواتها على خصومه المماليك ، حتى قال الراهب ورتان ، احد مؤرخي الأرمن ، ان الاميرة البيزنطية شاءت ان تعمّد الملك قبل حفلة الزواج . ومهما يكن من امر ، فان اباقا لم يخرج عن هذه السياسة طول حياته . فكان يستعين دائماً بالمسيحيين افراداً وامارات ودولاً ، ويشاركهم في أعيادهم ومواسمهم ، ويتبنى قضاياهم حتى الاكليريكية منها . وقد كان الصديق المخلص لكبار احبارهم ، ولا سيما الجاثليق مار دنحا ، بطريرك النساطرة (١٢٦٦ – ١٢٨١) ، وخلفه الجاثليق مار يهبلاها الثالث الذي استقبله في بلاطه بآذربيجان استقبال الاخصاء المقربين ، فخلع عليه بردته ، وقدم له عرشه الصغير ، وأهدى اليه مظلة الشرف ، وصفيحة من الذهب نقشت

فيها الرموز الملكية مع خـاتم الجثلقة . وكذلك كانت علاقاته مع الصليبيين ، وملوك اوربة ، والبابا كما سنرى .

وكان على أباقا ان يواصل ، مستعيناً بمحالفة الامبراطور البيزنطي ، ثم بمحالفة الصليبيين ، الكفاح المستميت الذي باشره ابوه ضد مماليك مصر . الا انه لم يوفق كثيراً في حروبه ، مع ان مغول قبجاق ، الذين كانوا قد اسلموا فحالفوا المماليك ، على عهد هولاكو ، تهادنوا مع ابناء جنسهم في فارس ، بفضل مساعي اباقا . انما بقي عليه ان يقاوم غيرهم من انسبائه المغول ، وهم مغول جاغطاي الذين كانوا يغيرون على حدوده في نواحي خراسان ؛ فيشغلونه عن حرب المماليك في بلاد الشام وما وراءها الى مصر . وكثيراً ما اضطر الى ان يحارب على جبهتين وكان طبيعياً ألا ينجح على كلتيهما ؛ كما حصل له اواخر سنة ١٢٦٩ ، اذ لم يتمكن من ارسال الجيش الكافي للزحف مع صليبية اراغون ، لانهماكه بمكافحة جيوش جاغطاي الزاحفة بقيادة بوراق . فصدها قرب مدينة هرات وكسرها كسرة ضعضعت قوادها . فانتقل اباقا الى الهجوم ، وتجاوز الى ما وراء النهر ، فاخرب مدينة بخارى في اوائل السنة ١٢٧٣ ، وكانت مثابة الجاغطائيين وقاعدة غاراتهم وكان قبل ذلك ، سنة ١٢٦٦ ، قد بنى سوراً على شـاطىء نهر كورا ليصد الغارات الشمالية . وظل على عراك مع تلك القبائل حتى نهاية ملكه . ومن انتصاراته في تلك الحروب تغلغل وزيره شمس الدين في قفقاسية ، واخضاعه قبائلها سنة ١٢٧٨ ؛ ومن انكساراته اجتياح القبائل الجاغطائية جانب مملكته الشرقي ، وتهديدها خراسان سنة ١٢٧٩ .

اما علاقاته بالدول الغربية فكانت متواصلة منذ السنة ١٢٦٧ ، على ما فصله مؤرخو الصليبيين والمغول ، قدماء ومحدثين . وخلاصة اقوالهم ان أباقا كتب الى البابا اكليمنضوس الرابع (١٢٦٥ — ١٢٦٨) عارضاً عليه استعداده لمحالفة الجيوش الصليبية على المماليك . فارسل اليه البابا جوابا مؤرخا بالسنة ١٢٦٧ ، مع موفد خاص اسمه خيم الاريك البربينياني ، كان يمثل في الوقت نفسه ملك أراغون

تخيم الاول . فوصل الوفد الى آذربيجان في اواسط السنة ١٢٦٧ . وكانت رسالة البابا تعلن قدوم حملة صليبية جديدة ، هي حملة لويس التاسع. وعاد الوفد في السنة التالية الى اوربة مصحوبا بممثلين عن أباقا .

على ان أباقا كان مشغولاً بالدفاع عن خراسان ، وصد حملة بوراق التي اشرنا اليها . ومع هذا تظاهر مع صليبية أراغون . فأرسل فرقة هددت ممتلكات المماليك في بلاد الشام ، في منتصف تشرين الاول ١٢٦٩ .

وعزز هذا الحلف الصليبي المغولي ادوارد الأول ، ملك انكلترة ، حال نزوله في عكا ، في ٩ ايار ١٢٧١ . فارسل الى أباقا وفداً من ثلاثة امراء . فتفاوضوا في شأن التفاهم بين زعماء الجيشين ، والاتفاق على وقت يهجمون به معاً على المماليك . ووصلت جيوش المغول الى سورية في اواخر تشرين الاول ١٢٧١ . الا ان اباقا ، الذي كان لا يزال يكافح قبائل جاغطاي في خراسان ، لم يستطع ان يرسل اكثر من ١٠٠٠٠ فارس بقيادة سماغار . فاكتسح الجيش منطقة حلب من طريق عينتاب ، وقضى على الحامية المماليكية بين حارم وإنطاكية فهربت حامية حلب الى حماه . ثم اكتسح المغول جميع المناطق في ما وراء العاصي ، من حارم ومعرة النعمان الى افامية ، او قلعة المضيق . فتوالى هرب السكان نحو الجنوب ، حتى ان كثيراً من سكان دمشق نفسها اخذ بهم الهلع ، فهربوا الى مصر .

الا ان المغول اضطروا الى التراجع امام جيش المماليك الفائق عدداً . وهو ما اعتذر به أباقا لدى ادوارد الاول ، في انكلترة نفسها ، بلسان موفديه الستة الذين وصلوا لندن في ٢٨ اذار ١٢٧٧ ، للمفاوضة في اعادة الحلف السابق .

ومنذ اواخر السنة ١٢٧٣ ، اخذ اباقا يرسل الوفود الى اوربا . وقد حمل اولى رسائله الى ادوارد الاول الراهب الدومنيكي داود ، خوري بطريرك اورشليم

تومادو لنتينو . فاجابه الملك في ٢٦ كانون الثاني ١٢٧٤ بانه لا يستطيع تعيين يوم نزوله في سورية .

ثم ارسل اباقا موفدين الى البابا غريغوريوس العاشر (١٢٧١–١٢٧٦) فقدّما اليه بواسطة بعض الرهبان الفرنسيين ، في صيف ١٢٧٤ ، في اثناء انعقاد مجمع ليون . وقد قبل الموفدان المعمودية من يد مطران اوستية . ولما تأخر اقرار الحملة الصليبية الجديدة ، أرسل اباقا ، بالاشتراك مع ملك الارمن لاون الثالث ، وفداً ثالثاً ، مؤلفاً من جان وجاك فاسلوس ، الى البابا ، والملك ادوارد الاول وسائر ملوك المسيحية ، وذلك سنة ١٢٧٦ . واخيرا ارسل الستة الموفدين الذين وصلوا لندن في ٢٨ اذار ١٢٧٧ ، كما ذكرنا .

وكان المماليك في تلك السنوات يشنون غاراتهم على مملكة أباقا ، ومملكة حليفه لاون الارمني مما يلي الحدود السورية . ففي نيسان ١٢٧٧ ، غزا بيبرس بلاد قيليقية ، فنهب ادنه وطرسوس وليّاس . وتقدم الى بلاد السلاجقة في الاناضول وكانت هذه تحت حماية المغول . فكسر الجيش المغولي المرابط في ألبستان على جيحون الاعلى . ثم احتل قيصرية . على انه لم يقم هناك ، بل تراجع الى بلاد الشام .

فاسرع أباقا من بلاد فارس . واستعاد المنطقة باسرها . وأمر بقتل واليها التركي الذي نما اليه تواطؤه مع بيبرس . وعزز حلفه مع الملك لاون الثالث ، وبالتالي مع المسيحيين .

ثم توفي بيبرس مسموماً ، في ٣ حزيران ١٢٧٧ . فاضطرب حبل الملك مدة ، حتى استبد به السلطان قلاوون في آخر السنة ١٢٧٩ . ولم يلبث أن نشبت الحرب من جديد بين قلاوون وسنقر الأشقر . فاستدعى هذا المغول لنصرته . فأسرع أباقا ، مستفيداً من حلف لاون الثالث والاسبتالية ، وأرسل فرقة استكشافية في أيلول ١٢٨٠ ، فاحتلت عينتاب ، وبَغراس ، ودربساك ، وأشرفت على حلب في تشرين الاول ، فهرب أكثر سكانها الى دمشق . فدخلها

المغول مجدداً ، وأعملوا فيها السيف والنار ، محرقين المساجد والمدارس ، قائدين للاستعباد مَن لم يُذبح من أهلها . وكان الاسبتالية قد مشوا من المرقب على بلاد الحصن فالتقوا بالمماليك ، وبعد صراع عنيف ، انتصروا عليهم ، فبدّدوا شملهم في آخر تشرين الأول . فازداد الحلف قوة بهذا الانتصار السريع . وتقدم موفد مغولي الى بلاط عكا الصليبي ، واعداً باسم مليكه ، بأن يُرسل في السنة التالية خمسين الف فارس ، وخمسين الف راجل لمساعدة الفرنجة في سورية ، شرط أن يستقدم هؤلاء من أوربة عدداً من الرجال والمعدات . فأرسل الأسقف جوفروى الى ادوارد الأول بهذا العرض .

بيد ان السلطان قلاوون لجأ الى الدهاء في تفكيك تلك الجبهة المتكتلة ضده . فتفاهم مع خصمه سنقر الأشقر ، تاركا له حكم انطاكية وأفامية . ثم عمل على عقد هدنة مع الفرنجة مدتها عشر سنوات ، ليفصلهم عن حلف المغول . أمـــا هؤلاء فشوا ، في أيلول ١٢٨١ ، مجدداً على بلاد الشام في فرقتين : فرقة أتت بطريق الجزيرة العليا ، وعلى رأسها أباقا نفسه ، فبدأت بحصار الرحبة على الفرات ؛ وفرقة بقيـادة أخيه مَنغو تيمور ، نزلت من قبادوقية بطريق عينتاب . فشى معها لاون الثالث في ثلاثين الفاً من خيالته الأرمن ، والكرج ، والروم ، وبعض الفرنجة من غير المناطق التي وافقت على الهدنة مع قلاوون . فصعد الجيش وادي العاصي، متوقفاً أمام حمص في ٣٠تشرين الأول١٢٨١. وهنا أدركه جيش المماليك في عدد وافر ، يقوده السلطان قلاوون بنفسه ، ويعاونه الملك المنصور الأيوبي ، ملك حماه ؛ والمملوك لاجين ، قـائد جيوش الشام ؛ وسنقر الاشقر ، خصمه بالأمس ؛ وعدد كبير من مرتزقة البدو والتركمان . فدارت رحى معركة طاحنة كانت آخر الاحداث الحربية في حكم أباقا . وكان النصر ، أول المعركة ، للجيش المغولي ، اذ حمل الملك لاون على ميسرة المماليك ، فبدّدها في الآفـاق ، ولحق رجاله شُذّاذها ، فشُغلوا بالنهب ، بينما كان قلب الجيش المغولي ، وقـد جُرح قائده الامير منغو تيمور ، يتراجع متضعضعاً أمـام المماليك . وهكذا انقلب

النصر كسرة مشؤومة . على ان قلاوون، وقد ضعف جيشه كذلك بفقد ميسرته لم يجرؤ على اللحاق بالمغول الى ما وراء الفرات .

وتوجه أباقا، بعد ذلك، الى بغداد ومنها الى همذان. «وفي يوم عيد النصارى الكبير لتلك السنة (١٢٨٢) ، دخل الى البيعة في تلك المدينة ، وعيّد مع النصارى» ، على قول ابن العبري . وبعد أيام توفي[١] .

(١) البستاني في دائرة المعارف .

علاقة المغول بالنصارى

ولا بد بعد ذلك من التطرق الى علاقة المغول بالنصارى بوجه عام . فبعد ارغون يلاحظ ان مكانة اليهود والنصارى في الدولة الايلخانية أخذت بالتدني لأن قبائل المغول اتجهت الى الاسلام منحرفة عن وثنيتها وذلك منذ أواخر المائة السابعة الهجرية ولم يسبق الى ذلك الحين ان يغشى سلاطين المغول وامراؤهم الجوامع والمساجد للصلاة ولكن السلطان غازان بن أرغون ، وهو الذي خلف أباه على سرير المملكة سنة ٦٩٤ كان أول من يؤدي فريضة الصلاة من سلاطين المغول في الجوامع فيحذو حذوه الأمراء والصدور وجمهرة الشعب المغولي الفاتح في الشرق ، وغازان هو أول من يشدد على غير المسلمين ، ويلزمهم الغيار ويسترد منهم ما غصب من الأملاك الجليلة والأموال الطائلة العائدة للخلفاء العباسيين وغيرهم من أعيان الدولة العباسية بعد سقوط بغداد .

ولا يخفى ان فريقاً من نصارى الشرق ونصارى الجزيرة والموصل انتهزوا فرصة زحف المغول على العالم الاسلامي ، وانقراض الخلافة العباسية وزوال سلطانها فتقربوا الى بعض أمراء الدولة الغالبة بعد سقوط بغداد مباشرة أي في دولة الطاغية هولاكو فاتح البلاد ، فوضعوا اليد بأمر من الطاغية المذكور على جملة من الأملاك والأموال[1] من حيث سقطت بغداد الى أن جلس غازان على

---

(١) عقد مؤلف كتاب الحوادث الجامعة فصلا عني فيه بالاشارة الى نظام الحكم في بغداد بعد سقوطها ، والاجراءات التي تمت في هذا الباب ، وتعيين الصدور والنظار والنواب ، وقد سمى هؤلاء واحداً واحداً وذكر المناصب الديوانية والادارية والمالية التي اسندت اليهم منصباً منصباً ، ولم تفته الاشارة الى الاستيلاء على منازل كبار رجال الدولة العباسية وأعيانها ، واحلال أعيان النصارى محلهم فيها، وفي هذا الفصل يقول صاحب الحوادث الجامعة ما يأتي: «سلمت مفاتيح دار=

سرير المملكة الايلخانية ، أو نحواً من أربعين سنة ، ومما لا شك فيه أن أمراء الدولة المغولية كانوا يعرفون جيداً ان الذميين في العراق من نصارى ويهود قلة مكثورة بالمسلمين ، ومن شأنهم التظلم والشكوى وطلب الحماية والمساواة من هؤلاء الغالبين ، واعتقد المغول ان في محاسنتهم لهذه الأقليات فائدة سياسية لهم ، فأدنوهم وقربوهم وان لم يدم ذلك الا قليلا ، ومما يدل على أن اتصال رؤساء النصارى بالمغول بدأ مع زحف القبائل المغولية على العالم الاسلامي مبتدئين بالدولة الخوارزمية واجتياحهم حدودها في ما وراء النهر فالبلاد الفارسية نقول مما يدل على ذلك ان نصارى العراق سلموا من القتل العام بعد فتح بغداد ، وفي هذا الصدد يقول صاحب الحوادث الجامعة : «ان السيف وضع في أهل بغداد وقتل الرجال والنساء والصبيان والأطفال فلم يبق من أهل البلدة ومن التجأ اليهم من أهل السواد الا القليل ما عدا النصارى فانهم عُين لهم شحان حرسوا لهم بيوتهم ، والتجأ اليهم خلق كثير من المسلمين فسلموا عندهم»[1] وذكر مؤلف كتاب الحوادث بعد ذلك بعد الدور التي سلمت من الدمار .

هكذا عني المغول الفاتحون بحماية النصارى خاصة داخل بغداد ، ولا يعقل ان ذلك تم مصادفة أو فجأة، والغالب أنه وقع طبق خطة مرسومة أو حسب اتفاق بين سلاطين المغول وزعماء النصارى قبل وصولهم الى العراق . كان المغول شعباً ساذجاً بدويا وثنياً اتصل بهم ولا شك دعاة الاسلام قبل زحفهم المدمر على الشرق، أو في أثنائه أو من بعد ذلك كما اتصل بهم دعاة النصارى وهم من الغربيين على الأكثر .

=الخليفة الى مجد الدين محمد بن الأثير، وجعل أمر الفراشين والبوابين اليه، وتقدم الجاثليق بسكنى دار علاء الدين الطبرسي الدويدار الكبير التي على شاطىء دجلة فسكنها، ودق الناقوس على أعلاها، واستولى على دار لاقفلك التي كانت رباطاً للنساء تجاه هذه الدار وعلى الرباط المجاور لها ، وهدم الكتابة التي كانت على البابين ، وكتب عوضها بالسرياني» ص (٣٣٢ – ٣٣٥) .

(١) كتاب الحوادث (٣٢٩ – ٣٣٠) .

في هذه الفترة من تاريخ هذا الصراع انجذب كثير من المغول الى الاسلام وكان نجاح النصارى دون نجاح المسلمين بكثير ، ولنا ان نقول ان دعـــاة النصرانية غربيين وشرقيين منوا فيها بفشل ظاهر ومع ذلك انتحل النصرانية عـــدد غير قليل من أفراد القوم ، والى هذا العدد القليل من المغول الذين انتحلوا النصرانية في تلك الفترة يجب ان تعزى تلك المجاملة الوقتية والوجاهة الملحوظة التي نالهـا نصارى بغداد بعد سقوطها على أيدي المغول مباشرة على ما رأيت ، وقد يكون لبعض الأميرات المغوليات اللواتي انتحلن النصرانية دخل في حمـــاية نصارى العراق ، ونذكر من بين الاميرات المغوليات المتنصرات الاميرة (دوقوز) وهي من زوجات هولاكو اللواتي اصطحبهن معه الى الشرق ، أثنى عليها ابن العبري ناعتاً اياها بالأميرة المؤمنة المسيحية[1] وقال أيضاً وكانت عظيمة في رأيها وخبرتها ، وفي تاريخ ابن العبري رواية عن دخول السلطان اباقا بن هولاكو في سنة (٦٧٩) الى بيعة في همذان في يوم عيد النصارى الكبير ، وعيّد مع النصارى ، ويحاول ابن العبري الاستدلال على تنصر هذا السلطان استناداً الى هذه الرواية ، ولكنهـــا ليست قاطعة في هذا الشأن ، والواقع ان اباقا بن هولاكو ثاني سلاطين المغول في فــارس والعراق أنشأ صلات قوية مع بعض الدول الصليبية أو مسيحيي الغرب — كما تقدم — تجمعهم في ذلك عداوة ســـلاطين المماليك الذين اوقفوا هولاكو الزاحف الى الغرب عند حده .

تلك هي رواية مؤرخي المسلمين ومنهم مؤلف كتاب الحوادث بشأن مجاملة المغول للنصارى فور سقوط بغداد ، وقد سكت ابن العبري وهو من مؤرخي عصر المغول المعــاصرين لابن الفوطي ولمؤلف الحوادث الجامعة ولغيرهما من مؤرخي الفترة المذكورة ، نقول سكت عن تسجيل هذه المجاملة المغولية للنصارى مع انه — أي ابن العبري — من اشهر المؤلفين والمؤرخين في النصرانية ، ولم ترد اشارة ما

---

(١) تاريخ مختصر الدول لابن العبري ط بيروت (٤٦١) .

في كتابه (تاريخ مختصر الدول) الى التزام جانب النصارى ورؤسائهم خاصة ومنحهم تلك المنح والهبات الجليلة في بغداد بعد انقراض الدولة العباسية . وفي تاريخ ابن العبري رواية وردت عن ظهور ميل عند جنكيزخان الى القوم في بدء زحفه على الشرق لحرب خوارزم شاه صاحب بخارى وتركستان ، بناء على رؤيا رآها جنكيز بعد ابادة رسله على حدود المملكة الخوارزمية وجاء في هذه الرواية انه رأى راهباً عليه المسوح يتكىء على عكازة وهو قائم على باب جنكيزخان يقول له لا تخف ، افعل ما شئت فانك مؤيد ، وفي الرواية ما يدل على وجود عدد من زعماء النصارى والاساقفة قريبين الى جنكيز ، ومنهم اسقف يقال له (ماردنحا[1]) هذا على ان ابن العبري سجل في تاريخه بعد ذلك تفاصيل الصراع الدامي بين المغول واتباعهم من جهة وبين ملوك الموصل واصحابها من ابناء بدر الدين لؤلؤ وأتباعهم من جهة ثانية . وقد جرى ذلك في الموصل مشيراً — أي ابن العبري — الى ان الملك اسماعيل وأخاه علاء الدين وهما من ابناء بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وحاكمها الداهية المشهور فضلوا الذهاب الى مصر والشام على البقاء في الموصل والعراق ، فضلوا الهجرة من وطنهم مستظلين بظل دولة المماليك البحرية التي تمكنت من وقف زحف المغول ، وتغلبت عليهم في بعض المعارك الطاحنة الفاصلة ، ويلاحظ ان ابن العبري نفسه كان مقيما في الموصل خلال هذا الصراع ، بل كان شاهد عيان في الوقائع المذكورة ثم فضل الانتقال الى مراغة بعد انحياز النصارى الى جانب المغول وسخط المسلمين وأصحاب البلاد وملوكها عليهم مستظلا — أعني ابن العبري المذكور — بكنف المغول في أذربيجان .

لم يفت ابن العبري الاشارة الى بعض من مالأ المغول من حكام الموصل أو تحالف معهم ، وهو حاكم أفشى نبأ استنجاد الموصليين بملوك مصر والشام ، وعزمهم على مناجزة المغول ، ومن يضلع معهم ، فاستولى الذعر والرعب على

---

(١) تاريخ مختصر الدول ط : بيروت (٤٠١ — ٤٠٢) .

نصارى الجزيرة والموصل واربل ، هذا ويعنى ابن العبري بعد ذلك بذكر الوقائع والكوارث التي جرت على الموصل ، وما لحق المتطاحنين من ابنائها مسلمين ونصارى من الخراب والدمار ، ولم يفته ايضاً ذكر ابن يونس الأمير البعشيقي الضالع مع المغول الذي لم ينج من غدرهم فأمروا بقتله بعد ذلك ، ولم يفته أيضاً ذكر قصة الأمير المجاهد ابن زيلاق ، وفي وسعك وانت تتصفح تاريخ مختصر الدول لابن العبري ان تشعر بميله الى المغول وتقديره لعطفهم البالغ اذ ذاك على النصارى[1] واليك ما قاله وهو يسرد احداث الموصل في ذلك التاريخ : «وعند أواخر الصيف تواترت الاخبار بوصول عساكر المغول ، وقريباً من كانون الأول وصل العسكر وأحاط بالموصل ، وفي رأس العسكر أمير كبير اسمه (سنداغو) محب للنصارى[2] » ويجمل القول : تتابعت الحوادث أو الوقائع الدامية بعد ذلك فكان هدف عساكر المغول البطش بالمسلمين ، كما كان هدف عسكر الشام من غاراتهم الفتك بالنصارى ، قال مؤلف الحوادث الجامعة : «وفيها أي في سنة (٦٨٤) أغارت طائفة من عساكر الشام على ديار بكر والموصل واربل وقتلوا كثيراً من النصارى في اربل ، ونهبت الاكراد بلد «البوازيج» و «باصقرا» وقتلوا جماعة من النصارى ونهبوا الاموال[3] » .

مستند نادر عن علاقات النصارى بالمغول

وما هذا المستند النادر الا كتاب تاريخي في أخبار رؤساء النصارى في المشرق وكيفية اسناد مناصبهم اليهم والجهة التي تسندها ، ألفه عمرو بن متى الطيرهاني سمى كتابه المذكور (المجدل) والغالب ان ما وصل الينا من كتاب المجدل انما هو الملخص وقد وقع في جزأين ، وطبع في رومية سنة (١٨٦٦) ويمتاز

---

(١) : مختصر تاريخ الدول (٤٨٢ – ٤٩٧) .
(٢) : المصدر المذكور (٤٩٥) .
(٣): الحوادث الجامعة (٤٤٧) .

الكتاب بطرائف تاريخية غير معروفة في مستند عربي آخر عن سيرة الطبقة الأولى من سلاطين المغول وعن سياستهم مع النصارى في كل من الشرقين القريب والبعيد ولم نجد اثراً لهذه الطرائف التاريخية في مختصر تاريخ الدول لابن العبري وهو من أشهر مؤرخي النصارى كما قلنا ، مع انه وضع كتابه في الأصل باللغة السريانية . ولا ندري لماذا لم يعن ابن العبري بما عني به الطيرهاني عمرو بن متى في كتاب (المجدل) من الاشادة بسياسة المغول في محاسنة نصارى الشرق والعراق واسداء ضرب من العون لا يستهان به لهم ، ومن ذلك اعزاز رؤسائهم والمبالغة في حرمتهم ، والغالب ان عصر ابن العبري والاحوال التي عاش فيها لم تكن مواتية أو مسعفة له على الجهر بما جاهر به عمرو بن متى الطيرهاني ، فانه اعني ابن العبري عاش في عصر عصيب وقعت فيه حروب طاحنـــة بين المغول وملوك الموصل وحدثت فيه مذابح وفتن خطيرة في البلاد المشار اليها وفي الجزيرة وما الى ذلك من الاصقاع ، أما الطيرهاني فلا شك انه وضع كتابه في زمان ومكان يختلفان عن ذلك وان لم يتيسر لنا تحقيق ذلك الزمان أو المكان غير انه من بلاد الجزيرة على الاجمال .

لنا أن نستثني كتاب الحوادث الجامعة من جملة المصادر العربية النـادرة التي أغفلت تسجيل مجاملة المغول لنصارى الشرق ، فان مصنف كتـاب «الحوادث» عني اجمالا بأخبار سقوط بغداد على يد هولاكو وقيـــام الدولة « الايلخانية » المغولية ، ومحاسنتها للنصارى ، وبذل العون والمساعدة لهم حتى وهبوهم تلك الاملاك والقصور الجليلة العائدة للخلفاء ولأمراء الدولة العباسية ، فانتقل زعماء الطائفة المذكورة اليها بيد انهم غيروا من معالمها وأحدثوا فيهـــا بعض البيع والمعابد وخططوا المقابر والمدافن الى غير ذلك مما وردت الاشارة اليه في كتاب الحوادث ولو على سبيل الاجمال ، أما عمرو بن متى مصنف كتاب المجـدل فانه معني بشيء من الايضاح والتفصيل .

لايخفى ان ديوان الخلافة العباسية كان يجري على رسوم معينة في تعيين

رؤساء النصارى وزعماء اليهود لا يحيدون عنها غالباً خصوصاً في اواخر عصور الدولة المذكورة وذلك بان يستدعى هؤلاء الرؤساء الى الديوان حيث يتلو الوزير او نائبه عليهم نص البراءة الصادرة بتعيينهم ، وقد يتضمن النص المذكورة جملة[1] تعني نسخ تلك الديانة برسالة الاسلام ، ثم يؤمر الرئيس من النصارى او اليهود بالانصراف .

هذه خلاصة الرسوم او العادات التي كانت متبعة بهذا الشان في غير عصر من عصور الدولة العباسية فلا مواكب ولا احتفالات رسمية ولا خلع ولا اقامات ولا تظاهرات الى غير ذلك مما حدث فور انحلال الدولة العباسية وظهور الدولة الايلخانية حيث عنى الاول من سلاطين المغول باستقبال وفود النصارى ورؤسائهم في قواعدهم العسكرية الواقعة في فارس وآذبيجان اكثر من مرة واكرموا وفادتهم وافاضوا عليهم الخلع والهدايا السنية ، وبالغوا في ذلك وربما بدرت من بعض اولئك السلاطين أو بطانتهم اشارات تدل على تقدير تلك الديانة او انتحالها في بعض الاحيان كما يحدثنا عنه عمرو بن متى ملياً في كتابه المذكور ، وهو امر سكت عنه المؤرخون الاسلاميون في اكثر الاحوال ، بل سكت عنه اكثر من ذلك المؤرخون المسيحيون المقيمون في كنف دول اسلامية .

وتميزت ايام السلاطين الثلاثة هولاكو واباقا وارغون بانتهاج سياسة المحاسنة البالغة مع نصارى الشرق والعراق على وجه ينم عن شيء من الدس والكيد المغولي للمسلمين ، ويلاحظ ان ثلاثة من زعماء النصارى عاصروا هؤلاء الثلاثة من سلاطين المغول وحصلوا على ما حصلوا عليه من رعاية وحرمة بالغة وتاييد كبير كما يحدثنا عنه عمرو بن متى ، وهؤلاء البطارقة الثلاثة هم (مارمكيخا ، ماردنحا ، باباالاها الثالث) . عني المؤلف المذكور بالترجمة لهم وأشار الى ما حبوا به من عطف ومعونة والى ارتفاع قدر النصارى وجاههم في الفترة المذكورة في الشرق

---

(١) تجد نموذجاً من تلك البراءات في كتاب الحوادث .

والعراق ، وحيث خفقت اعلام اولئك السلاطين من تلك البلاد .

يعني عمرو بن متى مضافاً الى ذلك بوصف الحفلات وتعيين مواقعها وبالاشارة الى حلية اولئك البطارقة وملابسهم ويصف حللهم الخاصة وارديتهم ، ويقول مثلا كان على هذا حلة (وردية) وعلى ذلك حلة (كحلية) ، ويعنى ايضاً بتسمية من يشهد الحفلات من الاساقفة واكابر رجال الكنيسة ، فلا عجب اذا راينا كتاب عمرو بن متى هذا طافحاً بالثناء على سلاطين المغول مليئاً بعبارات الحمد والشكر وخاصة لهؤلاء السلاطين الثلاثة .

والبطريق (مليخا) عاش في الفترة الواقعة بين أواخر عصور العباسيين واوائل عصور المغول فشاهد الخليفة المستعصم وادرك الطاغية هولاكو . عينه الاول في رياسة ابناء جلدته واقره الثاني على ذلك وبالغ في اكرامه ورعايته ، وهو على ما يقول صاحب المجدل من بلدة (جوغبار) من اعمال نصيبين ، ثم تعيينه في خلافة المستعصم أولا وبقي على ولايته بعد سقوط بغداد . وفي عهد رياسته زالت الخلافة العباسية واستولى المغول على العراق . وفي هذا الصدد يقول المؤرخ المذكور ما نصه : «ومن بعد نصبه سنة ١٤٦٨ يونانية اوسنة ٦٥٦ انتقلت المملكة الى (المغل) وانقرضت دولة العباسيين وذلك على يد السلطان الاعظم مالك ملوك العرب والعجم هولاكوخان وفتح بغداد يوم الاثنين رابع شباط سنة ١٥٦٩ لتاريخ الاسكندر الواقع في الثامن والعشرين من المحرم سنة ٦٥٦ لتاريخ العرب» .

هذا ما جاء في كتاب المجدل ، ويلاحظ ان مصنف كتاب الحوادث سماه (ميخا) مرة ومُكيخا تارة وذكر تعيينه أول مرة في أخبار سنة ٦٥٣ أي قبل سقوط بغداد بثلاث سنوات قائلا : «وتوفي أبو الفضل ابن أبي الخير ابن المسيحي الجاثليقي ببغداد وقد تجاوز التسعين ، وولي بعده مار ميخا النصيبي وكان أديباً فاضلا[1]» . ثم قال صاحب كتاب المجدل بعد ما تقدم ما يأتي : « أنعم هولاكو

(١) كتاب الحوادث (٣٠٠) .

عليه وأعطاه دار الخلافة المعروفة بدار (الدويدار) التي على دجلة حتى يسكنها وعمّر فيها (البيعة الجديدة) ورزق جاهاً عظيماً ، وقال أيضاً في ختام ترجمته : «توفي يوم السبت ١٨ نيسان سنة ١٥٧٦ يونانية ودفن بالبيعة الجديدة التي بناها بدار الخليفة وكانت مدة رياسته ثمان سنين وخمسة شهور» .

هذا ما قاله عمرو بن متى في كتابه عن المعاملة الحسنة التي عامل بها هولاكو هذا البطريق حتى وهبه داراً هي أعظم دور بغداد في ذلك العصر وأجلها وأشهرها بعد دار الخلافة ، وقد رويت هذه القصة بعينها تقريباً في كتاب الحوادث الجامعة أو الجزء التاريخي الذي اختير له هذا الاسم ، فقال مصنفه في آخر بحثه عن الواقعة وما جرى بعدها ما نصه : «وسُلمت مفاتيح دار الخليفة الى مجد الدين محمد بن الأثير ، وجعل أمر الفراشين والبوابين اليه ، وتقدم للجاثليق بسكنى دار علاء الدين الطبرسي الدويدار الكبير التي على شاطىء دجلة ليسكنها ، ودق الناقوس على أعلاها واستولى على دار الفلك التي كانت رباطاً للنساء تجاه هذه الدار وعلى الرباط المجاور لها ، وهدم الكتابة التي كانت على البابين ، وكتب عوضها بالسرياني[1]» .

ومن رأينا ان هذا الجاثليق جانب الصواب فانه تصرف تصرفاً أثار شعور مواطنيه المسلمين متكلا على مجاملة المغول وتأييدهم له ونكايتهم العظمى بأهل العراق ، ومن هذا القبيل ما فعله بدار الدوادار التي وهبت له وبغيرها من الدور والمعاهد الكبيرة ، فكان عليه ان يكتفي بسكناها ، ولكنه حول دار الدوادار الى بيعة يدق في أعلاها الناقوس ، ومحا الكتابة العربية التي كتبت على واجهتها . وكان أعيان الدولة العباسية يتفننون بمثل هذه الكتابات الجميلة في

(١) كتاب الحوادث (٢٣٣ – ٢٣٤) .

واجهات المنازل والمعاهد الكبيرة ، ومن الأمثلة على ذلك ما نشاهده الى اليوم على واجهة «المستنصرية» ولم تكن دار الدويدار بعيدة عنها حيث هدمت كتابتها وكتب عوضها بالسريانية كتابة تشعر بان هذه الدار بيعة ، وهذا كله خطأ ارتكبه هذا الجاثليق فأثار به شعور مواطنيه من المسلمين ، ولا نحسب ان النصارى كلهم كانوا يؤيدون جاثليقهم في تلك الأعمال ، فان بيعهم ومعابدهم غير قليلة في بغداد ، وحرية عقيدتهم كانت مكفولة الى حد عظيم ، ولكنها سياسة الطاغية هولاكو التي تحيز الجاثليق الى جانبها ووثق بها ثقة مطلقة .

وتألم البغداديون ولا شك من بعض تصرفات « مرمليخا » الجاثليق وكانوا يتحينون الفرص للتعبير عن سخطهم وتذمرهم من تلك التصرفات خلال السنوات السبع التي تولى فيها منصبه المذكور واظهر فيها شدة متناهية وجنوحاً الى سياسة المغول . قبض مرة على نصراني من أهل بغداد أعلن اسلامه ، واعتقله بداره المعروفة بالدويدار الكبير وعزم على تغريقه بالنهر ، فهاج البغداديون ونهبوا بعض الاسواق ، والدروب القريبة من أحياء النصارى ، وضربوا حصاراً على دار الجاثليق فاضطر الى مغادرة داره شاكياً الى حاكم العراق من قبل المغول لائذاً به ، وهكذا نجا من بطش البغداديين ، ثم انه توجه من فوره الى مراغة أو تبريز أي الى قواعد المغول العسكرية في أذربيجان ، وبعد ان اطمأن هناك مدة عاد الى بغداد في وقت عصيب بدأ فيه الصراع بين أحزاب المغول أو فرقهم السياسية ، فمن حزب يميل الى تعزيز الاسلام والمسلمين ومن حزب يفضل البقاء على الوثنية المغولية .

لم ترد في كتاب عمرو بن متى الطيرهاني المذكور اشارة الى هذا الهياج ، والمؤرخ الوحيد الذي سجل الحادث هو مصنف كتاب الحوادث الجامعة ، أورده في أخبار سنة ٦٦٤ فقال : « وفيها قبض مارمليخا الجاثليق على نصراني من أهل بغداد قد أسلم فاعتقله بداره المعروفة بالدويدار الكبير على شاطىء دجلة وعزم على تغريقه فبلغ العوام ذلك فاجتمعوا ونهبوا سوق العطارين برأس (درب دينار)

وغيره من عمال بغداد والنصارى ، وحصروا الجثليق وأحرقوا باب داره وقاتلوا أصحابه فنزل في سفينة وقصد صاحب الديوان علاء الدين واستجار به ، فأمر بكف العوام وركب (تكال بخشي) شحنة بغداد وأخذ نفراً من العوام ، وقتل منهم وحبس جماعة فسكنت الفتنة . ثم ان الجاثليق توجه الى (الاوردو) الأشرف وعاد على اربل وبنى بقلعتها بيعة ثم قدم بغداد وأقام فيها الى أن مات ورتب في منصبه (ماردنحا) الاربلي[1]» .

وخلف مار مليخا» «دنحا» وقد ترجم له مؤلف كتاب المجدل وأثنى عليه وعلى معرفته باصول اللغة السريانية . وقال : أجمع وجوه النصارى وقساوستهم على اختياره ليخلف «مليخا» ولما انهي ذلك الى «ابقا خان» خلع عليه ، ويقول المؤلف في هذا المكان شرفه بالخلعة السنية و«الفرمان» و «البايزة» و «الجتر» . هذا ما قاله عمرو بن متى ، ومنه يستفاد مبلغ المجاملة والمحاسنة التي حظي بها هذا الجاثليق . فان ابافا افاض عليه خلعاً سنية . وأصدر بتعيينه مرسوماً خاصاً . ووهبه وساماً رفيعاً ومظلة لا ترفع الا على رؤوس الامراء ، ويستفاد ايضاً من كتاب عمرو بن متى ان الطاغية ابقا مُثل في حفلة نصبه التي جرت في بيعة معروفة بثلاثة من كبار امراء المغول ، وشهد تلك الحفلة الأمير « يعقوب » والساعور[2] وقد اقيمت هذه الحفلة بالمدائن وكانت فيها بيعة يختارونها لاقامة تلك الحفلات ، ويلاحظ ان «دنحا» هذا عاد بعد الاحتفال بنصبه في بيعة المدائن الى بغداد ، وسكن دار الخليفة وقد احدثت فيها بيعة جديدة ، وبلغت مدة رئاسة هذا الجاثليق على ما في كتاب المجدل خمس عشرة سنة ، وفي آخر هذه الترجمة من الكتاب اشارة الى مصير البيعة الجديدة المحدثة في دار الدويدار ومصير المقبرة كذلك حيث يقول المؤلف « ولما اخذت المسلمون هذه البيعة من النصارى — يعني

---

(١) كتاب الحوادث «٣٥٤» .

(٢) الساعور لفظة سريانية تعني «الخازن» ، يقال ساعور البيعة يعنون خازنها ، وكانت تطلق أيضاً على خزنة المارستانات يقولون ساعور المارستان .

استردتها – أمروا أن تنبش المقابر وتؤخذ الموتى فاجتمع النصـــارى الى البيعة المذكورة يوم الخميس ٢٤ ربيع الآخر سنـــة ٦٩٥ الموافق ١٦٠٧ يونانية ونقلوا الذين كانوا في البيعة المـار ذكرها . وهما مليخا ودنحا واتوا بهما الى بيعة «سوق الثلاثاء» ثم أشار عمرو بن متى الى ما ساور النصارى من الاحزان والآلام في ذلك اليوم والى عنايتهم باقامة حفلات التأبين .

وقال عمرو بن متى الجاثليق «بابالاها» : هذا الجـاثليق هو من الترك من بلاد الخطا ، ورد من بلده في خدمة الخان الاعظم – لم يذكر المؤلف اسم هذا الخـان ولا شك انه احد احفاد جنكيز – وكانت سبب مجيئه الى هذه الأرض – يعني العراق – لاجل زيارة بيت المقدس ، وكان قد أنفذ معه «القـــان» ثياباً حتى يعمدها في نهر الاردن ويعبرها على قبر السـيد المسيح فحيث وصل الاردو الأشرف وعرض «فرامينه» على السلطان المعظم «اباقا خان» قال له في الجواب : الطريق ما هي آمنة ، وانتم لكم ذكر طائل – يعني شهرة واسعة – وأخـــاف عليكم . ومجمل القول حذر «اباقا» (بابالاها) وخوفه من السفر الى فلسطين ولا شك ان خبرة السلطان بمخاوف الطريق اعظم من خبرة الاسقف المذكور ، فلم تقم بعد بن المغول ودولة المماليك المصرية التي تحكم في الشام وفلسطين علائق حسنة ، ولم يعدل سلاطين المغول عن التفكير بغزو الشام واخذ ثار الاندحـار الشنيع الذي منوا به في واقعة «عين جالوت» وسلاطين مصر ما زالوا على أتم اهبة للدفـــاع وقلوبهم عامرة بحب الجهاد .

اذعن بابالاها وامتثل امر السلطان ، ولكنه لم يعد الى بلاد الخطا والشاش بل قصد بغداد فان فيها الجاثليق (ماردنحا) ولا بد من زيارته قبل العودة الى بلده في الشرق الأقصى وهكذا وصل «بابالاها» الى بغداد واجتمع بصاحبه ، وأقـــام عنده مدة غير قصيرة توثقت خلالها اواصر المودة والمحبة بينهما ، ومما يذكر ان كلا من مار دنحا وبابالاها قاما سوية برحلة خاصة الى «الأردو» ويعني ذلك زيارة السلطان في قاعدته العسكرية المعروفة ، ولهذه الرحلة مغزاها فالغالب انماردنحا

وقد علت سنه وطال عمره رشح صـاحبه ليخلفه في منصبه ، وموافقة السلطان على ذلك مضمونة لا تحتاج الى جهد لأن بابالاها الداهية مهد السبيل مع الطاغية اباقا ، وهذا الرجل محبوب عند المغول وأصله من بلادهم او من البلاد القريبة منها وكانت الخطوة الأولى الى ذلك تعيين «بابالاها» التركي «مطراناً» على «تنكت»[١] وقام الجاثليق مار دنحا بتجهيزه وانفاذه الى تلك البلاد النائية . ثم ان عمرو بن متى تحدث في كتابه بحديث طويل عن مكث بابالاهـــا في العراق وعدوله عن السفر الى بلاده وما ترتب على ذلك من اختياره لرياسة النصارى . تحدث المؤلف عن هذه القصة كما لو كانت «اعجوبة» وحاول عمرو بن متى ان يردها الى اسباب غير عادية .

عاد بابالاها الى بغداد بطريق اربل في المرة الثانية ، واتجه الى البيعة المحدثة في دار الخليفة ، فوجد المآتم قائمة فيها على الجاثليق مار دنحا ولم يدفن بعد فشاركهم في المآتم بكثير من مظـــاهر الجزع والنوح والبكاء . ونجد في الكتاب بعد ذلك اشارة الى غبطة النصارى وفرحهم البالغ بمجيء بابالاها فكانما جاء على ميعاد ، وكانما حضر ليخلف صاحبه على منصبه المذكور .

ووقع الاختيار على بابالاها ليخلف مار دنحا واجمعت على ذلك كلمة النصارى في بغداد ونظموا بذلك محضراً مذيلا بتواقيعهم وخطوطهم توجه به بابالاهـــا الى الأوردو باذربيجان .

دخل الرجل على «اباقا خان» ويلاحظ انه لا يحجب عنه كلما حضر لزيارته ، فرحب به ترحيباً بالغا ، وفي هذا الصدد يقول صاحب المجدل «فرح به وخلع عليه خلعة سنية مثمنة ، واطلق له اقـامات كبيرة بشيء لا يحد من كثرته ، وانفذه ومعـــه امير كبير اسمه «اشمت» من المعظم القـــاآني — يعني من صلب الاسرة

---

(١) تنكت بفتح التاء المثناة وضم الكاف مدينة من مدن الشاش وراء سيحون، قال ياقوت خرج منها جماعة من أهل العلم ، ثم أورد اسماء جماعة من المحدثين والعلماء المنسوبين الى هذه المدينة .

المالكة — ودخل الى بغداد وتجهز وانحدر الى دير المدائن[1]، ويقول صاحب الجدل كان وصوله يوماً مشهوداً ودخل البيعة يحف به عدد كبير من المطارنة والاساقفة جاءوا من أقاصي بلاد الترك وفارس والروم ومن بلاد الجزيرة والموصل وفلسطين ومصر ، فكان مطران (المالق)[2] (وتنكت) على حدود الصين ممن شهد هذه التظاهرة ، وهذ أمر يدل على وصول بعض المذاهب المسيحية الى آسيا الوسطى وبعض انحـــاء تركستان في ذلك العصر ، حيث كان بعض حـــكام المغول يحيطونها بشيء من الحماية والرعاية ، ومن النـــادر ان يشهد تاريخ النصرانية بعد الاسلام حفلة او تظاهرة كبيرة ذات صبغة دينية مثل حفلة المدائن هذه ولنا ان نقول انها مشوبة باغراض سياسية رسمتها السلطات المغولية . هذا ويلي ذلك في الكتــاب وصف بعض الازياء والعادات المتبعة في مثل هذه الاحتفالات ، ومن ذلك نثر الذهب والفضة ، ويقول المؤلف ما كان لأحد في الهيكل موضع يقف فيه من كثرة الناس ، ثم ان الجاثليق انحدر بعد انتهاء الاحتفال الى دير (مارماري) في (السليح[3]) وبعد ذلك اصعد الى بغداد .

تحدث المـــؤلف بعد ذلك بشيء من الفخر والبأو عن العصر الذهبي الذي اجتازته النصرانية في دولة المغول خصوصاً في رياسة هذا الجاثليق قائلا: «نال — يعني — بابالاها من العز والجاه والسلطان ما لا ناله احد من قبله حتى ان ملوك المغول والقاآنية وأولادهم كانوا يكشفون رؤوسهم ويتبركون قدامه ، ونفذ حكمه في جميع الممالك بالمشرق وارتفع النصارى في أيامه الى عز عظيم وجاه كبير » هذا ما قاله المؤلف ولولا ان هذا الجاثليق تركي او مغولي يتفـــانى في خدمة قومه وممالأة

---

(١) يعرف دير المدائن بدير قنا ولم يبق له من أثر الآن ، ومن رأي بعض الباحثين انه لايبعد كثيراً عن موقع الطاق الى الجنوب ، وهناك عدة تلال ربما قام احدها على انقاض الدير المذكور .

(٢) مدينة المـــالق آخر البلاد التي من عمالة ما وراء النهر ، وأول بلاد الصين ، أقام بها ابن بطوطة وذكر انهـا دار الملك ، وورد ذكرها عرضا بقوله : « بلاد الختن وكاشغر والمالق» تكرر ذكر هذه المدينة في رحلة ابن بطوطة .

(٣) موضع قريب من دير قنا السالف ذكره جنوب طاق كسرى .

أغراضهم السياسية لمـا حصل له ذلك ، ولكن المؤلف لاحظ في النهـاية اختلال الاحوال ، وما مني به القوم من المذلة والهوان في اواخر أيام هذا الجاثليق ، وبالغ بذكر ما حل بساحتهم من هذا القبيل في الفترة المذكورة قـــائلا : « هبطوا في أواخر أيامـه الى ذلة ردية ، وتجدد عليهم أخذ الجزية والاهانة واستمر الى هذا التاريخ » .

هذا ما قاله عمرو بن متى ويستفاد منه ان الجزية اسقطت فلم تؤخذ من اليهود والنصارى في عصور الأول من سلاطين المغول : عصور هولاكو واباقا وارغون ثم تجدد استيفاؤها منهم في بعض العصور التالية ويؤيد ذلك ما نراه في تاريخ الحركة الاسلامية التي انبعثت في عصر السلطان غازان .

وعمر هذا الجـاثلق التركي او المغولي طويلا وتقلد منصبه مدة لم يسبق ان تقلدها أحد من اسلافه ، ويقول عمرو بن متى : « مات في عصره سبع قاآنية ، وهم : اباقا ، أحمد سلطان ، أرغون خان ، كيخوخان ، بايدوغازان خان ، خربنده خان . وتولى في عصره ابو سعيد خان بن خربنده وجلس على سرير السلطنة » .

هذا ما قاله صاحب المجدل ، وأرخ بعد ذلك وفاة الجاثليق سنة ٧١٧ وذكر دفنه في البيعة الجديدة المحدثة بدار الدويدار ببغداد[١] .

---

(١) الشبيبي في ابن الفوطي . ص ١٦٣ — ١٧٩ .

ادارة الحكم

نعود الآن الى مصير الحكم في بغداد بعد انهيار الخلافة وسقوط حكمها : لقد عهدوا بالوزارة لمؤيد الدين بن العلقمي وبمنصب صاحب الديوان لفخر الدين الدامغاني ، وكان هذان المنصبان شكليين اكثر مما هما فعليين . وجعلوا علي بهادر شحنة (اي بمثابة مدير الشرطة) ونظام الدين عبد المؤمن البندينجي قاضيا للقضاة ونجم الدين ابو جعفر احمد بن عمران واليا على الاعمال الشرقية ، اي : اعمال شرقي بغداد ، مثل طريق خراسان والخالص وبندنجين ، وتاج الدين علي بن الدوامي للاعمال الفراتية وعدا علي بهادر فجميع هؤلاء عراقيون ممن عملوا في عهد الخليفة .

اما الحاكم الفعلي فقد كان عماد الدين عمر القزويني ، وبذلك فهو اول حاكم مغولي حكم العراق بعد سقوط بغداد مباشرة . ويقول عنه ابن الفوطي : «كان من اعيان اهل قزوين المعروفين بمتانة الدين وحسن اليقين ، لما انفذ الله قضاءه وقدره وقتل الخليفة وخربت بغداد وخرب الجامع وعطلت بيوت العبادات تداركهم الله بلطفه فاتاح لهم عناية عماد الدين فقدمها وعمر المساجد والمدارس ورمم الربط والمشاهد واجرى الجرايات من وقوفها للعلماء والفقهاء والصوفية ، واعاد رونق الاسلام بمدينة السلام ، وحاز بهذا الفعل الجميل الذي يبقى على جبهات الزمان حسن الاجر والثناء ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» . ووُصف في كتاب (الحوادث الجامعة) بانه : «فتح المدارس والربط واثبت الفقهاء والصوفية وادر عليهم الاخباز والمشاهرات» . وقد تاثر بذلك شمس الدين الكوفي الهاشمي الذي اشتهر رثاؤه لبغداد ، والذي يسميه الشبيبي في كتابه عن ابن الفوطي : (شاعر مأساة بغداد) فمدح عماد الدين

في قصيدة يقول فيها :

يا ذا العلى ياعماد الدين يا ملكا بعدل سيرته يسمو على السير
جمعت عدلا ومعروفا ومعرفة والعدل ما زال منسوبا الى عمر
احيا المدارس من بعد الدروس بما لقاء الدروس حياة العلم والفكر
وعاد كل رباط بعدما هجرت ارجاؤه عامراً بالذكر والسمر
رددت للجامع المعمور رتبته الاولى وابقيت فيه احسن الأثر
ألبست مشهد موسى اذ حللت به الحلي بعد لباس البؤس والضرر
فالله يشكر ما اوليت من حسن وسائر الخلق والمبعوث من مضر

ولكن عماد الدين لم يبق كثيراً في منصبه بل اختير علاء الدين الجويني لهذا المنصب سنة ٦٥٧ ، وعين عماد الدين معاونا له . ولكن لم يصف الامر بينهما فاختلفا ، وربما كان عماد الدين يرى نفسه مهضوماً ، ويرى انه احق بالمنصب الاول ، وسنرى بعد ما ادى اليه هذا الخلاف . ويهمنا الآن ان نشير الى ان الجويني كان على الكثير من الكفاءة واتقان العمل مما ادى الى بعث حركة عمرانية كبرى في العراق كله ، فهو الذي جدد كثيراً من المدارس المتداعية ومنها «المستنصرية» . وهو الذي انشأ جملة من المدارس ودور الكتب وغير ذلك ؛ كما انشأ جملة من الرباطات والملاجىء والمستشفيات واجرى عليها الجرايات ، وعني بتعمير المشاهد في النجف و كربلاء والكاظمين وحفر الانهار والترع واجرى الماء من الفرات الى الكوفة فالمشهد الغروي ، وهو الذي شجع حركة التأليف والمؤلفين واجزل العطاء والبذل لهم [١].

واشتد الخلاف بين القزويني والجويني واخذ كل منهما ينسب الى الآخر تهم الفساد والاثراء غير المشروع ، وكان كل منهما يدس على الآخر عند اباقا ويحضه على البطش به . وقبل ذلك كان علاء الدين الجويني قد نجا من شرك نصبه له عماد

(١) الشبيبي في ابن الفوطي ص ١٤٦ .

الدين القزويني ايام هولاكو كاد ان يودي به ، ولكن آل الجويني استطاعوا تبرئة انفسهم فاعيدت ولاية العراق لعلاء الدين وتسلط فيها . واستطاع ان يلصق تهما بعماد الدين وان يثبتها عند السلطان فقتل عماد الدين ونكل بجماعته ، ولكن واحدا منهم نجا هو مجد الدين اليزدي عاد الى الاتصال بأباقا حيث اسند اليه منصباً رفيعا ، فقام يدس على آل الجويني فامر السلطان بالقبض على علاء الدين واتباعه[1] وسلم الى مجد الدين اليزدي فنكل به وصادر املاكه ، وكان على وشك الهلاك لولا ان اباقا مات في همذان سنة ٦٨٠ عائدا من بغداد وعهدبالملك الى ابنه (ارغون) . وكان لآل الجويني حزب كبير بين الامراء والقواد والنواب فاستطاعوا خلع ارغون وتنصيب احد ابناء هولاكو وهو (تكدار) الذي اسلم وسمي احمد[2] وذلك انهم قصدوا اقصى خراسان من العراق ونادوا باحمد سلطانا سنة ٦٨١ فنجا آل الجويني واعتقل غريمهم مجد الدين وانصاره فقتل قتلة شنيعة ومثل به افظع تمثيل. على ان الامر لم يطل كثيراً فقد مات علاء الدين بعد ان ولي العراق احدى وعشرين سنة وشهورا . واستطاع ارغون سنة ٦٨٣ ان يثور على عمه فيهزم احمد تكودار ويقتل وسيطر ارغون من جديد . وكان في ذلك محنة آل الجويني وانصارهم فقد عذبوا وصودروا وقتلوا حتى الاحداث الصغار منهم .

وفي عهد ارغون انتعشت الوثنية واشتد نفوذ اليهود . وبعد ارغون تولى غازان وكان من امر اسلامه ما مر ، وظلت الدولة على اسلامها وتغلغل الاسلام في كل شيء فيها .

---

(١) الحوادث الجامعة ص ٤١٥ – ٤١٦ .

(٢) انفجر الصراع بين أحمد وأرغون بتحرش أرغون بأهل خراسان واضطهادهم ، وسار كل منهما الى صاحبه وكانت كفة السلطان أحمد هي الراجحة ثم تبين ان جيشه يتآمر عليه وفي الطليعة أمير يدعى (بوقا) أو (بقا) وهو من أشهر امراء الجيش المغولي وأصبح الساعد الأيمن لأرغون في تغلبه على عمه أحمد تكودار . وهو الذي أعلن من قلعة (تلا) في أذربيجان قرب مراغة سلطنة أرغون وسعى في قتل السلطان أحمد سنة ٦٨٣ بحجة خروجه على دين آبائه وأجداده . ثم استوزره أرغون وأسند اليه نيابة السلطنة . ولكن أرغون عاد بعد سنوات فأمر بقتل بوقا وأولاده ونوابه وأخاه اروق وذلك سنة ٦٨٨ بحجة تغير نياتهم عليه .

فرع مغولي آخر

كان جنكيز خان قد حدد لأبنائه الثلاثة الكبار وهم جوجي وجغتاي واوكداي ثلاث نواح من مملكته الشاسعة ، لكل واحد منهم ناحية ، فكانت ناحية ولده الاكبر جوجي «اراضي السهوب من غربي نهر ايرتش الى اقصى البقاع التي وطئتها جيوش المغول ، وكذلك الاراضي الزراعية المجاورة مثل خوارزم والاقاليم الفارسية على الشاطىء لبحر قزوين»[1] على ان جوجي توفي قبل وفاة ابيه بستة اشهر سنة ١٢٢٧ م واختير ابنه الثاني (باتو) مكانه وهو الذي فتح روسيا فيما فتح من بلاد وقد توفي سنة ١٢٥٦م وعندما خلفه اخوه بركه سنة (١٢٥٧ - ١٢٦٧) كان بركه قد اسلم وبدأ شعبه في القبجاق يسلم تدريجيا . وقد ناهض هولاكو ابن عمه بركه بن جوجي ، ولم يخف بركه ألمه لما حل بالعالم الاسلامي على يد هولاكو. وقد اعد بركه بالفعل جيشا لمحاربة هولاكو وسار من القبجاق قاصدا ايران . وكان قد صرح عن هولاكو قائلا :

«انه قد دمر جميع مدن المسلمين وقضى على اسر ملوك الاسلام جميعهم ولم يميز بين الصديق والعدو واعدم الخليفة دون مشورة كبار الاسرة، فلو أمدني الله تعالى لطالبته بدماء الابرياء»[2]. على انه يبدو مما ذكره صاحب جامع التواريخ ان الخلاف بين بركه وبين هولاكو كان في واقعه خلافاً شخصيا قبل كل شيء وتنازعا على النفوذ.

وسار جيش بركه فعبر دربند ونزل بظاهر شروان . ولما علم هولاكو بذلك تحرك في الثاني من شوال سنة ٦٦٠ (١٢٦٢) واستطاع ان ينتصر على جيش بركه في شماخي. ثم ارسل جيشا مع ابنه آباقا خان الى مملكة بركه ويصف الهمذاني ما جرى على هذا الشكل : «... عبروا نهر ترك ، وكانت جميع بيوت الامراء

---

(١) بارتولد : دائرة المعارف .

(٢) جامع التواريخ ص ٣٣٢ .

والاعيان وجنود بركه تلمع في تلك الليلة كالنجوم ، وكانت صحراء القبجاق مليئة بخيامهم وسرادقاتهم . كذلك كانت تلك البقعة محتشدة بالخيول والبغال والابل والابقار والاغنام ، بينما لم يكن احد من جنود جيشهم مقيما في منزله فقد هربوا جميعا تاركين اطفالهم وعيالهم» .

ثم يقول : «وعندما اطلع بركه وجنوده على احوال منازلهم وعيالهم وحاشيتهم واموالهم ومواشيهم احتشدوا كالنمل والجراد وظهروا في تلك الصحراء الفسيحة وداهموا الامراء والجنود . وغرة ربيع الاول من السنة المذكورة (٦٦١) استمروا يحاربون على ضفة نهر ترك من طلوع الصبح الى صلاة الظهر» .

وانتهت المعركة بهزيمة جيوش هولاكو . ووصلته اخبار الهزيمة وهو في تبريز فتأثر تأثراً شديداً، وراح يستعد لتغيير الموقف. ووصله في اثناء ذلك نبأ من قبل اخيه قوبيلاي ـ الذي اختير خانا اعظم للمغول ـ بتنصيبه حاكما او (ملكا) على حد تعبير صاحب جامع التواريخ على البلاد الواقعة من ضفاف جيحون حتى ديار الشام ومصر ، وان اخاه قوبيلاي قد ارسل لنجدته جيشا مؤلفا من ثلاثين الف مقاتل . فلما علم بذلك خصومه في القبجاق آثروا عدم الاصطدام به .

واتصل بركه بالمماليك في مصر واتصلوا به لعقد حلف ضد عدوهما المشترك هولاكو . وبعث بيبرس من القاهرة من يفاوض بركه بذلك سنة ٦٦٠ (١٢٦١) وسنة ٦٦١ (١٢٦٢) . كما وصل الى القاهرة سنة ١٢٦٣ م وفد من قبل بركه قبل ان ترجع البعثة التي ارسلها بيبرس .

ولم يعقب بركه ذرية فآل العرش الى منكو تيمورحفيد باتو. ولم يعد بركه في اواخرسني حكمه اول امير بعد الخان الاكبر في الدولة المغولية كما كان باتو ، بل اضحى امير دولة مستقلة . ويبدو ان عددا من اخوته اعتنق الاسلام ايضاوبالرغم من ان خلفاءه اول الامر لم يكونوا مسلمين فقد كان للاسلام شأنه ، على ان الاسلام لم يعم المملكة الا بعد وفاته بنصف قرن .

البـــاتوئية

قلنا ان باتو قد خلف اباه جوجي فيما خصه به ابوه جنكيز ، ويعتبر باتو هذا رأس مـا عرف باسم القبيلة الذهبية أو القطيع الذهبي (١٢٢٧ – ١٢٥٥)، وهو اسم أطلقه عليهم الروس المحكومون منهم ، ثم عرفوا به ؛ وقيل ان السبب في هذه التسمية هو ان مضارب الحاكم كانت مبلطة بالقرميد الذهبي . واشتهروا بالباتوئية نسبة الى باتو .

وقد غزا المغول روسيا بين سنتي ١٢٣٧ – ١٢٤٢م وعبروا نهر الفولغا فوق الثلوج وأغاروا على بولونيا سنة ١٢٤١ – ١٢٤٢م وعلى المجر ودلماسيا . وفي آخر سنة ١٢٤١ عبر باتو نهر الدانوب المتجمد وأغار على بلغاريا مخترقاً رومانيـــا الى الفولغا وتقدم في روسيا فاخضع اجزاء كبيرة منها .

وبعد وفاة الخان الأكبر كيوك اختير مكانه الأمير منكو ، وبالرغم من ان منكو كان خـانـاً أكبر فقد كانت المملكة في الحقيقة مقسمة بينه وبين باتو ، بل يمكن القول ان الامبراطورية كلها كانت تستغرق اهتمام باتو . وقد توفي سنة ١٢٥٦ على الأرجح . ويرى الجوزجاني ان باتو اعتنق الاسلام سراً . وسنة ١٢٥٧ خلفه أخوه بركه الذي أعلن اسلامه – كما تقدم – وجرى بينه وبين هولاكو ما ذكرنا بعضه قبلا .

وبعد سقوط الامبراطورية الايلخـانية (امبراطورية هولاكو وخلفائه) سنة ١٣٣٥م ارتفع شأن القطيع الذهبي في عهد اوزبك خـــان (١٣١٣ – ١٣٤١) الذي كان مسلماً فوطد الاسلام على نهر الفولغا ، ثم تتابع اعتناق الخانات للاسلام وبذلك ساد الاسلام بين مغول الفولغا .

ولم ينجح جاني بك خان ابن اوزبك (١٣٤١ - ١٣٥٧م) ولا ابنه بردي بك خان (١٣٥٧ - ١٣٥٩) في غزو آذربيجان والتقدم منها . وبذلك ظل القطيع الذهبي دولة اوربية شرقية . ومع الزمن صارت تحت رحمة من يجاورها من الدول النامية كبولونيا وليتوانيا وروسيا . وقامت فيها النزاعات الداخلية على العرش منذ سنة ١٣٥٩ ففككت العرى . ومنذ سنة ١٣٨٠ التي أحرزت فيها دولة روسيا الناشئة النصر على القطيع الذهبي ظل الأمر بين مد وجزر حتى سنة ١٤١٩ حيث ازداد التفسخ الداخلي وقامت عدة خانيات في قازان واستراخان والقريم . أما ما بقي فقد ظل موحداً شرقي كييف ، على انه انتهى الى الهزيمة سنة ١٥٠٢ ، وكذلك انتهت خانيات قازان واستراخان وسيبيريا . وبقيت خانية القريم حتى سنة ١٧٨٣ .

ويعتبر القطيع الذهبي (الباتونية) الدولة الوحيدة التي أخضعت روسيا وظلت مسيطرة طيلة قرنين ونصف قرن مما كان له أعظم الأثر في تاريخ روسيا وبولونيا وليتوانيا .

الفهرس

مصـــادر الكتاب

ابن الأثير ، ابن خلدون ، مفرج الكروب في أخبـــار بني أيوب ، جـامع التواريخ ، دائرة المعارف الاسلامية ، ابن الفوطي للشبيبي ، المغول في التـاريخ للصياد ، القاموس الاسلامي ، العراق في عهد المغول الايلخانيين للدكتور جعفر خصباك ، دائرة المعارف الاسلامية الشيعية ، الموسوعة الاسلامية ، مجلة العربي، مجلة العرفان .

٣٠/٨٣/٢/٣٠٠